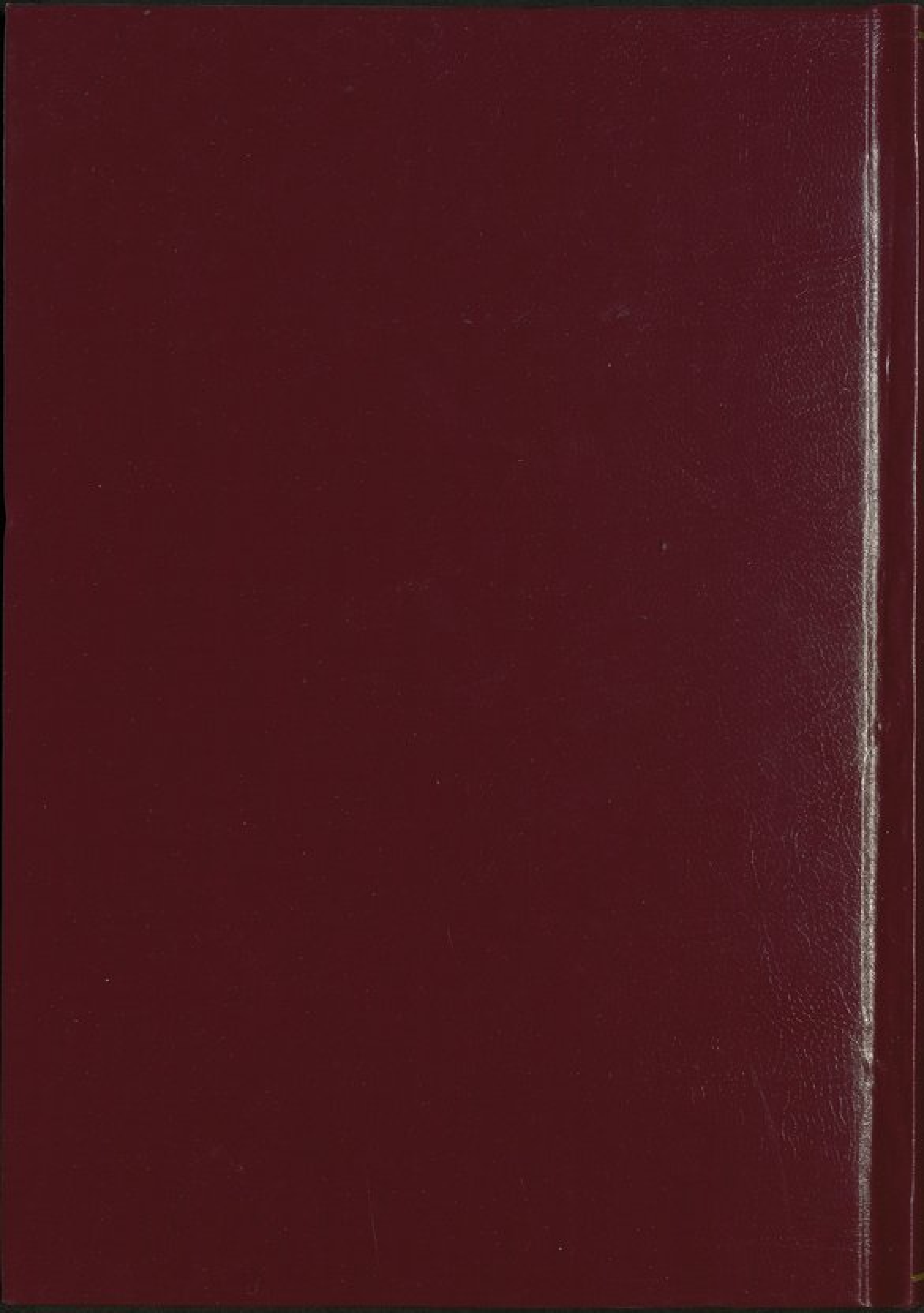
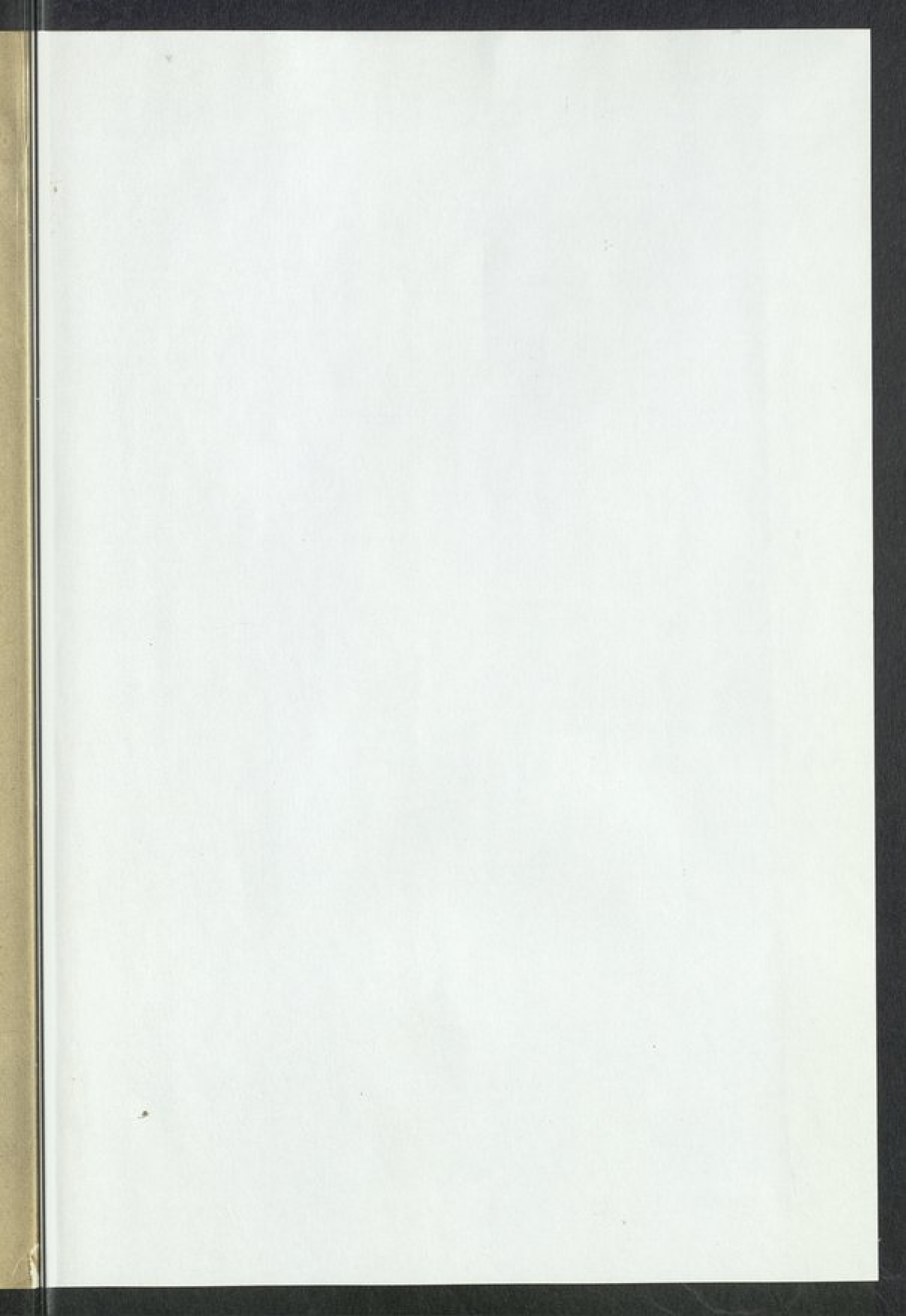



AMERICAN
UNIVERSITY OF
BEIRUT
AMERICAN UNIVERSITY OF BEIRUT
UT VITAM HABEANT ABUNDANTIUS HABEANT
1866
UNIVERSITY
LIBRARY



هدية المؤلف
الى المكتبة التي كان لها علي الفضل الأكبر
مكتبة الجامعة الأميركية في بيروت

بيروت ١٠/١١/٥٥

محمود سليم الحوت

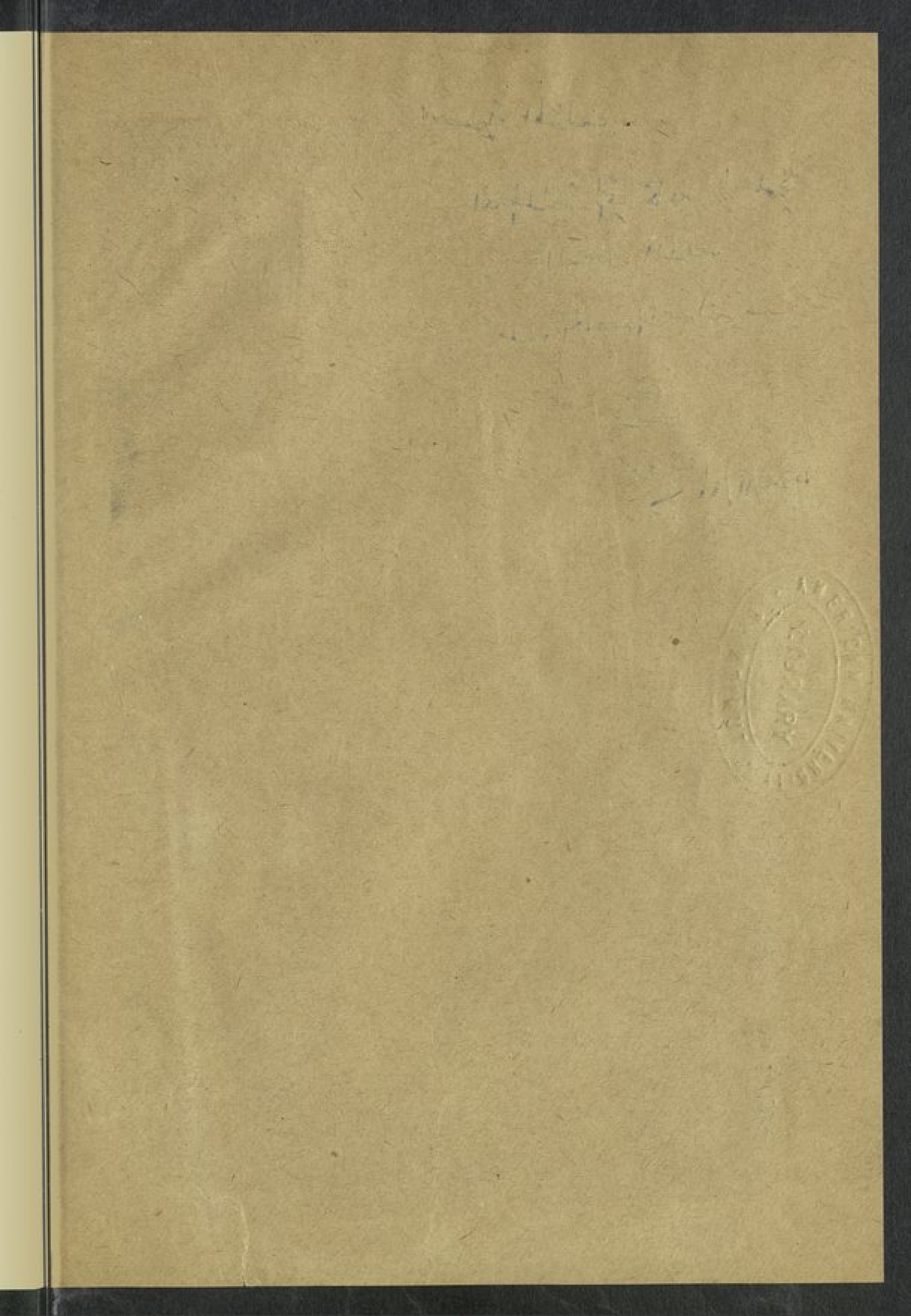
في طريق

الميثولوجيا عند العرب

وهو بحث مسهب في المعتقدات والأساطير العربية قبل الاسلام

الطبعة الأولى

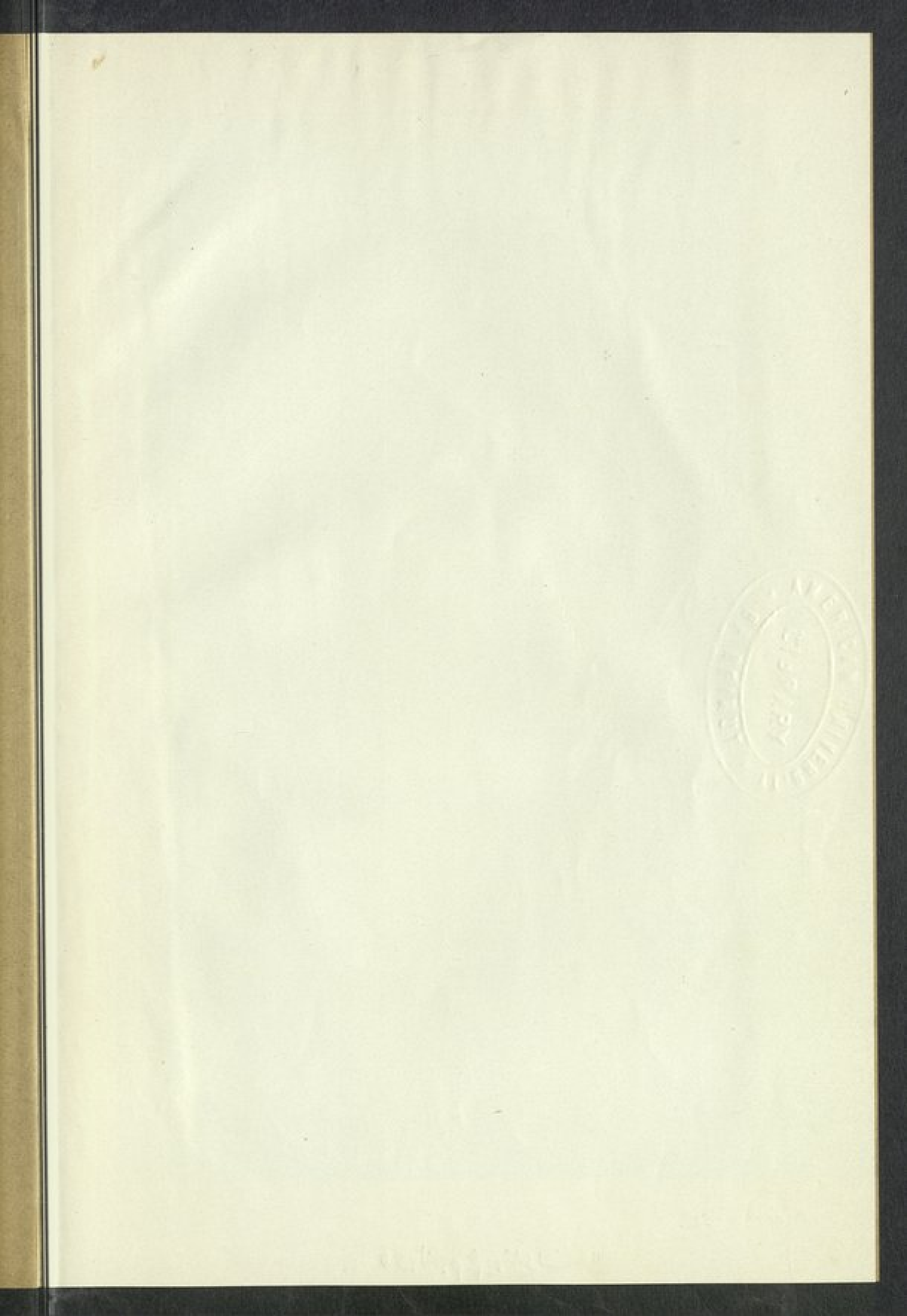
٢٠٠٠/٦/١٩٥٥





« بريشة : مصطفى فروخ »

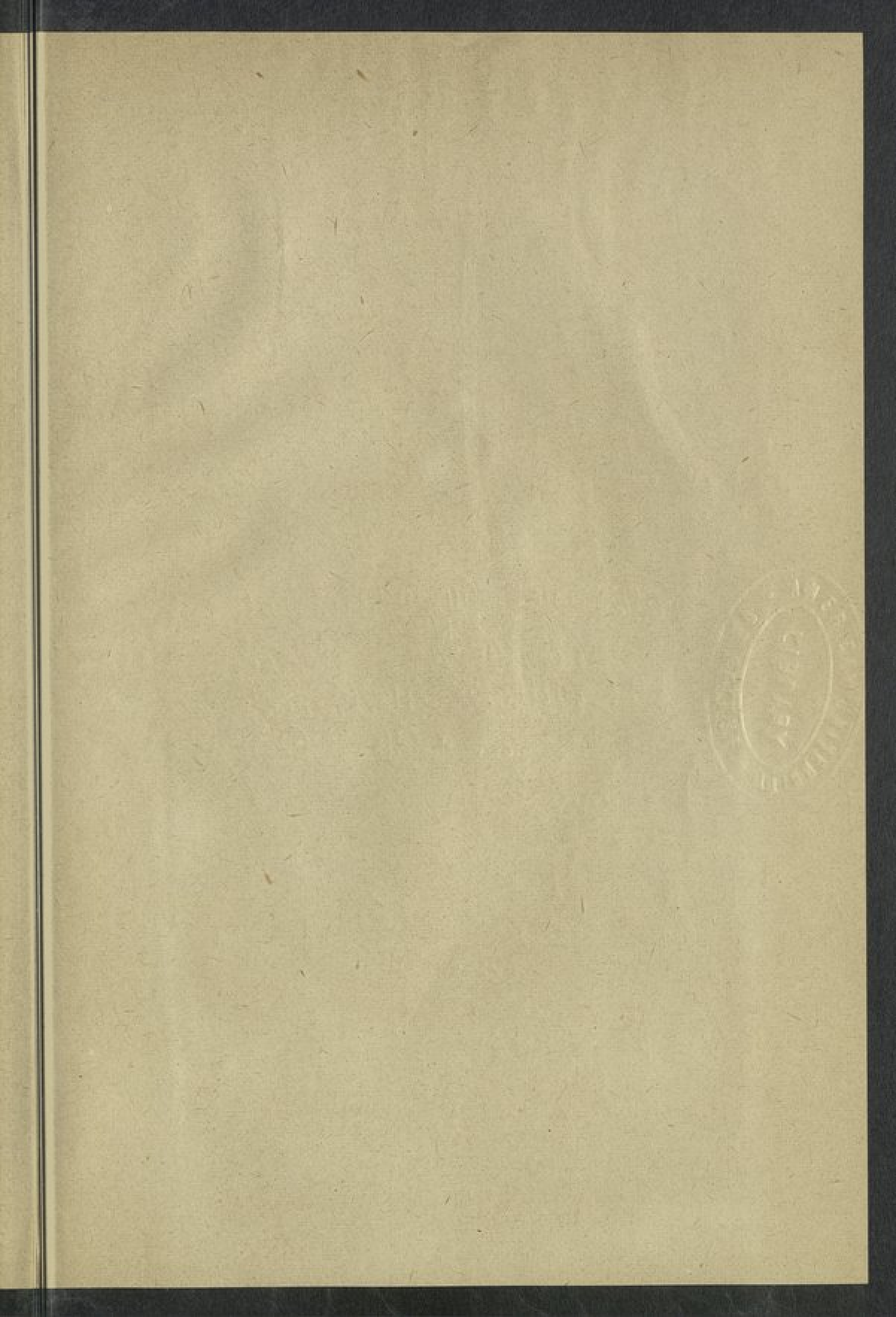
« وبالنجم هم يهتدون »



الأهداء

إلى استاذي العظيم الدكتور قسطنطين زريق ،
فهو جزءٌ زهيدٌ من فضلك عليَّ ،
وبعضٌ من كلٍّ ما أسديته إليَّ ،
إنَّه منكَ وإليكَ ،

المؤلف



تعريف وتمهيد

بقلم

الدكتور مصطفى خالدي

عرفت المؤلف معرفة شخصية وثيقة قبل بضع سنوات على أثر صدور أناشيده «المهزلة العربية» في بغداد، واعتزاله تدريس الأدب العربي في كلية الملكة عالية هناك، وقدومه الى بيروت عام ١٩٥١ .

وكنت أعرفه قبل ذلك بزمن طويل في اكثر ما صدر عنه من نثر وشعر، نشرته كبريات الصحف والمجلات العربية من شرقية وغربية .

ولد الاستاذ محمود الحوت عام ١٩١٦ في مدينة يافا لأب بيروتي الأرومة والمنشأ من آل الحوت المعروفين بالعلم والفضل في مدينتنا بيروت منذ مئات السنين، وام فاضلة تنتسب الى اسرة يافية كريمة من أعرق اسر تلك المدينة الضائعة .

وقد نشأ المؤلف في يافا الجميلة الزاهية بحدائقها وبياراتها، ودرج على مهادها، وهو القائل فيها بعد ضياع وطنه القدسي الغالي :

ما تغنىً من الطيورِ الجريحُ   لا ولا خفَّ للسباقِ الكسيحُ

فالرجاءُ الضحوكُ ما عاد في الافقِ   على ربوةِ الأماني يلوحُ

أين رحبٌ من السهول فسيحٌ   وزواهٍ من الفراديس فيحُ

أبكتها من الهضابِ الأعالي   ورثتها من الجبال السفوحُ

ثم اين الشواطىءُ الطهرُ تغدو   نشوةُ الروح فوقها وتروحُ

والبساتينُ ماها ؟ سل شذاها   هل تحجَّرتَ يا شذى لا تفوحُ

والمروج المروج ما حلَّ فيها غير ريحٍ من الصحارى تنوحُ
ليس يُجدي السؤالُ فالنفسُ ضاقت وتمنّى الفراغَ صدرٌ وزيحُ
أين « يافا » العروسُ يا ويح « يافا » أسَخيٌّ بكاؤها أم شحيحُ
أقفرت وهي قطعةٌ من جنانٍ بعد ان حلَّ عن حماها النزوحُ

وفي هذه العروس الضائعة يقول المؤلف أيضاً :ـ

يافا ، لقد جفَّ دمعي فانتحبت دماً متى أراكِ ؟ وهل في العمرِ من أمدِ ؟
أمسي وأصبحُ والذكرى مجدَّدةٌ محمولةٌ في طوايا النفسِ للابدِ
كيف الشقيقاتُ ؟ واشوقي لها مُدُناً كأنها قِطَعٌ من جنّةِ الخُلْدِ
ما حالهُا اليومَ يا يافا وهل نعمت من بعد ان سُلّمت أمساً يداً بيدٍ ؟!
وكيف من قد تبقّى في مرابعها وقد تركناه فيها تركَ ملتحدِ ؟
ما بال قلبي إذا ما سِرتُ في بلد يصيح من وجده في الصدرِ وابلدي !
مهما استقامَ له من عيشة رَغَدٍ وجدتُه هازئاً بالعيشةِ الرَّغَدِ
تَعِبْتُ لكنني ما زلتُ في تعبي أشكو الى الله لا أشكو الى أحَدِ

وقد تلقى علومه الأولية في مدارس يافا الأهلية منها والأميرية ، وما أن أتمَّ دراسته الثانوية عام ١٩٣٣ ، حتى التحق بالجامعة الاميركية في بيروت طالباً في الدائرة الاقتصادية ، غير انه لم يكمل سنتين طويلتين حتى تحول الى دائرة الدراسات العربية والشرقية وتخرّج فيها حاملاً شهادة بكلوريوس علوم (B.A.) في الأدب العربي عام ١٩٣٧ .

وعاد الى بلده حيث باشر أعماله الحرّة عاماً كاملاً ...

واشتدت الأحوال السياسية ، كالعادة ، واضطر الى الاغتراب ، فرجع الى بيروت ، ومنها قصد بغداد حيث انتدبته وزارة المعارف العراقية مدرساً فيها ، الا أنه آثر الهدوء فطلب ان يرسل الى بلدة نائية ، وعين على اثر ذلك مدرساً في متوسطة « عنة » القريبة من

الحـــدود السورية الشمالية الشرقية .

وقضى هناك سنـــة كاملة .

وحنّ الى طلب العلم من جديد ، فأمّ بيروت مرّة اخرى ، وأخذ يستعد لنيل شهادة استاذ في العلوم (M.A.) فحصل عليها في شهر حزيران من عام ١٩٤٠ .

ولم يكد يرجع الى وطنه ، ويستروح قليلا حتى عين « مساعداً لمراقب البرامج العربية والنشر » في محطة اذاعة القدس ، حيث قضى في تلك المصلحة عاماً ونيفاً .. وما كاد يستقيل ويخلد الى قليل من الراحة حتى استدعته ادارة المعارف العامة ، فأمضى بالقدس نحو ستة اشهر قبل ان تناط به وظيفة « مفتش معارف بلدية يافا » و « مساعد مفتش معارف اللواء الجنوبي » من فلسطين لمدارس المدينة ذاتها ، حيث بقي في هذا المنصب من اوائل عام ١٩٤٢ حتى انسحاب الحكومة المنتدبة على البلاد وتشريد أهاليها عام ١٩٤٨ .

وكان أن عاد المؤلف ، مع جميع افراد اسرته ، الى بيروت ، مدينة آبائه وأجداده ، واستقرّوا فيها الى ان يقضي الله أمراً كان مفعولاً .. الاّ انه لم يلبث ان غادرها وحده بعد ان انتدبته وزارة المعـــارف العراقية استاذاً في كليات بغداد العالية حيث قضى ثلاث سنوات محاضراً في الأدب العربي وتاريخه ، في كل من « الكليّة التوجيهية » و « كلية الآداب والعلوم » و « كلية الملكة عالية » ... وكان قبل ذلك قد اتفق مبدئياً على الالتحاق بوزارة المعارف الاردنية في عمان لما له من وثيق الصداقات التي تربطه مع رجالات تلك المملكة الفتية .. خاصّة وان جلالة المغفور له الملك عبد الله ، كان دائماً يصدر عن كرمه الهاشمي ، فيدعو المؤلـــف الى الاردن ، تارة شفاها وتارة اخرى بالشعر الأعصم الكريم . ومن اوائل هذا الشعر السامي قصيدة نشرتهـــا جريـــدة الدفاع الغراء التي كانت تصدر آنذاك في مدينة يافا ، وذلك بعدد يوم

الأحد الواقع بتاريخ ٣٠ آب ١٩٤٢ . وقد جاء فيها :-

(ما كنتُ في ذكر وجدي غير محترس)[١] … يقوله شاعرٌ قد هيض من شمس

قُبٍّ شوازب في ركب مشين به … يتبعن للعرب رأساً غير منتكس

فهاجه الشعر من بعدٍ وعن كثبٍ … فجاء بالدرّ قولاً طيّب النَفَس

يا شاعراً ما عرفناه لساعتنا … هلاّ تزور بلاد الأينق الكُنُس

فتستطيب رُباها والفلا مرحاً … فتطرح الأين فيها لست بالخنس

بعيدةٌ عن زحام الغيْر قد عربت … فيها المكارم تحيا لتسنن بالدُرُس

ما كنتُ أحسبُ أنّ القولَ مستمعٌ … حتى أجبتَ كلامَ الشاعرِ الأنس[٢]

عبرَ الجبال ، وعبرَ الغور تُسْمِعُنا … ما هاجَ منك ضميرَ الحانقِ اليئس

ما هذه الدارُ إلا بعضُ أرضِكُمُ … لا تيأسَنّ لذكرى غابرٍ طمِسِ

من ينصرِ الله ينصرْهُ بلا مهَلٍ … فمِنْ مآثرِ اسلافٍ لنا اقتبس

وغادر المؤلف بغداد الى بيروت . وهنا تعاقد مع جامعتها الاميركية استاذاً للأدب العربي طوال العام الدراسي ١٩٥١/٥٢ في كليتها الاستعدادية .

وما كاد هذا العام ينقضي حتى استدعته جامعة تكساس في مدينة اوستن من أعمال الولايات المتحدة الأميركية ، بالأشتراك مع وزارة الخارجية الاميركية ، استاذاً زائراً ، فغادر بيروت ، طائراً ، الى اميركا حيث أنشأ دائرة للدراسات العربية الشرقية في الجامعة المذكورة .

---

(١) اشارة الى قصيدة المؤلف الاستاذ محمود الحوت التي يقول في مستهلها :

ما كنت في ذكر وجدي غير محترس … حتى بدا طيفها في هدأة الغلس

فرعاً من النور وهاجاً كما سطعت … في ليلة القدر بشرى فجرها القدسي

مرت على خاطري رؤيا مجنحة … أسرى بها في خيالي شارد النعس

(٢) وهو يعني الاستاذ عبد المنعم الرفاعي ، رئيس التشريفات السنية آنذاك .

وكان الرفاعي قد بعث الى صديقه المؤلف بقصيدة على اثر مرور موكب سيد البلاد بوادي الموجب ، ناسجاً بدوره على منوال احدى قصائد سمو الامير عبد الله (قبل التتويج) في تلك الرحلة قد اجاب الاستاذ الحوت بقصيدته على نفس الغرار .

وفي اوائل عام ١٩٥٣ عاد الى بيروت حيث كان في ٢٠ ايلول ١٩٥١ قد تزوج من الآنسة المهذبة « نوال » كريمة ابن عمه « المغفور له » جميل سعد الدين الحوت ، ولم يستقر في العاصمة اللبنانية إلا بعد ايابـــه من رحلته الأميركية . وهو الآن يشغل منصباً رسمياً كبيراً للترجمة ، ويلقي محاضرات علم النفس على طالبات مدرسة التمريض الوطنية في بيروت .

ومهما كان تعريفي بالمؤلف ، فلن أتمكن من الاحاطة بنواحي شخصيته الثقافية كلها ، ولكنني أعلم انه كان محركاً ديناميكياً لذلـــك النشاط العجيب الغريب الذي كانت مدينة يافا تجيش به في السنوات القليلة التي سبقت عام ١٩٤٨ ، فقد أمّها للمحاضرة فيها وإلقاء طرائف من روائـع الشعر ، عدد كبير من كتّاب العالم العربي وشعرائه من أمثال عباس محمود العقاد ، وابراهيم عبد القادر المازني ، وتوفيق الحكيم من مصر ، وفؤاد الخطيب من الأردن ، وخليل مردم بك ، وعمر أبو ريشة من سوريا ، وعبدالله العلايلي وأمين نخلة ، وكرم ملحم كرم ، والحوماني ، والأخطل الصغير ، من لبنان ، واحمد الصافي النجفي ، ومحمد الجواهري من العراق وغـــيرهم كثير ، أضف الى هؤلاء كلهم أدباء فلسطين وشعراءها ، ورجال العلم فيها ، ومفكريها الذين كانوا يشتركون في حفلات المدينة الخطابية ومهرجاناتها الأدبية والشعرية التي كانت تقام على فترات قصيرة متوالية .

وعلاوة على جهود المؤلف الصادقة في العمل على إظهار تلك الحفلات والمهرجانات بما تستحق من حلة قشيبة وبهاء أخاذ ، وعلى قيامه بالتمهيد لها خير تمهيد ، وتقديمه الأدبي الرائع للكتاب والشعراء على افضل وأكرم ما يكون التقديم ، فقد كان هو نفسه سكرتيراً لعدد من اللجان الثقافية في البلاد ، ومحاضراً في كل جمعية وناد ، ومشتركاً بكل مهرجان فكري عام ، وكل حفلة أدبية او شعرية كبرى . ولطالمـــا دعي الى إلقاء المحاضرات في طول البلاد وعرضها ، فهو تارة في حيفا ، وهو تارة في غزة ، واخرى في نابلس والقدس والخليل ، وعمان . وهو ما كان

ليعتذر عن تلبية أية دعوة توجهها اليه اللجان الثقافية إلا إذا كان مدعواً حول ذلك التاريخ الى إلقاء محاضرة من محاضراتـــه او مختارات من مختارات اناشيده واشعاره .

هذا ويعود نشاط المؤلف الادبي الى عهد بعيد .. الى ايام دراستـه الثانوية الباكرة ، والى عهد طلبه العلم في جامعة بيروت الاميركية ، فقد كان من أبرز أعضاء جمعية العروة الوثقى العاملين النشيطين البنائين ، كما عمل آنذاك رئيساً للجنة التحضيرية الداعية لمؤتمر الطلبة العرب والممهدة الى عقده في القاهرة خلال صيف ١٩٣٧ ، لولا ان حالت دون ذلك ظروف محلية مصرية قاهرة .

والمؤلف ، أيان حلّ وارتحل ، لم يكن يهدأ او يركن الى سكينة فقد تغنّت بغداد طوال نزوله فيها باشعاره الوطنية ، وأناشيده الحماسية ، واغانيه الوجدانية ، وهو كثيراً ما اشترك في برامج اذاعتها ، وحاضر في أنديتها ، والقى فرائد القصائد ، وغذّى بها صحافتهـا ، الى جـانب زاوية عنوانها « من عيون الشعر العربي » كانت تخصّه بها محطة الاذاعة العراقية ليلقيها على فترات من وراء مذياعها .

وقد ألحّ عليه أصدقاؤه الكثـيرون في بغداد ، وحملوه عـــلى نشر ملحمته « المهزلة العربية » فصدرت عام ١٩٥١ ، وتخاطفتهـا الايدي ، واذاعت المقتطفات الطويلة منها محطات الاذاعة العربية في مختلف الاقطار وتناولتها صحف العالم العربي ومجلاته ، وكذلك الصحف العربية في المشرق والعالم الجديد ، بالتعليق والتقريظ ، وقد نفدت الطبعة الاولى من هذه الملحمة في ايام معدودات .

ولم أقل « حملوه » حملاً على نشرها ، مجاملة منيّ وعفواً ، فأنا أعرف عنه جيداً أنه أبعد الكتاب والشعراء عن الطنطنة ، ولهذا كثيراً ما كان يلجـأ الى الاسماء المستعارة ، أو حتى الى نشر قصائده ورسائله وقصصه ومقالاته غفـلاً من التوقيـع . ونزولاً عند ارادته فقـد وقع كثيرٌ من الصحف ،

انتاجه المتعدد النواحي بأمثال هذه الاستعارات : « م » ، « م . ح » ، « فلسطيني » ، « بحري » ، « ربيع » « ... » ، « نزيل بغداد » « بعيد » الى غير ذلك .

وعلى كثرة ما انتج المؤلف ، فلم يصدر له على شكل مجموعة او كتاب ، الا ملحمته « المهزلة العربية » وهي أناشيد عربي من فلسطين ضلّ في الآفاق ، والا هذا المؤلَّف الذي بين يديك أيها القارىء الكريم ، وقد سبق ان نشرته له تباعاً مجلة « الأديب » الغراء التي تصدر في بيروت

والمؤلِّف ، كما أعلم ، علاوة على شعره الضخم ، ديوان من القصائد الوجدانية جاهز للطبع منذ سنوات ، اسمه « ربيع » والظاهر أن توالي الاحداث قد حال دون صدوره ، ولا أدري متى يدفع به الاستاذ محمود الى عالم النشر .

هذا وعهدي بالذين تتاح لهم الفرص فيزورون اوروبا او العالم الجديد ، ان تأخذ بأبصارهم مظاهر الحياة ، وكل ما فيها من جديد بالنسبة اليهم . أما صاحبنا ، فعلاوة على تجواله في كل ناحية من نواحي الشرق العربي من جنوب مصر الى الاردن وسوريا كلها ولبنان الى العراق ، وزيارته الخاطفة لأوروبا ، فقد مكث نحو نصف عام في الولايات المتحدة الاميركية ، وطوّف ما بين شماليّها الى جنوبيّها ، وراح في محاضراته العديدة ، باللغة الانجليزية ، يعرّف ابناء « العم سام » بماضي العرب المجيد وحاضرهم المتطلع الى المستقبل ، فألقى المحاضرات على منابر جامعة تكساس وفي صفوفها ، كما دعته الاندية الكبرى وبعض الكنائس ، محاضراً في التاريخ والادب والاجتماع والدين والسياسة ، رامياً من وراء ذلك كله الى كشف ما ألقي على أبصار القوم هناك ، فحال دون رؤيتهم نور الحق الأبلج في كل ما يتعلق بقضايا الشرق العربي عامّة ، وقضية وطنه البلد المقدّس الذي ساهم في إضاعته نفر ضئيل من كبار ساستهم خاصّة . هذا ، والمؤلف ان كان يأسى لشيء معيّن ، فلم يذكر قط بعد تشريده ثروة كبيرة أضاعها ، او عرضاً دنيوياً زائلاً سقط من يديه ، وانما

يذكر ، والغم يعتصر قلبه ، الأرض التي دبّ عليها ، والتي اقتلعوا جذور شجرة احلامه من أعماقها ، ويرمي بخياله الجريح الى معظم مـا خطه وسطّره قلمه المغموس بدم قلبه من نثر وشعر خلّفها وراءه في منزله الجميل القائم في أروع احياء « يافا » الخالدة ، وأضاعها فيما أضاع حتى ذلك العام المشؤوم (١٩٤٨) .

وأخيراً حان لمؤلّفه القيم « في طريق الميثولوجيا عند العرب » ان يظهر الى عالم النشر مجموعاً في صورة كتاب كامل ، والواقع أنه لم يحل دون ظهور هذا الكتاب عائق الا ّ عنصر التواضـــع الذي يغلب عـلى المؤلّف . لقد كان كثيراً ما يقول ان كتابه هذا عبارة عن رســالة خاصة في موضوع محبب اليه ، تقدم بها الى دائرة الدراسات العربيـة في جامعة بيروت الاميركية لنيل شهادة استاذ في العلوم (M.A.) ليس الا ّ .. وكان الى ذلك يعتقد بان باحثاً اطول منه باعاً في مثل هذه الدراسات لا بد وان يطلع علينا بكتاب في الموضوع نفسه اشمل وأعم .. وانتظر ، وطال به الانتظار .. وبقي الحيّز المعدّ في المكتبة العربية لمثل هـــذا الكتاب شاغراً يترقّب .

وكان ان دفعت بالاستاذ الحوت عوامل شتى الى نشر اوليّ للكتاب في مجلة « الأديب » على دفعات ، وما كادت الابحاث تظهر حتى توالت على ادارة المجلة ، وعلى المؤلف نفسه رسائل الثناء من كبار الباحثـين ورجال الفكر واللغـــة والأدب ، مؤيدين ومشجعين وحاضّين على نشر الكتاب كاملاً .

هـذا بالاضافة الى الالحاح الشديد من مختلف الاصدقاء على اصداره منذ زمن طويل .. وها هو ذا بين ايدي القراء بحثاً مستفيضا في المعتقدات والأساطير العربية قبل الاسلام ، لا نظن ان طالب الأدب العربي ، وخاصة الجاهلي منه ، يستطيع الاستغناء عن أمثاله .

أما المثقفون من غير طلاب الأدب والحضارة العربية ، فهم أدرى بأن

الثقافات الغربية والشرقية لا يمكن ان تقوم الا على أسس وجذور ضاربة الى الاعماق . ولهذا كان للميثولوجيا اليونانية والرومانية خطرها ومؤثراتها في حضارة الغرب اللغوية والأدبية والاجتماعية .

والأستاذ الحوت كان على علم بهذه الحقائق عندما أقدم على هذا الموضوع الشائك الخطير الشائق ، كما كان على معرفة اكيدة بأنه رائد مجاهل وفاتح آفاق ، ولهذا نراه يشير الى ذلك في مقدمته .. لا بل حتى في عنوان الكتاب الذي سمّاه « **في طريق** الميثولوجيا عند العرب » ولم يكتف بتسميته « الميثولوجيا عند العرب » وحسب .

وانه ليسعدني ان يُطلبَ إليّ تقديم المؤلّف وكتابه القيم ، وإن كانا في غير حاجة الى تقديم او تعريف ، فصديقي الأستاذ محمود سليم الحوت كاتب معروف وشاعر كبير ، واما كتابه فأتركه للقراء الكرام يحكمون عليه بأنفسهم . وانهم لأقدر مني على ذلك .

بيروت في ١/٦/٥٥ الدكتور مصطفى خالدي

في طريق الميثولوجيا عند العرب

في طريق الميثولوجيا عند العرب ، رسالة كنت تقدمت بها الى دائرة الدروس العربية في جامعة بيروت الاميركية لنيل شهادة « استاذ في العلوم » وبعد الانتهاء من هذه المهمة العلمية ؛ بقيت هذه الرسالة مدة طويلة في منعزل عن عالم النشر ، وانا انتظر ان يتناول هذا الموضوع اكثر من قلم فيتعبد السبيل لمن يرغب في ارتياد تلك المجاهل من أدب العرب القديم .

واليوم ، وبعد سنوات عدّة ، وجدت لزاماً عليّ ان أدفع بها الى عالم النشر .

المقدمة

كنت ولا ازال ، اعتقد ان في الخزانة العربية حيزاً معداً للميثولوجيا لم يشغل بعد ، ولا اعلم سبباً لهذا النقص في الادب العربي الحديث ؟ ولعله اعتقاد عام ، يكاد يكون راسخاً ، باننا لم يكن عندنا ميثولوجيا خاصة ، كأن العرب ليسوا كغيرهم من الامم القديمة التي لعبت الآلهة والشياطين دوراً هاماً في حضارتها الاولى ، ولقد قالوا : حتي نتوصل الى صميم حضارة ما ، يجب ان نكون على علم بآلهتها (١)

ولعمري ان لهذا الاعتقاد اثراً فعالا في حد الخلق في ادبنا المعاصر

(١) ص ٢٩ Hackin And Others : Asiatic Mythology.

وكبح الخيال عن الانطلاق في اجواء رحبة فياضة بالاوهام والتصورات يغرق فيها المبدع والمتذوق لهذا الابداع فيعيشان هنيهات سكرى ، يمتزج فيها العقل بالعاطفة ، فتنتعش الروح ، وهل من نتيجة للادب الحي اسمى من الانتعاش الروحي ؟.

ان لمحة في الكتب الصفراء حملت شاعراً من شعرائنا الافذاذ الى عبقر فعاد وفي جعبته ملحمة صغيرة ، لو تروّى في اخراجها لجاءت اروع مما هي عليه الآن من الادب المستحب الرفيع . وعديدة هي الموحيات في تراثنا الادبي لو وجدت عبقرية هاضمة خالقة في آن واحد .

والكثير من الذين يرون ان العرب كانوا على شيء من البلوغ الى هذه العوالم ، يعتقدون انهم استوردوها ، فيما كانوا يستوردون ، من الامم المجاورة . نعم ، ان العرب لم يكونوا منعزلين عن جيرانهم ، بل كانوا ذوي صلات وثيقة بالاطراف . والتاريخ يشهد على ان المصريين القدماء ، والاكاديين قد اخترقوا بلاد العرب ، ومما زاد في احتكاكهم الخارجي نشوء المستعمرات الاجنبية في الجزيرة على توالي الزمن ، وازدهار الطرق التجارية التي كانت تنقل مستوردات الهند ، وافريقية الشرقية ، وبلاد اليمن الى العالم الغربي ، والامبراطورية البيزنطية [١] فلا عجب اذا « كان الدخيل كثيراً في العربية قبل الاسلام . لانه لا يحتمل ان يتصل العرب بسكان مصر ، والشام ، والعراق ، وفارس كما كانوا متصلين ، ولا يدخل العربية كثير من اللغات المصرية ، واليونانية ، والسريانية ، والعبرانية ، والفارسية ، ولو خفي على جامعي العربية اصل كثير من كلماتها فحسبوها كلها من صميم العربية » [٢]

لقد احتك العرب بغيرهم من الشعوب ، ما في ذلك ريب . ولا شك في اخذهم عنهم الكثير ، حتى عبدت آلهة اشورية في اليمن ، وأثرت

---

(١) ص ١٩١ O'Leary : Arabia Before Muhammad

(٢) ص : د ـ ه يعقوب صروف في مقدمته لكتاب : « فلسفة اللغة العربية وتطورها »اضومط

حضارة الفينيقيين واليونان في اليمنيين ، كما ظهر انه كان للحضارة الاشورية والنبطية تأثير على الحجازيين .

حسن كل ذلك ، على أنـــه بدهيّ ايضاً ان يكون للعرب انفسهم تأثير على غيرهم من هذه الشعوب ، فالقضية لا بد وان تكون « كبيع السوق خذ مني وهات » كما يقول جرير ! مما أدى بهومل Hommel الى القول ان من المحتمل الشديد ان يكون اليونان قد استعاروا ، منذ القدم ، عن طريق التجار العرب الجنوبيين آلهتهم Apollo وامه Leto و Dionysos و Hermes [1] . ونعلم ايضاً ان اليونان قد اخذوا الكثير من شعوب الهلال الخصيب من آلهة ومعتقدات .

فكيف إذاً نحمل الميثولوجيا العربية الضيم إذا استعارت من غيرها ، ولدى التحقيق لا نجد ميثولوجيا خاصة لشعب من الشعوب دون ان تكون قد أخذت الكثير من غيرها ؟ ولو اوغلنا في القدم متعمقين في اصل اللغات [2] لوجدنا ان هذه الاساطير وما بها من اسماء ميثولوجية انما تنبثق في البدء من اصل واحد ، وتتفرع بانشقاق الشعوب ، وتختلف باختلاف طرق المعيشة التي اخذ باسبابها كل شعب في نطاقه على حدة . ولهذا نجد كثيراً من الشبه الاصـــلي في ميثولوجيا الشعوب المتجاورة والمتباعدة منها .

فالقضية اخذ وعطاء ، كما قلنا ، لا بل ان المغرقين في الشبهات يرون حتى الاديان السماوية ، في زعمهم ، سلسلة اعتقادات ، فاذا ما تداولوا قصص القرآن التي تدور حول اشخاص توارتية وجدوا لهـــا تتبعاً في التلمود ، وفي احوال اخرى يرون امثال هـــذه الاساطير في الزندفستا Zendavesta [3] او الوثيقة الاصلية لديانة زروستر Zoroaster [4] .

---

(١) ص ٣٨٠ ، المجلد الأول Encyclopaedia of Islam

(٢) ص : ١٢٩ المجلد التاسع عشر Encyclopaedia Britannica

(٣) ص : ٣٣٨ Claude Reignier Conder : Syrian Stone-Lore

(٤) ص : ٩٦٧ المجلد الثامن والعشرون Encyclopaedia Britannica

ولعل امتناعنا عن البحث في الميثولوجيا العربية ناتج عن الظن بأن الميثولوجيا هي وقف على العلاقات بين الآلهة والابطال من زواج وحروب، كما كان عند الاغريق حيث تشارك الآلهة البشر بالاحساس والمأكل والمشرب، وحيث كثر تشبيه البشر بالآلهة في الشعر حتى زعموا انه كان لكثير من ابطال اليونان علاقة نسب بالآلهة، وكذلك لغيرهم من الشعراء كهوميروس الذي اعجب به ارسطو فالصق نسبه بالآلهة [1]

على انه، وان كان عند العرب ما يشبه ذلك، كما سنرى، فليس هذا كل ما تعطيه الميثولوجيا من معان. فهي علم يبحث في اساطير التكوين والآلهة والابطال، وهي كلمة تطلق على هذه الاساطير نفسها. فعندما نتكلم عن الميثولوجيا اليونانية نعني بذلك اساطير البطولة اليونانية، والمقدسة، والسماوية، كما نعني بعلم الميثولوجيا تلك المحاولات التي رمت الى ايضاح هذه الخرافات [2]. وتعطي كلمة الميثولوجيا، ايضاً، معنى عرض الخرافة او تفسيرها، وتطلق على القصة الخرافية نفسها او على مجموعة اساطير تتعلق بالمعتقدات الخرافية او الدينية لقطر من الأقطار او شعب من الشعوب، او على تلك الناحية من العلوم التي تعنى بالخرافات والأساطير [3]. ولهذا قال احمد امين ان الخرافات كسد مارب والخورنق وغيرها اصبحت موضوعاً لما يسمى علم الميثولوجيا [4]

فإذا ما درسنا الميثولوجيا العربية فيما سنثبته من فصول، لا نكون أبعدنا عن صميم الموضوع، وبهذا نكون ان مهدنا الطريق الى باب لم يزل مغلقاً، قد بلغنا الغاية التي بذلنا من اجلها هذا المجهود القليل.

---

(١) ص : ٢٢ ، ٢٨٦ ، ٥٩٠ سليمان البستاني : الياذة هوميروس

(٢) ص : ١٢٨ المجلد التاسع عشر Enc. Brit

(٣) ص : ٨١٩ المجلد السادس Oxford Dictionary

(٤) ص : ٤٧ ، ٤٨ احمد امين : فجر الاسلام

الباب الأول
رفض عبادة الأحجار في الجزيرة العربية

الفصل الاول : في الاسلام

لم يبق الاسلام على اثر من عبادة الاحجار التي سادت أديان الجاهليين في بلاد العرب . فقد كان الشرك بالله اول ما دعا محمد الى محاربته والقضاء عليه . ولم يتساهل هذا الرسول العربي ، على ضعفه في بدء الدعوة مع قريش ، اشد القبائل مناهضة للدين الجديد ، في شيء من امور آلهتهم ، بل أخذ يسفه احلامهم ويعيب اديانهم ، بعد ان كذبوه وآذوه ، ورموه بالشعر والسحر والكهانة والجنون ، ولما اشتد عليهم أمره وكادت تعاليمه تنتشر بين القبائل ، اجتمع رهط من اشراف قريش وبعثوا اليه فجاءهم ، وكان حريصاً على رشدهم فقالوا له : « يا محمد انا قد بعثنا اليك لنكلمك ، وانا والله ما نعلم رجلاً من العرب ادخل على قومه ما أدخلت على قومك . لقد شتمت الآباء ، وعبت الدين ، وشتمت الآلهة وسفهت الاحلام وفرقت الجماعة ، فما بقي امر قبيح إلا قد جئته فيما بيننا وبينك .. فان كنت انما جئت بهذا الحديث تطلب به مالاً جمعنا لك من اموالنا حتى تكون اكثرنا مالاً ، وان كنت انما تطلب به الشرف فينا فنحن نسودك علينا ، وان كنت تريد ملكاً ملكناك علينا وان كان هذا الذي يأتيك رئياً تراه قد غلب عليك .. بذلنا اموالنا في طلب الطب لك حتى نبرءك منه او نعذر فيك » فيجيبهم محمد بقوله :

« ما بي ما تقولون . ما جئت بما جئتكم به اطلب اموالكم ولا الشرف فيكم ولا الملك عليكم ، ولكن الله بعثني اليكم رسولاً وانزل عليّ كتاباً وامرني ان اكون لكم بشيراً ونذيراً فبلغتكم رسالات ربي ونصحت لكم فان تقبلوا مني ما جئتكم به فهو حظكم في الدنيا والآخرة ، وان تردوه علي أصبر لأمر الله حتى يحكم الله بيني وبينكم [١] »

وهنا يعلمون ان بينهم وبينه لصراع المستميت فيجادلونه ويناضلونه سواء دفاعاً عما ورثوه من العادات المتأصلة والمعتقدات ، وذوداً عن حياض الآلهة ، او كما يرى نلدكه ، انفةً منهم عن الانصياع الى حاكم فرد او حكومة منظمة ، ورغبةً في احتفاظهم بشؤون اقتصادية لها علاقة وثيقة بالمقامات الدينية بينهم [٢] .

وما زال هذا الصراع محتدماً حتى لانت قناتهم امام هذا الدين الجديد الذي حاربهم بالكلام والسيف .

وبدلاً من اشتراطهم على النبي - فيما بعد - ان يعبدوا آلهتهم العديدة علاوة على عبادة أله الواحد اساساً لدخولهم في الاسلام ، اخذوا يطلبون منه ان لا يهدم هذه الآلهة ، او فليبق عليها ولو مدة من الزمن فأبى بل وطلب من وفودهم ان يهدموها بانفسهم . رووا ان ركب ثقيف قدموا يريدون البيعة والاسلام ، واشترطوا ان لا يهدم لهم الطاغية - وهي اللات - ثلاث سنين فابى عليهم ذلك ، فما برحوا يسألونه سنة سنة وهو يأبى حتى سألوه شهراً واحداً بعد مقدمهم ، فابى عليهم ان يدعها شيئاً مسمى ، وكان من شروطهم مع ترك الطاغية ان لا يكسروا اوثانهم بايديهم . فقال لهم : اما كسر اوثانكم فسنعفيكم منه [٣]

ومما يذكر ايضاً مع هذا الحديث ما رواه موسى بن عقبة قال :

---

(١) ص : ١٨٧ ، ١٨٨ محمد بن اسحاق - رواية ابن هشام : السيرة

(٢) ص : ٦٥٩ المجلد الاول : Enc. of Religion and Ethics

(٣) ص : ٩١٦ : السيرة

« ان وفد ثقيف كانوا بضعة عشر رجلا فلما قدموا انزلهم رسول الله المسجد ليسمعوا القرآن ، فسألوه عن الربا والزنا والخمر فحرّم عليهم ذلك كله ، فسألوه عن الربة ما هو صانع بها ؟ قال : اهدموها ، قالوا : هيهات ! لو تعلم الربة أنك تريد ان تهدمها قتلت اهلها ! فقال عمر بن الخطاب : ويحك يا ابن عبد ياليل ما اجهلك ! انما الربة حجر . فقالوا: انا لم نأتك يا ابن الخطاب ! ثم قالوا : يا رسول الله تولّ انت هدمها. اما نحن فانا لن نهدمها أبداً . فقال : سأبعث اليكم من يكفيكم هدمها [1] » .

ولما خرج الرسول من المدينة متوجهاً الى مكة قال العباس بن عبد المطلب : « يا صباح قريش ، والله لئن بغتها الرسول في بلادها فدخل مكة عنوة انه لهلاك قريش آخر الدهر [2] » . غير ان محمداً يدخل مكة فاتحاً في السنة الثامنة للهجرة ، ويقف على باب الكعبة ، ثم يقول من حديث له : « يا معشر قريش ان الله قد أذهب عنكم نخوة الجاهلية وتعظمها بالآباء . الناس من آدم ، وآدم خلق من تراب » ويتلو الآية : « يا ايها الناس أنا خلقناكم من ذكر وانثى ، وجعلناكم شعوباً وقبائل لتعارفوا ، ان اكرمكم عند الله اتقاكم » [3] ويخاطب قريشاً بقوله : « يا معشر قريش ويا اهل مكة ما ترون اني فاعل بكم ؟ » فيقولون : « خيراً .. أخ كريم وابن اخ كريم » فيسرحهم ويقول : « اذهبوا فأنتم الطلقاء » [4] .

وهنا تتجلى سلطة النبي واتباعه ، بعد ان كان يستهزأ به وبدينه ، ويقال لتابعه وهو يعذب اشد العذاب : اما ان تموت او تكفر بمحمد [5] .

---

(١) ص : ٣٣ المجلد الخامس ، ابن كثير : البداية والنهاية

(٢) ص : ١٦٣٠ ، ١٦٣١ المجلد الاول ، تاريخ الطبري

(٣) القرآن الكريم : سورة ٤٩ آية ١٣

(٤) ص : ١٦٤٢ المجلد الاول ، تاريخ الطبري

(٥) ص : ٢٠٥ ، ٢٤٨ ، ٢٤٩ : السيرة .

اما الآن فقد اصبح يفرض عليهم ما يشاء فرضاً .. ويدخل الكعبة والاصنام مصفوفة بها فيطعنها في عيونها وهو قائل : جاء الحق وزهق الباطل ان الباطل كان زهوقاً .. ويصلي الظهر يوم الفتح ، ثم يأمر بالاصنام التي كانت حول الكعبة كلها فتجمع ثم تكسر وتحرق . وفي ذلك يقول الليثي ، فضالة بن عمير بن الملوح :

أوما رأيت محمداً وجنوده بالفتح يوم تكسر الاصنام
لرأيت نور الله أصبح بيننا والشرك يغشى وجهه الاظلام [1]

وينادي في هذا اليوم مناد يقول : « من كان يؤمن بالله واليوم الآخر فلا يترك في بيته صنماً الا كسره وأحرقه ، وثمنه حرام [2] »

ومن المفيد ان نشير الى المبالغات والاساطير التي حيكت فيما بعد حول اعمال المسلمين الاول بارباب العرب في الجاهلية وعبادتها . كأن يروى مثلاً عن ابي هريرة قوله : « لما بعث الرسول اصبح كل صنم منكساً فأتت الشياطين ابليس فقالوا ما على الأرض من صنم الا وقد اصبح منكساً ، قال ، هذا نبي قد بعث » [3] .

ولقد يؤول ما عناه أبو هريرة ، ان ثبت هذا عنه ، بغير ما يفهم من كلمته مجردة ، فلا بأس عندئذ من تفسيره بان الاسلام قد نكس الاصنام ومحا اثرها بعد ذلك من اطراف الجزيرة باسرها .

ويحدث ابن هشام عمن يثق بـه في اسناد له يرجع الى ابن عباس ، قال : « دخل رسول الله (صلعم) مكة يوم الفتح على راحلته فطاف عليها ، وحول البيت اصنام مشددة بالرصاص ، فجعل النبي (صلعم) يشير بقضيب في يده الى الاصنام ويقول جاء الحق وزهق الباطل ان الباطل كان زهوقاً ، فما اشار الى صنم منها في وجهه الا وقع لقفاه ،

---

(١) ص : ٧٦ ، الأزرقي : اخبار مكة
(٢) ص : ٧٨ ، نفس المصدر .
(٣) ص : ٢٠ ، المجلد الثالث ، البداية والنهاية لابن كثير .

ولا اشار الى قفاه الا وقع لوجهه حتى ما بقي منها صنم إلا وقع ، فقال تيم بن اسد الخزاعي في ذلك :

وفي الاصنـــام معتبر وعلم   لمن يرجو الثواب او العقابا[١]

وانه ما كان يزيد الرسول على ان يشير بالقضيب الى الصنم فيقع لوجهه[٢] .

وهذا قليل بالنسبة الى ما يروونه من اعمال الانبياء او حتى عن الأولياء والدراويش .

ولما انتهى محمد من تحريق اصنام الكعبة وتكسيرها ، وتنظيف مكة منها ، بثّ السرايا إلى اصنام القبائل الاخرى لهدمها ، فكان على رأس تلك السرايا عدد من مشاهير رجاله وقواده كالطفيل بن عمرو الدوسي ، وسعيد بن عبيد الأشهلي ، وعمرو بن العاص والمغيرة بن شعبة ، وعلي بن ابي طالب ، وخالد بن الوليد وغيرهم .

وما ذاع نبأ وفاة النبي حتى وقع نعيه كالصاعقة على رؤوس المسلمين وكاد يذهل أشدهم صلابة وبأساً . وناهيك بابن الخطاب يقسم ان محمداً ما مات ! وعبثاً يحاول المغيرة اقناعه بالحقيقة المرة . ولما ألح المغيرة عليه قال ، : كذبت ! [٣] . غير ان أناة أبي بكر وحزمه وضعا حداً لحدث عظيم في تاريخ الاسلام فقد فاجأ عمر ومستمعيه في المسجد بقوله : « إن من كان يعبد محمداً ، فان محمداً قد مات ، ومن كان يعبد الله فان الله حي لا يموت [٤] وذكرهم بالآية التي كادوا ان ينسوها لهول الصدمة في تلك الآونة : « وما محمد إلا رسول قد خلت من قبله الرسل ، أفأن مات او قتل انقلبتم على اعقابكم ، ومن ينقلب على عقبيه فلن يضر الله شيئاً وسيجزي الله الشاكرين » [٥] .

---

(١) ص : ٨٢٤ ، ٨٢٥ السيرة .
(٢) ص : ٧٦ الازرقي
(٣) ص ٤٧٨ محمد حسين هيكل : حياة محمد
(٤) ١٠١٢ ، السيرة
(٥) القرآن الكريم : سورة ٣ آية ١٣٨

وبالرغم من اتخاذ المسلمين الحيطة لكل طارىء فقد سرى الخبر بين القبائل سريان البرق ، وارتد كثير من الاعراب الى الطواغيت وعباداتهم الاولى ، وسمع مثل قولهم :

أطعنا رسول الله ما كان بيننا فيا لعباد الله ما لأبي بكر ؟ (١)

حتى ان منهم من ارتد قبل وفاة الرسول ، وكان قد اسلم لغرض في نفسه ، فلما قضاه ارتد الى أهله مشركاً وقال :

وكنت الى الأوثان اول راجع (٢)

غير ان أبا بكر ، البطل الأول في حروب الردة ، يتصدى لهؤلاء بعقيدة ثابتة ، وعزم لا يتزعزع ، فيقضي على هذه الفتنة ويعيد المرتدين الى حظيرة الاسلام ، ويجري التاريخ ...

الفصل الثاني : قبل الاسلام

وليس الاسلام اول من دعا إلى رفض هذه العبادة ، فقد كان في بلاد العرب المتحنفون ، وذلك بعد ان هاجر ابراهيم إلى الحجاز كما تخبرنا الكتب المقدسة ، يقيمون الصلاة لاله واحد ، قال جران العود :

وادركن اعجازاً من الليل بعدما اقام الصلاة العابد المتحنف (٣)

ولا ننسَ ما كان منبثاً من التعاليم اليهودية والمسيحية ، تينك الديانتين اللتين وجدتا لهما مكاناً في بلاد العرب قبل الاسلام باجيال . كما كان هناك افراد لم يثبت أنهم دانوا بدين سماوي ، الا انهم سفهوا عبادة الاحجار وكرهوا ما كان يصحبها من شعائر ومناسك .

اولاً : الحنيفية

الحنيفية أو دين إبراهيم عليه السلام . والقليل معروف عن هذا النبي ،

---

(١) ص ١٨٧٥ ، المجلد الاول تاريخ الطبري

(٢) ص ١٥١٦ نفس المصدر

(٣) ابو سعد السكري ، ديوان جران العود – : صفحة ٢٢

حتى ان بعض الماديين من باحثي التاريخ يعتبرون ، على زعمهم ، ترجمته المذكورة في سفر التكوين في حكم الاسطورة ، فما أقاربه ، على رأيهم ، الا اسماء قبائل ليس إلا ، وما ابناؤه وآباؤه من يعقوب الى نوح الا اسماء قصصية . اما اصله فقيل انه من الرافدين وفد من « أور » الى بلاد الكنعانيين [1] وقد دخل مدينة حران فسكنها مدة وتزوج بنت ملكها « سارة » ثم هبط بلاد الأردن . وهناك قدمت له سارة جاريتها هاجر لعله يأتي منها بولد ، اذ انها كبرت ولم ترزق البنين . فلما حملت هاجر ووضعت اسماعيل ، اغتمت سارة ودخلتها الغيرة ، وطلبت من زوجها ان يحوّل هاجر الى حيث شاء ، فاوحي اليه ان احمل هاجر واسماعيل الى ارض الحرم . فسار ابراهيم بزوجه وولده إلى الحجاز ونزل قريباً من البيت ، والبيت كأنه ربوة من آثار الطوفان [2] وامر هاجر ان تتخذ عريشاً وقال : « ربنا اني اسكنت من ذريتي بواد غير ذي زرع » [3] ثم انصرف الى الشام [4] . وتفيد القصة انه لم يكن بمكة بيت مشيد بعد ، ولم يرفع هو وابنه قواعد البيت الا لما زارها للمرة الثالثة [5] وذلك بعد ثلاث وعشرين سنة من مفارقة اسماعيل ، فقد اشتاق اليه فسار حتى لقيه وهنالك اوحى الله اليه ان ابن البيت المحرم [6] فاطلع ولده اسماعيل على هذا الامر ، وقاما يحفران عن القواعد ويقولان : « ربنا تقبل منا انك انت السميع العليم » [7] وكان اسماعيل ينقل

---

(١) المجلد الاول ، صفحة ٩٠ The Jewish Encyclopaedia

(٢) علي بن حمزة الكسائي ، قصص الانبياء ، ج ١ صفحة ١٤١ – ١٤٣ .

(٣) القرآن الكريم ، سورة ١٤ آية ٤٠ .

(٤) الأزرقي ، اخبار مكة : صفحة ٢٢ .

(٥) الطبري ، تاريخ الرسل والملوك : ج ١ صفحة ٢٧٨ – ٢٨٢ .

(٦) قصص الانبياء ج ١ صفحة ١٤٤ – ١٤٥ .

(٧) القرآن الكريم سورة ٢ آية ١٢١ .

الحجارة وابراهيم الشيخ يبني حتى ارتفع البناء [1] .

هذا ولا تكاد توجد اسطورة تتحدث عن ابراهيم الا ومن اهم خطوطها محاربة الاصنام . فقد جاء انه وهو في الرابعة عشرة من عمره ترك اباه ، بل حاول ان يقنعه بترك عبادة الاوثان . ومما يروى انه قام في احدى الليالي واضرم النار في البيت المحفوظة فيه ، وقد احترق اخوه ومات في محاولته انقاذها واطفاء النار [2] .

والآيات التي وردت في القرآن الكريم بهذا الشأن كثيرة ومفعمة بحديث تلك الحملة الشعواء التي حملها ابراهيم على الاصنام دون ان يخشى غضب قومه وغضب النمرود الذي أمر بإلقائه في النار .. فلم تكن عليه إلا برداً وسلاماً . وفي « الأنعام » اخبار عن مجادلة ابراهيم اباه في اصنامه وآلهته . ووصف لحيرة ابراهيم في معرفته ربه بادىء ذي بدء ، ولما لم يقتنع بالكواكب ولا بالشمس والقمر وجه نفسه للذي فطر السموات والأرض ، وقال لقومه بعد ان حاجّوه بالله ، كيف أخشى ما أشركتم ، ولا تخافون انكم أشركتم بالله [3] وجاء في « الحج » : « وإذ بوأنا لابراهيم مكان البيت ان لا تشرك بي شيئاً ، وطهر بيتي للطائفين والقائمين والركع السجود . وأذّن في الناس بالحج يأتوك رجالاً وعلى كل ضامر يأتين من كل فج عميق . ليشهدوا منافع لهم ويذكروا اسم الله في ايام معلومات » [4] . موفين النذور ، مجتنبين الرجس من الأوثان حنفاء غير مشركين .

وكانت جرهم يومئذ بواد قريب من مكة ، وقد نبش الطفل اسماعيل عين زمزم فلزمت الطير مكانها ، فجاءت هذه القبيلة الى هاجر ، وطلبوا

---

(١) اخبار مكة : صفحة ٢٦ .

(٢) المجلد الأول ، صفحة ٨٥ The J. Encyc.

(٣) يراجع القرآن الكريم سورة ٦ آية ٧٤ – ٨٤ .

(٤) القرآن الكريم سورة ٢٢ آية ٢٧ – ٣٠ .

منها ان تسمح لهم بالاقامة في جوارها ، حتى شب إسماعيل وتزوج امرأة من جرهم ، قيل انه طلقها لفظاظتها حسب وصية ابيه إبراهيم ، وتزوج اخرى فاستقامت عنده [1] . وهكذا يتكاثر ولد اسماعيل وينتشرون كما انتشر دين ابيـــه في الحجاز وغيره من اماكن الجزيرة ، كما يؤول من الأسطورة التي سردها الأزرقي وترجع الى محمد بن إسحاق قال : لما فرغ إبراهيم خليل الرحمن من بناء البيت الحرام جاء جبريـل فقال طف به سبعاً ، فطاف به سبعاً هو وإسماعيل يستلمان الأركان كلها في كل طوف ، فلما أكملا سبعاً هو وإسماعيل صليا خلف المقام ركعتين ، قال فقام معه جبريل فأراه المناسك كلها الصفا والمروة ومنا ومزدلفة وعرفة » وبعد حصب ابليس ، وعرفان ابراهيم مناسكه كلها أمره ان يؤذن في الناس بالحج ، فقال ابراهيم : « يا رب ما يبلغ صوتي » فقال الله تعالى « أذن وعلي البلاغ » ... « فعلا على المقام فأشرف به حتى صار ارفع الجبال وأطولها ، فجمعت له الأرض سهلها وجبلها وبرها وبحرها وإنسها وجنها حتى أسمعهم جميعاً » وكان قد وضع إصبعيه في أذنيه وأقبل بوجهه يمناً وشاماً وشرقاً وغرباً « وبدأ بشق اليمن فقال أيهـــا الناس كتب عليكم الحج الى البيت العتيق ، فأجيبوا ربكم ، فأجابوه من تحت التخوم السبعة ، ومن بين المشرق والمغرب الى منقطع التراب من أقطار الأرض كلها : لبيك اللهم لبيك .. » [2]

وإن دل هذا الحديث على شيء فإنما يعبر عن انتشار هـــذا الدين الحنيف - كما يطلق عليـه القرآن الكريم - دين إبراهيم الخليل . فقد يظهر انه انتشر في تلك الأماكن من بلاد العرب وخصوصاً بعد ان صاهر إسماعيل - كما يقولون - قبيلة جرهم ، وقد غلبت جرهم هـــذه على ولاية البيت بعد اسماعيل ؛ وطغت هنـالك وبغت حتى ارسـل الله

---

(١) تاريخ الطبري ١ / ٢٨٣ - ٢٨٤ .

(٢) اخبار مكة ، صفحة ٣٣ - ٣٤ .

الرعاف – وهو المطر الغزير – واجتمعت على إجلاء من بقي منهم خزاعة ، وكانت هذه تقيم في تهامة ، فخرج سيد جرهم يلتمس التوبة من الكعبة فلم تقبل . ولا تنفك الاسطورة عن جرهم حتى تبيدها . يقول صاحب الكامل : « فلم تقبل توبته .. وخرج بمن بقي من جرهم الى ارض جهينة فجاءهم سيل فذهب بهم اجمعين » [١] . وسيد جرهم ذاك هو الذي تنسب له القصيدة :

كأن لم يكن بين الحجون الى الصفا أنيس ولم يسمر بمكة سامر

كما سنرى فيما بعد .

* * *

يموت اسماعيل ويبقى الحج الى مكة ، والطواف بالبيت ، وتعظيم مكة . وتكر الأيام ويعفى الزمن شيئاً فشيئاً على هذا الدين . وتأخذ بذور عبادة الاصنام تنبت بشدّة بينهم ، فما نشر عمرو بن لحي اوثانه الا وهم متهيئون لقبولها آلهة . يقول ابن إسحق : « ويزعمون ان اول ما كانت عبادة الحجارة في بني اسماعيل انه لا يظعن من مكة ظاعن منهم حين ضاقت عليهم والتمسوا الفسح في البلاد الا حمل معه حجراً من حجارة الحرم تعظيماً للحرم ، فحيثما نزلوا وضعوه فطافوا به كطوافهم بالكعبة حتى سلخ ذلك بهم الى ان كانوا يعبدون ما استحسنوا من الحجارة واعجبهم حتى خلفت الخلوف ونسوا ما كانوا عليه واستبدلوا بدين ابراهيم واسماعيل غيره فعبدوا الاوثان وصاروا إلى ما كانت عليه الأمم قبلهم من الضلالات وفيهم على ذلك بقايا من عهد ابراهيم يتمسكون بها من تعظيم البيت والطواف به والحج والعمرة والوقوف على عرفة والمزدلفة وهدي البدن والاهلال بالحج مع ادخالهم فيه ما ليس منه » [٢] .

---

(١) ابن الأثير ، الكامل في التاريخ : ج ٢ صفحة ٣٠

(٢) محمد بن اسحاق ، السيرة رواية ابن هشام : صفحة ٥١ – ٥٢ .

ثانياً : اليهودية والنصرانية

اليهودية : وكان غير المتحنفين في بلاد العرب قبل الاسلام عدد كبير من اليهود والنصارى ، وان كانت الاكثرية عباد اوثان وكواكب . ومن الصعب ان نتحقق تاريخياً من بدء وجود اليهود في الجزيرة العربية فالبعض من الثقات يظن ان وجودهم باليمن يرجع الى ايام سليمان ، والبعض الى عهد سقوط اورشليم على يد نبوخذنصر[١] ومن الجائز ان يكون نزوحهم الى الجنوب قد تزايد مباشرة بعد تخريب الهيكل الثاني بقليل . ويظن نكلسن ان اقدم المستعمرات اليهودية في الحجاز يرجع الى زمن سقوط القدس بيد تيطس او هدريان[٢] « وعلى كل فقد كان في القرون الاولى للميلاد مستعمرات يهودية في تيماء وفي فدك وفي خيبر وفي وادي القرى وفي يثرب وهي اهمها . وكان يهود يثرب ثلاث قبائل بني النضير وبني قينقاع وبني قريظة »[٣] .

ولا سبيل الى القول انهم ما حملوا معهم توراتهم بتعاليمها ومعلوماتها في جانب اساطيرهم وخرافاتهم ، كما انهم ادخلوا على العربية كلمات ومصطلحات دينية جديدة . ولقد كانوا ايجابيين في الاعمال اليدوية فلم يحرثوا الارض ويزرعوا النخيل فحسب ، وانما كانوا مهرة في صنع الاسلحة والمصوغات . وقد اندمجوا بالعرب – لا كما يظن البعض – واعتنقوا عاداتهم واتخذوا اسماءهم حتى ان اسماء التوراة لم تكن شائعة إلا بين نفر قليل ، كما كانت اسماء قبائلهم عربية محضة لا تفيد عن اصلهم شيئاً[٤] .

---

(١) المجلد الثاني Encyclopaedia Britannica : صفحة ٢٦٢ .

(٢) R. A. Nicholson : A Literary History of the Arabs صفحة ١٣٧ .

(٣) احمد امين ، فجر الاسلام ، صفحة ٢٧ .

(٤) المجلد ٢ صفحة ٤٢ The J. Enc.

ومما يجدر بالاشارة « ان اليهودية حلت بجزيرة العرب بعد ان تأثرت بالثقافة اليونانية تأثراً كبيراً ، لانها ظلت قروناً تحت الحكم اليوناني الروماني ، ولانها كانت منتشرة في الاسكندرية وعلى شواطىء البحر الابيض حيث الثقافة اليونانية »[1]

وامتدت دياناتهم - وان ندر امتدادهم بانفسهم - إلى ما وراء يثرب فقد تهود الكثير من العرب ، قال اليعقوبي : « فاما من تهود منهم فاليمن باسرها ... وتهود قوم من الأوس والخزرج بعد خروجهم من اليمن لمجاورتهم يهود خيبر وقريظة والنضير ، وتهود قوم من بني الحارث ابن كعب وقوم من غسان وقوم من جذام »[2] وقال ابن قتيبة : وكانت اليهودية في حمير وفي بني كنانة وبني الحارث بن كعب وكندة[3]

ويرجع امتدادها وانتشارها بكثرة الى تهود ابي كرب آخر ملوك التبابعة ، وتهود حمير بعده ، وذلك لما اراد غزو المدينة منعه من ذلك حبران عالمان من أهلها ، فأعجبه منهما علمهما وحكمتهما وتهود وسار إلى مكة فاغراه نفر من هذيل باموال بيت مكة ، فارسل الى الحبرين يستشيرهما فمنعاه وقالا له : « ما نعلم بيتاً لله اتخذه في الارض لنفسه غيره ، ولئن فعلت ما دعوك اليه لتهلكن وليهلكن من معك جميعاً » وطلبا منه تعظيم البيت ، فقال : ما يمنعكما انتما ؟ فقالا : « اما والله انه لبيت ابينا ابراهيم وانه لكما اخبروك ، ولكن اهله حالوا بيننا وبينه بالاوثان التي نصبوها حوله ، وبالدماء التي يهريقون عنده وهم نجس اهل شرك » فمثل بالنفر الهذليين ، وطاف بالبيت وكساه واوصى به ولاته من جرهم واخذ الحبرين معه الى اليمن ، ودعا قومه الى اعتناق اليهودية

---

(١) فجر الاسلام : صفحة ٢٩ .

(٢) ابن واضح اليعقوبي : تاريخه ، ج ١ صفحة ٢٩٨ .

(٣) ابن قتيبة - كتاب المعارف ، صفحة ٢٩٩ .

فأعرضوا واحتكموا للنار — وهنا سرد خرافة — ومن ثم تهودت حمير ، وهدم الحبران بيتها « رئام » الذي كانت تعظمه بعد ان استشار الملك [١]

وقد ظل ملك اليمن في بني حمير يتوارثونه ويغتصبونه حتى كان امر ذي نواس الحميري ، وكان هذا متعصباً لليهودية التي لم تنتشر انتشارها التام الا على زمانه في القرن السادس للميلاد [٢] .

***

النصرانية : ولم تكن المسيحية باقل انتشاراً من اليهودية ، ويرى شيخو في كتابه « النصرانية وآدابها بين عرب الجزيرة » انها وجدت لها مكاناً في اكثر اصقاع البلاد العربية في مشارف الشام والحجاز واليمن والبحرين والعراق وغيرها . وقد تنصر عدد كبير من القبائل . يقول ابن واضح : « واما من تنصر من احياء العرب فقوم من قريش من بني أسد بن عبد العزى ، ومن تميم بنو امرىء القيس بن زيد مناة ، ومن ربيعة بنو تغلب ، ومن اليمن طيء ومذحج وبهراء وسليح وتنوخ وغسان ولخم » [٣] . ويقول ابن قتيبة : ان النصرانية كانت في ربيعة وغسان وبعض قضاعة [٤] .

وليس لنا ان نتتبع سيرها في جميع الاماكن ، ولكن لا بأس من ذلك في نجران ، اهم موطن للنصرانية في بلاد العرب ، حيث كانت مدينة خصبة عامرة بالسكان يتولى امور النصرانية فيها رؤساء ثلاثة : السيد والعاقب والاسقف وكان نصارى نجران ، كما يستظهر اوليري ، على مذهب اليعاقبة مما أدى الى اتصالهم بالحبشة « وهم كذلك » اكثر من اتصالهم بالرومان [٥] وحيث اصطدمت

---

(١) السيرة صفحة ١٢ - ١٨ .

(٢) المجلد الثاني ، صفحة ٤٢ .The J. Enc

(٣) تاريخ ابن واضح اليعقوبي . ج ١ صفحة ٢٩٨ - ٢٩٩

(٤) كتاب المعارف ٢٩٩ .

(٥) فجر الاسلام صفحة ٣٠ .

النصرانية هنالك في الجنوب مع اليهودية بحرب ضروس .

يرجع تنصر نجران الى رجل صالح من اتباع عيسى عليه السلام يقال له فيميون . كان سائحاً لا يعرف بقرية إلا غادرها ، وكان اولاً في قرية من قرى الشام يتعبد . وقد صحبه رجل من اهلها يقال له صالح ، يتبعه حتى وطآ بعض ارض العرب ، فعدوا عليها ، واختطفتهما سيارة من الاعراب خرجت بهما ، وباعتهما بنجران واهل نجران يومئذ تعبد نخلة طويلة بين اظهرهم لها عيد كل سنة ... ويكمل ابن اسحاق حديثه باسطورة تفيد ان هذا الولي الصالح تطهر وصلى لربه ودعاه على هذه النخلة فعصفت بها ريح واقتلعتها .. وعند ذلك تبعه اهل نجران على دين ابن مريم [1] . وما زال الدين المسيحي آخذاً بالانتشار حتى كان ذو نواس ، فدعاهم الى اليهودية ، إلا ان النجرانيين أبوا واستعدوا للدفاع عن بلدهم ، ولكن ذا نواس دخلها بالمكر واوقع بهم وما لبث الخبر ان نمي الى قيصر الروم بواسطة رجل فر هارباً ، واستنصره على ذي نواس فامر قيصر نجاشي الحبشة بمحاربة اليهودي ففعل ، وارسل جيشاً مع أرياط وأبرهة الأشرم فناجذوه القتال ، وظفروا ببلاده ، وأتم الحبشة فتح اليمن فملكوا عليها اكثر من نصف قرن حتى مد الفرس سيطرتهم على تلك البلاد الى ان تقدم المسلمون وفتحوا نواحي اليمن فيما بعد [2] فتكون النصرانية قد استمرت في نجران الى عهد عمر حيث ذهب اكثرهم إلى العراق [3].

اما أبرهة المذكور فهو صاحب الفيل كما سيأتي معنا الحديث بعد ، وهو الذي بنى كنيسة بصنعاء سماها القليس ، وكتب الى النجاشي يقول: « اني قد بنيت لك كنيسة لم يبن مثلها احد قط ، ولست تاركاً العرب

(١) السيرة صفحة ٢٠ - ٢١

(٢) الاب لويس شيخو اليسوعي : النصرانية وآدابها بين عرب الجاهلية ، « القسم الاول » صفحة ٦٠ .

(٣) فجر الاسلام ، صفحة ٣١ .

حتى اصرف حجهم عن بيتهم الذي يحجون اليه »[1]

فذيوع النصرانية في بلاد العرب كان من شأنه نشر تعاليمها بين الأعراب، ومن الاخبار الادبية ما يفيد ان القسس والرهبان كانوا يؤمون الاسواق العربية في الجاهلية ويبشرون ويذكرون الحساب والعذاب والجنة والنار. وخير مثل نضربه هنا خطيب أياد وراهب نجران، قس بن ساعدة، فلا بد وان تكون النصرانية اذاً، قد ادخلت على العربية الفاظاً وتراكيب لم تكن تعرفها العرب، وفوق هذا فان النصرانية كانت من قبل دخولها جزيرة العرب تحمل في ثناياها شيئاً من الثقافة اليونانية كما هو شأن اليهودية[2]

ثالثاً : المتألهون وغيرهم

من أميز صفات العربي شعوره بالحرية والانفة. وقد ساعده على ذلك طبيعة بلاده البكر منذ ان دب على سطحها. فهو ممتنع منذ الأزل، صعب القياد لا يعترف بملك ولا يخضع لسلطة. وهو أقرب الى البداوة، ينظر الى الأشياء نظرة مادية، ولا يميل بطبيعتـــه كثيراً الى الدين. متعلق بحريته تعلقاً يقرب من العبادة. معتز بقبيلته ومفاخرها، ولعل أواصر القبيلة أشد العلاقات التي تربط بين أفرادها متانة وقوة.

اما انه لا يميل الى دين فالأخبار، ودراسة نفسيته، يؤيدان ذلك، والقول ينطبق على عربي الجاهلية، وإن كان أحياناً شديد التعظيم لآلهته المنصوبة حول الكعبة، وفي غيرها من البيوت والأماكن المقدسة، فقد كان ينكر هذه الآلهة لأسباب تافهة، ويرتد عن عبادتها، ولا بأس من اكلها اذا كانت مصنوعة من مادة غذائية! كما فعل بنو حنيفـــة بالههم، وكان مصنوعاً من حيس فقال تميمي :

أكلت ربها حنيفة من جوع قديم بها ومن إعواز

---

(١) الكلبي، ابو هشام — كتاب الاصنام، صفحة ٤٦ — ٤٧.

(٢) فجر الاسلام، صفحة : ٣٢.

وقال آخر :

اكلت حنيفة ربها زمن التقحم والمجاعة
لم يحذروا من ربهم سوء العواقب والتباعة [1]

وهذا كناني يقبل على صنم قبيلته فتنفر ابله من منظر الدماء المراقة عليه فيرميه بحجر ويقول : لا بارك الله فيك إلهاً انفرت علي ابلي [2] وذاك آخر يُقتل ابوه فيستشير الصنم مستقسماً بالقداح فيخرج الناهي عن الاخذ بالثأر فيضرب بالقداح وجه الصنم ، وينصرف ليفتك بأعدائه [3] . وذلك ثالث كان يأتي لصنمه بالطعام ويضعه عند رأسه ، فمر يوماً ثعلبان فأكل الطعام وعصل على رأس الصنم ، فغضب الرجل وضرب الصنم فكسره وقال:

لقد خاب قوم أملوك لشدة ... ارادوا نزالا ان تكون تحارب
فلا أنت تغني عن امور كثيرة ... ولا انت دفاع إذا حل نائب
أرب يبول الثعلبان برأسه ... لقد ذل من بالت عليه الثعالب ! [4]

وغير هؤلاء كثير .

وتكثر الأحاديث عمن تألّه ونفض عنه في الجاهلية عبادة الأصنام فكان على دين او شبه دين ، وهو وان لم يدرك دعوة النبي إلا انه بقي على أصل فطرته ناظراً بعين بصيرة . وربما كان مثل هذا النفر على معرفة بالحنيفية وشيء من تعاليم اليهودية والنصرانية . وليس هذا ببعيد لوقوع الاحتكاك بين هذه العناصر قبل الاسلام . ومن الأحاديث التي تروى عن مثل هؤلاء القوم قول ابن إسحاق : اجتمعت قريش يوماً في عيد لهم عند صنم من أصنامهم كانوا يعظمونه وينحرون له ويعتكفون عنده ويدورون به ، وكان ذلك العيد لهم كل سنة يوماً ، فخلص منهم اربعة

---

(١) كتاب المعارف ، صفحه ٢٦٩ .
(٢) كتاب الاصنام ، صفحة ٤٧ .
(٣) نفس المصدر صفحة ٣٤ ، ٣٥ ، ٤٧ .
(٤) الدميري – حياة الحيوان الكبرى ج ١ صفحة ١٦٠ .

وهم ورقة بن نوفل ، وعبيد الله بن جحش بن رئاب . وعثمان بن الحويرث، وزيد بن عمرو بن نفيل . وقال بعضهم لبعض : « تعلموا ! والله ما قومكم على شيء . لقد اخطأوا دين ابيهم ابراهيم . ما حجر نطيف به لا يسمع ولا يبصر ولا يضر ولا ينفع ؟ يا قوم التمسوا لانفسكم ديناً فانكم والله ما انتم على شيء » وتفرقوا في البلدان ، اما ورقة فقد تنصر ، واما عبيدالله فقد اقام على ما هو من الالتباس حتى اسلم ، ثم تنصر لما هاجر مع المسلمين الى الحبشة ، وكذلك تنصر عثمان بعد قدومه على ملك الروم ، واما زيد فوقف لا يدخل في يهودية ولا نصرانية ، بل فارق دين قومه وعاب ما هم عليه ، واعتزل الاوثان والميتة والدم والذبائح التي تذبح على الاوثان ، ونهى عن قتل الموؤودة . وروت اسماء بنت ابي بكر انها رأت زيداً وهو شيخ كبير مسنداً ظهره الى الكعبة وهو يقول : يا معشر قريش ، والذي نفس زيد بيده ما اصبح منكم احد على دين ابراهيم غيري ... اللهم لو اني اعلم اي الوجوه احب اليك عبدتك به ، ولكن لا اعلمه ، ثم يسجد على راحته . وتنسب لزيد هذا ابيات في عزله اللات والعزى وغيرهما من الاصنام ، واكثرها يشير الى عدم اشراكه بالله ، ولما قتل رثاه ورقة بن نوفل بابيات مثلها (١)

وعلى شاكلة هذا النفر عدد كبير من رجال الجاهلية لا هم بالمتحنفين تمام التحنف ، ولا هم بنصارى او يهود . ولعل امية بن ابي الصلت وعبد المطلب بن هاشم جد النبي خير مثال لاولئك الجاهليين الذين لا ميزة لهم الا اقرارهم ، كما تفيد الاخبار ، بوجود إله ، مع شيء ليس بالقليل من التشويش في العقيدة والاضطراب .

وكان عبد المطلب سيد قريش حينما هاجم ابرهة الاشرم مكة لهدم البيت . وقد مثل امام أبرهة — وكان قد اصاب له مائتي بعير — فسأله ابرهة عن حاجته ، فقال : رد بعيري . فقال ابرهة : اتكلمني في ابلك

---

(١) السيرة ، صفحة ١٤٣ — ١٤٩

وتترك بيتاً هو دينك ودين آبائك ؟ قد جئت لهدمه ! فاجابه عبد المطلب : انا رب الابل ، وللبيت رب يمنعه ! فقال الحبشي : ما كان ليمنع مني ! وامر برد ابله ، فرجع بها عبد المطلب ، وطلب من قومه الخروج من مكة والتحرز في رؤوس الجبال ، وذهب مع نفر من قريش الى الكعبة ، واخذ بحلقة بابها يدعو الله ويستنصره على ابرهة [1]

(١) الكامل في التاريخ ج ١ صفحة ٣٢٠ - ٣٢٤

الباب الثاني

آلهة العرب

الفصل الأول : صنم . وثن . نصب

كل ما اتخذ من دون الله الهاً فهو صنم . تعريف عام نأخذه من كتب التفسير والمعاجم وغيرها . وقد ندر ذكر هذه الكلمة في الشعر الجاهلي ، ويصعب التحقيق في اسباب ذلك لما نقرأه من تعظيم العرب للأصنام ، وانتشارها بين القبائل . روي عن الحسن قال : لم يكن حي من احياء العرب الا ولهم صنم يعبدونه [1] . وعلى الرغم من ذلك نرى البعض يعزو ندورة ذكرها الى ترفع العرب عن ذلك ، فالصنم عند هذا البعض لا يدل على معنى محترم في نظر الاعراب [2] . فاذا صح هذا القول فانه ينطبق على ما ورد في القليل النادر من اشعارهم ، وقد قيل هذا النادر في ظروف تحكي الظروف التي ادت الى نكول بعضهم عن عبادتها كما ورد معنا في الباب السابق . اما في غيرها فلا يذكر اسم « الطاغية » او « الربة » مثلاً ، الا بالتبجيل والتعظيم والرهبة في كثير من الاحيان .

ولا ترد كلمة « صنم » في القرآن الكريم الا على صيغة الجمع في خمس آيات : واحدة في الحديث عن قوم موسى حينما اتوا على قوم يعكفون

---

(١) لسان العرب لابن منظور ص ٢٤١ ج ١٥

(٢) ص ١٤٧ ج ٤ Enc. of Islam .

على اصنام . والاربع الاخر في الاحاديث عن ابراهيم وابيه وقومه [١].

اما الصنم فيقول ابن الكلبي : ما كان معمولا من خشب او ذهب او فضة على صورة انسان [٢] . وقيل ما اتخذوه من آلهة ، فاذا كان له صورة فهو صنم [٣] . وقال بعضهم : اذا كان ما يعبدونه حجراً على غير صورة فهو نصب ، وان كان تمثالاً سمي صنماً ووثناً [٤] .

والكلمة ، كما وردت في المعاجم العربية ، يقال انها معرب « شمن » ولا يدري صاحب التاج عن اي لسان [٥] . على ان بعض علماء اللغة من الاوروبيين يرجع كلمة « شنم » — الكلمة التي عربت عنها كلمة صنم العربية — الى Selem بمعنى صورة في العبرية و S-l-m اسم اله ورد ذكره في نقوش آرامية بتيماء [٦] .

وكثيراً ما خلطوا بين تعريف الوثن والصنم ، وان قيل ان الوثن هو الصنم الصغير . وفي التاج سمي وثناً لانتصابه وثباته على حالة واحدة من وثن بالمكان ، اقام به فهو واثن [٧] . وذكر ان الوثن ما لا صورة له [٨] . وقال ابن الاثير : الفرق بين الوثن والصنم ان الوثن كل ما له جثة معمولة من جواهر الارض او من الخشب والحجارة كصورة الآدمي تعمل وتنصب فتعبد ، والصنم الصورة بلا جثة [٩] . وفي كتاب الاصنام

---

(١) القرآن الكريم : راجع سورة الاعراف ، آية ١٣٤ وسورة الأنعام ، آية ٧٤ وسورة الشعراء ، آية ٧١ وسورة ابراهيم ، آية ٣٨ وسورة الانبياء ، آية ٥٨ .

(٢) كتاب الاصنام للكلبي ص ٥٣

(٣) لسان العرب ص ٢٤١ ج١٥

(٤) اديان العرب في الجاهلية لمحمد نعمان الجارم ص ١٣٢

(٥) تاج العروس للزبيدي ص ٣٧١ — ج ٨

(٦) ص ١٤٧ ج ٤ Enc. of Islam

(٧) ص ٣٥٨ ج ٩ تاج العروس

(٨) ص ٣٧١ ج ٨ نفس المصدر

(٩) ص ٣٣٣ ج ١٧ لسان العرب

ان الفرق بين الصنم والوثن هو ان الاول مصنوع من خشب او معدن ، والثاني من حجارة ، وكلاهما على صورة انسان [١] . وقال السهيلي : يقال لكل صنم من حجر او غيره صنم ، ولا يقال وثن الا لما كان من غير الصخر كالنحاس وغيره [٢] . وهذا يخالف ما يرى « نلدكه » من ان الوثن لا تعني شيئاً سوى حجر [٣] . وبهذا يوافق الزبيدي في قوله ان الوثن ما لا صورة له كما ذكرنا . ويستخلص « كرنكو » جملة من امثال هذه الاقوال المتضاربة فيقول ان الصنم شيء يعبد من دون الله ، له شكل ، مصنوع من حجر او خشب او معدن ، ويميز عن الوثن بان هذا ليس له جثة وانما يذكر مرادفاً لما عليه رسم او صورة [٤] .

وكصنم لم ترد وثن في القرآن الكريم الا علـى صيغة الجمع كقوله تعالى : « فاجتنبوا الرجس من الاوثان » ، « انما تعبدون من دون الله اوثاناً » وقال تعالى : « انما اتخذتم من دون الله اوثاناً » [٥] . ولم يرد لها ذكر في غير هذه الآيات الثلاث . والظاهر ان معناها في هذه الآيات هو نفس المعنى الذي تعطينا اياه كلمة الاصنام في الآيات الاخرى .

اما الانصاب فحجارة كانت حول الكعبة تنصب فيهل عليها ويذبح لغير الله ، والنصب كل ما نصب فعبد من دون الله ، وقد ورد في بيت للاعشى :

وذا النصب المنصوب لا تنسكنه لعافيــة والله ربك فاعبــدا

وقال الفراء : كأن النصب الآلهة التي كانت تعبد من احجار [٦] .

وفي كتاب الاصنام ومن لم يقدر على صنم ، ولا على بناء بيت ، نصب

---

(١) ص ٥٣ كتاب الاصنام

(٢) ص ١٣٢ اديان العرب في الجاهلية .

(٣) ص ٦٦٦ ج ١ Enc. of Religion and Ethics .

(٤) ص ١٤٧ ج ٤ نفس المصدر .

(٥) القرآن الكريم س ٢٢ آية ٣١ ، س ٢٩ آية ١٦ ، س ٢٩ آية ٢٤ .

(٦) ص ٢٥٥ – ٢٥٧ ج ٣ لسان العرب .

حجراً امام الحرم ، او امام غيره مما استحسن ، ثم طاف به كطوافه بالبيت وسموها الانصاب [1] وقال : « وكانت للعرب حجارة غير منصوبة يطوفون بها ويعترون عندها يسمونها الانصاب » [2] . وقال : فكان الرجل ، اذا سافر فنزل منزلاً ، اخذ اربعة احجار ، فنظر الى احسنها فاتخذه رباً ، وجعل ثلاث اثافي لقدره ، واذا ارتحل تركه ، فاذا نزل منزلاً آخر ، فعل مثل ذلك [3] . هذه هي الانصاب ، فاذا كانت تماثيل دعوها الاصنام والاوثان [4] ولعل اقوال ابن الكلبي اوضح ما ذكر الاقدمون عن الانصاب والاصنام والاوثان .

ولقد جاء ذكر الانصاب في الآية : « يا ايها الذين آمنوا انما الخمر والميسر الخ » [5] وفي قوله تعالى : « حرمت عليكم الميتة والدم ... الخ [6] » وفي غيرهما [7] .

وكان للعرب بيوت مقدسة يطوفون بها سنأتي على ذكرها فيما بعد . والبيت عموماً ما يبات فيه . وتعرف الكعبة [8] بالبيت الحرام . والبيت العتيق . والبيت المعمور . والكعبة في اللغة الغرفة ، او البيت المربع . وقيل المرتفع ومنه كعب ثدي الجارية اذا علا في صدرها وارتفع . وقيل سميت كعبة لانها مكعبة على خلق الكعب ، جمعها كعبات . وكان هذا بيتاً لربيعة ذكره الاسود بن جعفر قال :

اهل الخورنق والسدير وبارق والبيت ذي الكعبات من سنداد [9]

وسنرجع الى الكلام عن الكعبة في باب اساطير الاولين .

(١و٢و٣و٤) ص ٣٣ ، ٤٢ كتاب الأصنام .

٥) القرآن الكريم س ٥ آية ٩٢ .

٦) القرآن الكريم س ٥ آية ٤ .

٧) القرآن الكريم س ٧٠ آية ٤٣ .

٨) وردت هذه الكلمة في آيتين فقط : س ٥ آية ٩٦ ، س ٥ آية ٩٨ .

٩) راجع معجم البلدان لياقوت ص ٢٧٨ ، ٢٨١ ج ٤ .

الفصل الثاني : كثرة الآلهة

لا شك في كثرة اصنام العرب وانصابهم التي انتشرت بينهم في عصور الجاهلية ، غير انه من الصعب جداً حصر عدد الآلهة الحجرية ومقدار ذيوعها بين مختلف القبائل . فالاخبار الواردة لا ترسم لنا خطة معينة عن كثرة الآلهة : عددهم وتوزيعهم . فالجارم يقول : « وقد كان للقبيلة اكثر من صنم ، وكان منها عند الكعبة كثير » ويقول ايضاً : « ليس في الاستطاعة حصر اصنامهم في الجاهلية فكثرتها تتجاوز العد[1] » وهو يعتمد في كلامه على ما سبقه من كتب السير والادب والتفاسير ، فهو في الكتاب جميعه عبارة عن مردد اصداء لا يختلف في النقل والانشاء عن الآلوسي في « احوال العرب » وإن كانت فوائد الجمع والحصر في الكتابين ظاهرة بينة .

اما الاب شيخو فلا يرى هذه الكثرة مطلقاً ، فهو يقول في كتابه : النصرانية وآدابها بين العرب في الجاهلية : واذا اضفت الى الاصنام المذكورة في اليعقوبي اسماء آلهة اخرى ورد ذكرها في المعاجم والتواريخ والشروح بلغ بك العد الى نحو ثلاثين صنماً . فأين هذا وما زعم ابن اسحاق وابن هشام ان في الكعبة كان عدد الاصنام – ٣٦٠ – على عدد ايام السنة[2] .

ولا يقيد المستشرق نلدكه نفسه بحصر اصنام العرب الجاهليين غير انه يعترف بأن قائمة طويلة يمكن اعدادها لهذه المؤلهات[3] وكذلك الاب لامنس يقول : « ولم يكن هذا العدد بالقليل[4] » ويقول ايضاً : « ظلت الحجارة العديدة مدة طويلة تحتل فناء الكعبة اي الساحة المحيطة

---

(١) اديان العرب في الجاهلية صفحة ١٥٥ .

(٢) النصرانية وآدابها بين عرب الجاهلية ص ٦ .

(٣) ص ٦٥٩ ج ١ Enc. of Rel. and Eth .

(٤) مجلة المشرق ٣٧ ص ٢٢٣ .

بها ، على انها لم تبلغ ذاك العدد الكبير الذي ترقى به الاسطورة الى ٣٦٠ يحطمها النبي يوم الفتح [١] » . واما زيدان فيقول : « ولو جمعت اصنام العرب لزاد عددها على مئة صنم [٢] » .

ويجب على الباحث في مثل هذا الموضوع ان يفرق بين نوعين من الاحجار المؤلهة : الاول بدوي والثاني حضري ، كما كان عبادهما في الجاهلية بدواً وحضراً . ثم بين آلهة القبائل وآلهة المنازل .

يقول ابن الكلبي : « فكان الرجل اذا سافر فنزل منزلاً اخذ اربعة احجار فنظر الى احسنها فاتخذه رباً ، وجعل ثلاث اثافيّ لقدره ، واذا ارتحل تركه . فاذا نزل منزلاً آخر فعل مثل ذلك [٣] » ويقول غيره : « كنا في الجاهلية نعبد حجراً فسمعنا منادياً ينادي : يا اهل الرحال ان ربكم قد هلك فالتمسوا رباً ، قال : فخرجنا كل صعب وذلول فبينا نحن كذلك نطلبه اذا نحن بمناد ينادي : انا قد وجدنا ربكم او شبهه ، واذا حجر فنحرنا عليه الجزور [٤] » وعن ابي رجاء العطاردي قال : « كنا في الجاهلية اذا لم نجد حجراً جمعنا حثية من التراب ، وجئنا بالشاة فحلبنا عليه ثم طفنا بها [٥] » .

ونحن نخشى ان تكون هذه الروايات وامثالها سبباً في اعتقاد الكثيرين بتضخم العدد الذي ارتقت اليه آلهة العرب ... وهناك روايات تفيد انه « كان لأهل كل دار من مكة صنم في دارهم يعبدونه . فاذا اراد احدهم السفر كان آخر ما يصنعه في منزله ان يتمسح به ، واذا قدم من سفره كان اول ما يصنع اذا دخل منزله ان يتمسح به ايضاً [٦] » . ويفهم

---

(١) ٢٢١ نفس المصدر .
(٢) انساب العرب القدماء لزيدان ص ٣٩ .
(٣) ص ٣٣ كتاب الأصنام .
(٤) بلوغ الارب ص ٢١١ ج ٢ .
(٥) البداية والنهاية لابن كثير ص ١٨٨ ج ٢ .
(٦) ص ٣٣ كتاب الاصنام .

من ابن هشام ان الاشراف كانوا يتخذون في دورهم اصناماً آلهة يعظمونها ويطهرونها [1] .

وفي مثل هــذه الروايات ايضاً سبب آخر يدعو خطأ الى الأعتقاد بكثرة الآلهة فهل من الضروري ان يكون عند كل شريف ، لا بل في كل منزل صنم معبود يخالف في كهنه وميزاتـه صنم الشريف الآخر او الجيران الآخرين ؟ الا يجوز ان يكون للحي او للقبيـلة إله – كالعزى او هبل مثلاً ، يعبد وتجري له طقوسه العـامة ثم تكون هنالك اشكال ورموز عند هذا وذاك من الافراد والمنازل ؟

ولا يرى الاب لامنس وجوداً للآلهة المنزلية كما يفهمها و « لهوزن » كتابه « بقايا الوثنية العربيـة » Reste Arabischen Heidentums الا في الاساطير المعروفة في السيرة وغيرها ، وهي عنده اخبار تكتنف صحتها بكثير من الشك ، لا بل يميل الى نفي هذا النوع من الآلهة نفيا باتاً . فهنا نقرأ له : « اما الحقيقة فهي ان الاشراف كان من حتهم لا امتلاك الآلة المنزلية بل المحافظة على البيت او الحجر المؤله . وهم يحرسونه لا في المنزل او المضرب بل في القبة الخاصة بل وهي قبة القبيلة . وكانت هذه القبة تضرب الى جانب خيمة السيد [2] ... » ثم يقول : « ونتيجـة اخرى لهذا الأمر انه ليس في القبيلة المجتمعة من اصل واحـد الا بيت واحد او قبة واحدة ، واذن فمن الاعتباط ان نتكلم عن الآلهة المنزلية او عن العبادة الفردية . فان عربي الجاهلية لم يعرف الا العبادة الشاملة ، تلك الشعائر التي تقوم بها القبيلة بكاملها في ظروف خاصة ومظاهر قليلة ، كانت كافية لاستنفاد جلده القوي . وكان اذا خاف تأثيراً سيئاً من بعض القوات اللابشرية لجأ الى التمائم ، وهي افضل وانجع في نظره من وجود تماثيل الآلهة في خبائه او داره [3] » .

---

(١) ص ٣٠٣ السيرة .

(٢و٣) ص ٢١٨ – ٢٢٠ ج ٢ مجلة الشرق ١٩٣٧

ذلك رأي لامنس ، على انه ، بناء على ما ذكرنا سابقاً ، لا يسعنا ان نأخذ به على علاته ، وننفي وجود « الآلهة المنزلية » نفياً باتاً لمجرد القول ان العربي كان قليل الجلد التقوي ، ولمجرد الظن بان روايات السيرة عن هذه الآلهة مشكوك فيها .

ولعل الاصنام الكثيرة التي يحدثون عنها انما كانت مجرد تماثيل يلهو بها البدو والحضر اكثر من كونها رموزاً لآلهة معينة . روى الازرقي لبعضهم قوله : « وقد كنت ارى قبل ذلك الاصنام يطاف بها فيشتريها اهل البدو فيخرجون بها الى بيوتهم [1] » وفي المصدر نفسه نقرأ : « وكان ابو تجارة يعملها في الجاهلية ويبيعها . ولم يكن في قريش رجل بمكة الا وفي بيته صنم [2] » . فان دلت هذه الاقوال وغيرها على كثرة هذه الاصنام او التماثيل ، فلا تدل على اختلاف وتنوع كثير في الآلهة التي يرمزون اليها .

الفصل الثالث : وثنية الجزيرة

بعيد ذاك الزمن الذي ألّه عرب الجاهلية فيه الاحجار واتخذوا من منحوتاتها اصناماً آلهة . وأبعد منه ذلك الذي يظن ان الانسان قد عرف فيه هذا النوع من العبادة ، فالقرآن الكريم يحدثنا ان قوم نوح أشركوا بالله وعبدوا الأصنام ، فاوحي اليه بالنبوة ، وبدعوتهم الى عبادة الله ففعل . غير ان قومه – شأن غيرهم – لم يزدادوا الا عتواً : « واني كلما دعوتهم لتغفر لهم جعلوا اصابعهم في آذانهم واستغشوا ثيابهم واصروا واستكبرو استكبارا [3] » . ويصر نوح على هديهم ، ثم يخرج عن هذا الاصرار ويدعو عليهم ربه : « رب لا تذر على الارض من الكافرين ديّارا ، انك ان تذرهم يضلوا عبادك ، ولا يلدوا الا فاجراً كفّارا [4] »

(١ و ٢) اخبار مكة ص ٧٨

(٣) القرآن الكريم : س ٧١ آية ٦

(٤) القرآن الكريم : س ٧١ آية ٢٧–٢٨

عندئذٍ يوحي الله اليه صنع الفلك ، فقد صمم الخالق على اغراق الارض .. وتبتدىء قصة الطوفان .

ولنوح مكانة في القرآن ، وذكر طويل يسرد بكثرة مع عاد وثمود ، وله سورة باسمه ، ولربما كان اوسع ما في القرآن عنه في سورة هود . والظاهر ان اهم النقاط التي تدور حوله في الاساطير العربية كلها ، إنما يستند الى مرجع في التوراة . ونوح كما يعتبره العرب هو احد مشاهير الانبياء الخمسة ، اولي العزم من الرسل الذين جاءوا لانقاذ الجنس البشري من شروره وآثامه .

واذا جارينا قولهم ان نوحاً هو النسل التاسع فقط من ذرية الانسان التي تبتدىء بآدم ، وانه الاب الثاني للجنس البشري [1] ، أمكن تصور الزمن الذي يرجع اليه ضلال الانسان .

وهل رضخ الانسان الى جبروت الخالق بعد ذلك الطوفان الذي مسح الارض وسوّى بين الجبل والسهل ؟! يدور الفلك دورته واذا بهود يرسل الى قومه : « تلك عاد جحدوا بآيات ربهم وعصوا رسله واتبعوا أمر كل جبار عنيد [2] » . « قالوا يا هود ما جئتنا ببينة ، وما نحن بتاركي آلهتنا عن قولك [3] » . فعاد – كما يقولون – اول من عبد الاصنام بعد الطوفان ، فكانت اصنامهم ثلاثة : صدا ، وصمودا ، وهرا [4] .

وما لنا ولعاد الذين طغوا في البلاد فسيأتي حديثهم بعد – مطولا – في الاساطير . اما هنا فلسنا نتعرض في بحثنا وثنية العرب القدماء الا الى اولئك الجاهليين الذين سكنوا الحجاز ونجداً وغيرهما من مناطق الشمال

---

(١) J. Enc. ص ٣١٨ ، ٣١٩ ج ٩ وراجع ايضاً تاريخ اليعقوبي ج ١ ص ٢ – ١٠

(٢) القرآن الكريم : س ١١ آية ٦٢

(٣) القرآن الكريم : س ١١ آية ٥٦

(٤) ص ١٢١ ج ١ البداية والنهاية . وفي المسعودي صمودا وصدا والهبا ص ٢٩٥ ج٣ مروج الذهب .

اما الحضارة الجنوبية فلها ثقافتها ، فهي مختلفة كل الاختلاف بمناحي حياتها عن مناحي حياة اهل الشمال . ويكفي ان تكون اللغة والدين في اليمن غيرهما في الحجاز ونجد وسواهما من مساكن العرب في المناطق الشمالية .

اقول نترك حضارة الجنوب ونتقدم لدرس وثنية الشمال ، تلك الوثنية التي لم تدرس حق دراستها ، ولم يكشف القناع بعد عن كثير من وجوهها . لقد كانت لهم آلهة ، غير اننا لا نعرف الكثير عنها ، والاب لامنس يقول : « بالرغم من عدم وجود ميثولوجيا حقيقية ، تحاكي اليونانية فللوثنية العربية نوع من المعابد Pantheon تتمثل فيه آلهة وآلهات لم تدرس علاقاتها دراسة كافية [1] » .

اما انعدام تكوين فكرة واضحة عن هذه الآلهة والآلهات العربية فقد يرجع الى احد سببين او الى كليهما معاً : الاول ، قلة اهتمام العرب انفسهم بهذه الشؤون ، وقديماً عرف البدوي بضعف الايمان ، وعدم تمسكه بالدين وطقوسه . وقد حكى عنهم الكتاب قال : « الاعراب اشد كفراً ونفاقاً [2] » . والثاني قلة المصادر وندورة الابحاث ، اذ ان هنالك نتفاً تستمد مما كتبه اليونان عرضاً عن العرب الجاهليين ، واسماء ذكرتها النقوش السامية واليونانية . مع شيء ضئيل جداً من الشرح والتفصيل . وكل ما في هذا وذاك متصل بعرب المناطق الشمالية القصوى ... وهنالك شيء اوسع من ذلك — وهو في حد ذاته ضئيل ايضاً — نراه في الشعر العربي القديم . والقرآن مصدر هام لمثل هذه الدراسات . ثم لا ننس ما جمعه بعض الرواة من بقايا الوثنية العربية من قصص تتعلق بالاخلاق ، والعادات ، والأساطير . ولا حاجة بنا الى القول ان اكثر ما كتب من ابحاث في هذا الموضوع — ان لم نقل كله — انما هو ترجيع اصداء من اهم ميزاته ، وخير ما فيه ، توجيه الباحث الى مراجع هذه الاصداء .

---

(٢) H. Lammens : Islam : Beliefs and Institutions س ١٨

(٣) القرآن الكريم س ٩ آية ٩٨

هذا ، ولربما اتصل بالسبب الثاني سبب آخر لا ينفصل عنه ، وهو موقف النبي والمسلمين الاوائل من هذه العبادة المحجرة . وقد مر بنا تفصيل ذلك في الباب الاول .

والحقيقة اننا لا نعلم تمام العلم بدء عبادة الاحجار في بلاد العرب ، حتى ولا اصل هذه العبادة ، ويصعب جداً على الباحث حصر ذلك الزمن حتى ولو على وجه التقريب . وهو ان تساءل عن المرجع الذي انبثقت عنه هذه العبادة ، وجب عليه تتبع المشاكل السامية الاولى التي تضاربت حولها الآراء ، ولم يبت فيها على كثرة البحوث التي تناولت الكشف عن حقائقها . ولا نغالي اذا قلنا ان مثل هذه التحقيقات تتصل بالتنقيب عن الانسان الاول : موطنه ونزوحه التدريجي منه الى غيره من المناطق المجاورة او البعيدة .

ومن الاهمية بمكان الاشارة الى ان هنالك نظريات حول الوطن الأصلي للشعوب السامية ، فالبعض يظن ان البلاد العربية هي نفس هذا الوطن ، والبعض يرجعه الى بلاد ما بين النهرين وغيرها من المناطق الشمالية الخصبة ، وللآخرين اقوال اخرى ولكل آراؤه وبراهينه . والذي يظهر ان الجميع بعيدون عن القول الفصل . وعلى هذا القول تتوقف امور خطيرة الشأن في وضعية ديانات هذه الشعوب ، ومعتقداتها وما يتعلق بذلك من خرافات واساطير .

ونحن نعلم قبل كل شيء ان العرب كانوا على اتصال دائم بمن حولهم ، وكان لهذا الاتصال سبل عديدة يذكرون منها : التجارة ، وانشاء المدن المتاخمة لفارس والروم ، والبعثات اليهودية والنصرانية التي كانت تتغلغل في جزيرة العرب تدعو الى دينها ونشر تعاليمها [1] وهنالك سبل اخرى لا مجال الى ذكرها . فعلى نوع من هذا الاتصال القديم تبني كتب الادب والسير والتواريخ قصة دخول الوثنية الى بلاد العرب .

---

(١) ص ١٣ فجر الاسلام

غير ان هنالك روايات تفيد ان تأليه الأحجار ، او تقديسها يرجع الى ما قبل اسطورة « عمرو بن لحي » الذي – كما يقولون – نشر عبادة الاصنام في بلاد العرب بعد جلبها من الشام وجدة .

فالعرب طبقاً لقانون التضخم ، اخذوا ينزحون عن مكة وما جاورها من الاماكن وينفسحون في البلاد ، ولما كانوا يعظمون مكة والكعبة اوجب عليهم شعورهم الديني ان يأخذوا في ارتحالهم – كما ذكر الكلبي – اثراً من آثار الحرم وما جاوره من الاماكن المقدسة ، وليكن حجراً من احجاره . فحيثما حلوا وضعوه وطافوه به كطوافهم بالكعبة تيمناً بها .. ويطول بهم الزمن فينسون ما كانوا عليه ، وتبقى الحجارة – ولا سيما اذا كانت جميلة الشكل ملونة – فيما بينهم محبوبة مقدسة .. ثم ترقى الى التأليه فالعبادة . وهنا يصيرون الى ما كانت عليه الامم من قبلهم [١] . ومن هذا يظهر ان الوثنية فيهم قبل عمرو بن لحي بما عبدوه من حجارة الحرم في اسفارهم ، وانما هو – كما تخبر الاسطورة – اول من وضح لهم انواع عبادتها ، وبيّن لهم ضروب التقرب اليها ، واول من نقل الاصنام الى الحرم ونصبها حول الكعبة وحمل اهله على تعظيمها كما سنرى .

وما دام لعمرو بن لحي هذا ، تلك الاهمية في هذا الموضوع فلنتساءل هل كان ذلك الرجل شخصية تاريخية ؟ فاذا وجد وقاتل جرهما ونفاهم من بلاد مكة وتولّى حجابة البيت – كما يقولون – ففي اي زمن عاش ؟ والجواب على السؤال الاخير يلقي قبساً من نور على اقدمية عبادة الاصنام التي انتشرت بين عرب الجاهلية في بلاد العرب .

تحدثنا الاساطير ان مؤسس مكة هو مضاض بن عمرو الجرهمي الذي تزوج بابنة اسماعيل ، وفي نفس الوقت بنى الحرم الذي اعطى مكة سيادتها على المدن العربية [٢] . والجرهمي نسبة الى قبيلة جرهم التي كانت

---

(١) راجع كتاب الاصنام ص ٦ ، والسيرة ص ٥١–٥٢ ، واخبار مكة ص ٧٢

(٢) Ameer Ali : The Spirit of Islam (XIV)

نازلة يومئذ بواد قريب من مكة ، والتي تزوج منها اسماعيل[1] . وازدهر الحليفان - الاسماعيليون والجرهميون - فيما بعد في الحجاز ، وتزايدوا حتى دهمهم نبوخذ نصر البابلي الذي لم ينجح من ملوك بابل سواه في محاولتهم غزو قلب الجزيرة وجرحه جرحاً خطيراً[2] .

وكانت جرهم تطيع ولد اسماعيل تعظيماً لهم ومعرفة بقدرهم . ولما بدأ الاسماعيليون ينتشرون في البلاد اخذوا يسلّمون الملك لجرهم لاواصر الخؤولة بين الشعبين[3] . وقد مرّ معنا كيف ان جرهماً طغت وبغت حتى فسقت في الحرم ، وكيف اهلكوا بالرعاف ، واجلي من تبقّى منهم بعد ان هاجمتهم خزاعة[4] .

وقبيلة خزاعة هذه نسبة الى حارثة بن عمرو الملقب بخزاعة ، وقد هاجرت الى الشمال وافتتحت الحرم بعد خراب سد مأرب وقصة سيل العرم الذي كان - على رأي ياقوت - في ملك « حبشان ؟ » حيث خرب الامكنة المعمورة ، واكثر بلاد كهلان وعامة بلاد حمير[5] .

فانهيار السد ، كما نرى ، هو سبب تفرق السكان الى انحاء الجزيرة على ان هنالك من المؤرخين من يظن ان بين الاسباب التي بعثت على هذه الهجرة ما اصاب اليمن من السقوط والضعف في التجارة على اثر النشاط التجاري الذي قام به الرومان في البحر الاحمر ما بين القرن الثالث والرابع للميلاد[6] .

ويرى « جروهمن » بعد ذكره آراء الثقات ، ان دمار السد النهائي قد وقع ما بين عام ٥٤٢ - حيث خرب لاول مرة - وعام ٥٧٠

---

(١) تاريخ الطبري ص ٢٨٣ ج ١

(٢) Ameer Ali XIV

(٣) تاريخ ابن واضح اليعقوبي ص ٢٥٤ ج ١

(٤) راجع الطبري ص ١١٣١-١١٣٤ ج ١

(٥) معجم البلدان ص ٣٨٣-٣٨٥ ج ٤

(٦) راجع فجر الاسلام ص ٦ - ٧

للميلاد ، ويقول انه لا يعين للحادث تاريخاً مضبوطاً لان المعلومات الضرورية لذلك ناقصة [1] .

وقد سكنت خزاعة المذكورة تهامة ، قبل ان أجلت جرهم من ديار مكة - كما ذكرنا - وكان الذي تزعم نزاعهم مع جرهم - على رأي الكلبي - صاحبنا عمرو بن لحي ، يقول : « وكانت ام عمرو بن لحي فهيرة بنت عمرو بن الحارث - ويقال قمعة بنت مضاض الجرهمي ؟ - وكان الحارث هو الذي يلي امر الكعبة ، فلما بلغ عمرو بن لحي ، نازعه في الولاية ، وقاتل جرهما ببني اسماعيل فظفر بهم واجلاهم عن الكعبة ، ونفاهم من بلاد مكة ، وتولّى حجابة البيب بعدهم [2] » . ولا يرى ابو الفرج اشتراك الاسماعيليين في هذا النزاع . يقول : « فلما حازت خزاعة امر مكة وصاروا اهلها جاءهم بنو اسماعيل ، وقد كانوا اعتزلوا حرب جرهم وخزاعة فلم يدخلوا في ذلك ، فسألوهم السكنى معهم وحولهم فاذنوا لهم [3] » .

ومن المفيد ان نذكر ان لحياً « ابا عمرو » هو ربيعة بن حارثة ابن عمرو بن عامر [4] . وبذلك يكون عمرو بن لحي حفيد خزاعة ، وعليه فلا يكون توليه البيت قد حدث - ان حدث - الا بعد نصف قرن ، على وجه التقريب ، من خراب سد مأرب بالسيل العرم .

ومن الاساطير التي تتهم عمراً بافساد الحنيفيّة وجلب الاصنام الى الكعبة نفهم انه فعل ذلك بعد ان ساد مكة وصار كاهناً له رئي من الجن .

وبعد هذا كله ، وتحت هذه الاضواء جميعها ، هل يمكننا حصر الزمن الذي احضر به هذا الكاهن الاصنام الى مكة وبثّ شعائر الوثنية بين القبائل ؟

---

(١) Enc. of Islam ص ٢٤١ ج٣

(٢) كتاب الاصنام ص ٨ .

(٣) الاغاني لأبي الفرج الأصبهاني ص ١١٠ ج ١٣ .

(٤) كتاب الاصنام ص ٥٤ .

يؤكد الشهرستاني ان عمرو بن لحي قد اتى بهبل الى مكة في زمن سابور ذي الاكتاف الذي – على رأي الطبري – قد هادن قسطنطين ملك الروم باني مدينة قسطنطينية [1]. وهذا يعني في النصف الاول من القرن الثالث للميلاد [2].

وليس ببعيد – ما يذكره المسعودي – ان تلي قبيلة خزاعة امر البيت ثلاثماية سنة ويستقيم الامر لقصي [3] ولكن بعيد جداً ان يكون عمرو بن لحي – كما يقول – قد عمر ثلاثماية وخمساً وأربعين [4]. فلو فرضنا ان عمراً قد حق له حجابة البيت وهو في العقد الخامس من عمره لما ترك لخزاعي نصيباً في هذه الحجابة حتى عهد قصي .

ويتفق النسابون على ان قصياً هذا هو الجد الخامس للنبي العربي [5] فلا يستبعد ان يكون قد ولد في اوآخر القرن الرابع للميلاد ، او سنة ٤٠٠ م على وجه التقريب [6].

فكيف نوفق بين هذا التاريخ القريب من الحقيقة وبين قول من يرى ان قصة السيل وقعت حوالي منتصف القرن الثالث م . او حوالي القرن السادس م . ، تلك الحادثة التي هاجرت بعدها خزاعة واستحلت مكة ووليت البيت ما يقرب من الثلاثة قرون اي الى زمن قصي ؟ فلو اخذنا برأي « جروهمن » السابق لكان خراب سد مأرب قد حدث بعد مولد قصي بما يقارب القرن والنصف ... وبهذا نقلب كل ما جاء به المؤرخون العرب عن تاريخ ما قبل الاسلام رأساً على عقب . اما اذا فرضنا ان هجرة اليمن بعد خراب السد وبعد النشاط الروماني التجاري

---

(١) اقرأ اخباره في الطبري ص ٨٣٦ – ٨٤٦ ج ١ .

(٢) ص ٣٣٦ ج ١ Enc. of Islam . راجع ايضاً تاريخ ابي الفدا ص ٨٠ ج ١ .

(٣) مروج الذهب للمسعودي ص ١١٩ ج ٣ .

(٤) نفس المصدر ص ١١٥ ج ٣ .

(٥) راجع اول مقالة قصي في Enc. of Islam .

(٦) انظر حياة محمد لمحمد حسين هيكل ص ٦٧ .

في البحر الأحمر ما بين القرن الثالث والرابع للميلاد، كان بين مولد قصي واحتلال خزاعة لمكة نحو نصف قرن او اقل ، وهنا نقترب من رواية الشهرستاني الذي يقول ان عمرو بن لحي كان معاصراً لسابور ذي الاكتاف ، وذلك في النصف الاول من القرن الثالث للميلاد وهذا ما نراه اقرب الى الصواب في بحث وثنية هذا الكاهن الذي لم تكد شخصيته تتخلص من ضباب الاساطير .

الفصل الرابع : أصنام عمرو بن لحي

وللاصنام التي استحضرها عمرو بن لحي من جدة ، والشام او العراق اسطورتان طريفتان ، نلخص الاولى فيما يلي :

كان ود وسواع ويغوث ويعوق ونسر قوماً صالحين ، ماتوا في شهر !.. فجزع عليهم ذوو قرابتهم ، فقال رجل من بني قابيل : ياقوم هل لكم ان اعمل لكم خمسة اصنام على صورهم ؟ غير اني لا اقدر ان اجعل فيها ارواحاً ! قالوا : نعم ! فنحت لهم خمسة اصنام على صورهم ونصبها لهم .. على عهد يردى بن مهلايل [١] !! فكان الرجل يأتي اخاه من هذه الاصنام وعمه وابن عمه ، فيعظمه ويسعى حوله حتى ذهب ذلك القرن الاول ! .

ثم جاء قرن آخر ، فعظموهم اشد من تعظيمهم في القرن الاول ! .

ثم جاء القرن الثالث فقالوا : ما عظم أولونا هؤلاء إلا وهم يرجون شفاعتهم عند الله . فعبدوهم ، وعظم أمرهم واشتد كفرهم، فبعث الله اليهم ادريس نبياً ، فدعاهم فكذبوه ، فرفعه الله اليه .

ولم يزل أمرهم يشتد حتى ادرك نوح « فليلاحظ اذاً ، ان عبادة الاصنام تمتد الى ابعد من نوح » فبعثه الله نبياً ، وهو يومئذ ابن اربعمائة وثمانين سنة ! فدعاهم الى الله مائة وعشرين عاماً ، فعصوه وكذبوه ،

---

(١) ابن قينان بن أنوش بن شيث بن آدم !! .

فأمره الله ان يصنع الفلك ، ففرغ منها وركبها وهو ابن ستمائة سنة ، فعلا الطوفان وطبق الأرض كلها ! وأهبط هذه الاصنام من جبل « نوذ »[1] وجعل الماء يشتد جريه وعبابه من ارض الى ارض حتى قذفها الى ارض « جدة » ثم نضب الماء وبقيت على الشط فسفت عليها الريح حتى وارتها!

وكان للكاهن الخزاعي « عمرو بن لحي » رئي من الجن جاءه مرة وقال له : عجل بالمسير والظعن من تهامة بالسعد والسلامة !.

قال : جير .. ولا اقامة !

فقال الرئي : إيت ضف « جدة » تجد فيها اصناماً معدة . فأوردها تهامة ولا تهب ، ثم ادع العرب الى عبادتها تُجب !

فأتى شط جدة فاستثارها ثم حملها حتى ورد تهامة . وحضر الحج فدعا العرب الى عبادتها قاطبة !

وأجابته القبائل كلها ، فدفع الى كلب « وداً » حيث أقر بدومة الجندل والى هذيل « سواعا » . وهي أول من اتخذ الاصنام من ولد اسماعيل وغيرهم فكان لهم برهاط من أرض ينبع . والى مذحج وأهل جرش « يغوث » وكان باكمة في اليمن يقال لها مذحج . والى همدان « يعوق » فكان بقرية لهم يقال لها خيوان على ليلتين مما يلي مكة . والى حمير « نسرا » فكان بموضع من أرض سبأ يقال له بلخع .

ولم تزل هذه الاصنام تعبد حتى بعث الله النبي فأمر بهدمها[2] .

اما الاسطورة الثانية فتتلخص بان عمرو بن لحي خرج من مكة الى الشام في بعض اموره ، فلما قدم مآب من ارض البلقاء — وبها يومئذ العماليق — رآهم يعبدون الاصنام ، فقال لهم ما هذه الاصنام التي اراكم

---

(١) و « نوذ » الجبل الذي اهبط عليه آدم بارض الهند ... وهو اخصب جبل في الارض !! ص ٩١٣ ج ٤ معجم البلدان

(٢) راجع ص ٩-١١،٥١-٥٩ كتاب الاصنام ، ص ٤ : ١ تاريخ ابن خلدون : ج ١

تعبدونها ؟ قالوا : هذه اصنام نعبدها ونستمطرها فتمطرنا ، ونستنصرها فتنصرنا ! فقال : أفلا تعطوني منها صنما فأسير به الى ارض العرب فيعبدوه ؟! فأعطوه صنما يقال له هبل ! فقدم به مكة ونصبه وأمر الناس بعبادته وتعظيمه . ومنهم من يقول انه احضر «هبل» من هيت من ارض الجزيرة فنصبه في بطن الكعبة[1] . وهيت هذه بلدة تاريخية تقع «على الفرات من نواحي بغداد فوق الانبار»[2] . وهي اليوم بلدة عامرة بالسكان ارضها معدنية يكثر فيها القار .

ومن الممكن ان تكون رواية احضار هبل من مآب او هيت صحيحة بالنسبة الى كون هبل غريباً في الاصل عن العرب ، وإن كانت عناصر الرواية خرافية محضة .

هذا ، وفي الاسطورة الاولى خيال بديع يحاول ان يضع تعليلاً جميلاً لميل الانسان الى تجسيد ما يحب ، وإشارة الى تقديس الموتى منذ القدم .. وعلى مر الزمن تذهب العلل ويبقى المجسد رمزاً مقدساً تحف به الأساطير والخرافات .. وتقدم له شعائر وطقوس مختلفة تجاري العقلية الفطرية التي ترقى به حتى تجعله إلهاً معبوداً .

ويرى المخرّفون فجوة عظيمة بين الحوادث في اسطورة آلهة قوم نوح المذكورة فيطمرونها بجرف هذه الآلهة رأساً من الهند الى شط جدة .. وتغطيتها بالرمال آلافاً من السنين حتى يكتشفها جني فيدل كاهنه الخزاعي عليها ، فيستثيرها هذا ويستحضرها .. ثم ينشرها بين قبائل العرب .

وفي الأسطورة الثانية محاولة لكشف القناع عن أصل دخول كثير من أصنام العرب ومعبوداتها الجاهلية الى بلاد العرب . وفيها بنفس الوقت ، بذور لحقيقة اولئك الأقوام التي حفّت بالجزيرة العربية من الشمال ، وتأثير خرافاتهم بمعتقدات العرب ، بغض النظر عن نمو تلك

---

(١) يراجع السيرة ص ٥١ ، كتاب الأصنام ص ٨ وأخبار مكة ٥٨

(٢) ص ٩٩٧ ج ٤ معجم البلدان

البذور في أرض خصبة بالأساطير ، مجدبة من الحقائق التاريخية .

الفصل الخامس : آلهة مختلفة

اساف ونائلة : ويمكن الاستنتاج من بعض ما بين أيدينا من المصادر انه كان لجرهم مجسّمات مؤلهة سبقت ما أحضره الخزاعي الكاهن من آلهة وما ابتدعه من عقائد .

فهنالك صنما إساف ونائلة . والرواية تقول ان اسافاً ونائلة من جرهم ، أقبلا حجاجاً ، وكان يتعشقها في بلاد اليمن ، فدخلا الكعبة ، ووجدا غفلة من الناس ، وخلوة في البيت ، ففجر بها فمسخا حجرين .. ثم أُخرجا فوضعا عند الكعبة ليتعظ الناس بهما . فلما طال مكثهما ، وعبدت الأصنام ، عُبدا معها وكان أحدهما بلصق الكعبة والآخر في موضع زمزم ، فنقلت قريش الذي كان بلصق الكعبة الى الآخر ، فكانوا ينحرون عندهما . وقد عبدتهما خزاعة وقريش ومن حج البيت ، بعد ، من العرب [1] .

وهما ، وإن أُخذا ونصبا حول الكعبة في زمان ابن لحي ، إلا ان ذلك كان قبل ان يقدم بهبل وغيره من الأصنام [2] .

ومن الروايات ما لا يخلو من حمل اساف ونائلة من البلقاء كغيرهما من الأصنام قال زيدان : « ذكروا أنهما صنمان .. حملهما عمرو بن لحي ايضاً من البلقاء فوضعهما على بئر زمزم بالكعبة ، ثم وضع احدهما على الصفا والآخر على المروة . فربما كان هذان وهبل مثلثاً وثنياً ، ومثلثات الوثنية كانت شائعة عند الوثنيين في الازمنة القديمة . والغالب في هذه المثلثات ان يكون كل منها مؤلفاً من رجل وامرأة وغلام . وأمثلة

---

(١) ص ٩ ، ٢٩ كتاب الأصنام .

(٢) تاريخ ابن خلدون ص ١٥ ج ١ .

هذه المثلثات كثيرة عند المصريين القدماء والكلدانيين وغيرهم [١] » .

والظاهر انهم كانوا يتناقلون قصتها في الجاهلية ، فقد سمعت عائشة تقول : « ما زلنا نسمع ان اسافا ونائلة كانا رجلا وامرأة من جرهم ، احدثا في الكعبة فمسخهما الله حجرين [٢] » ويفهم من الازرقي انهما كانا يلبسان ثياباً فكلما بليت اخلفوا لهما ثياباً جدداً [٣] .

ومن قبيل حديث اساف ونائلة ما ذكروا من ان رجلا يقال له اجا بن عبد الحي عشق امرأة من قومه يقال لها سلمى ، وكان لها حاضنة يقال لها العوجاء ، يجتمعان في منزلها ، ولما شعروا بهم فروا فتبعوهم وقتلوا سلمى على الجبل المسمى باسمها وأجأ على الجبل المسمى باسمه ، والعوجاء على هضبة بين الجبلين فسمي المكان بها [٤] .

والخلاصة انهما تمثالان حجريان جرهميان ، تحاول القصة خلق تعليل لوجودهما . ولما كانا رجلا وامرأة ، برز العشق موضوعاً لحبك العلاقات بينهما حتى كان منها ما جعل الخرافة تمسخهما حجرين في ذلك المكان الرهيب ، حرمة له ، وموعظة للناس . وما أشبه هذه القصة بخبر حديث سمعناه عن رجل وامرأة وجدا صريعين في مزار ينسبونه الى ولي ، يقع في مكان مرتفع على شاطيء فلسطين شمالي يافا . وقد كانا في حالة اتهمتهما بانهما احدثا نكراً في حرم ذلك المزار ، وحيكت على الأثر روايات تتمخض بالشعور الديني نحو الاولياء وكراماتهم . مما يظهر ما لهؤلاء ومزاراتهم من الرهبة والاحترام في نفوس العامة .

غزالا مكة

واذا كان اساف ونائلة تمثالين او صنمين من حجر على صورة انسان

---

(١) ص ٤٠ زيدان – انساب العرب القدماء
(٢) ص ٥٤ السيرة .
(٣) ص ٧٥ اخبار مكة.
(٤) ص ١٤٣ ج ١ معجم البلدان ، ص ١٩١ ج ٢ البداية والنهاية .

فقد كان لجرهم ايضاً تمثالا غزالين من ذهب .. ولسنا نعرف من طبيعة هذين الغزالين وشعائرهما شيئاً ، وكل ما جاء في « السيرة » و « اخبار مكة » – والاخير اوسع – ان عمرو بن الحارث بن مضاض الجرهمي بعد ان نفت خزاعة جرهما عن مكة خرج بغزالي الكعبة وكانا من ذهب . ثم قام هو وبعض ولده في ليلة مظلمة ، وحفر في موضع زمزم الذي كان قد نضب ماؤه ؟! ثم دفن الغزالين مع ما دفن [1] ، الى ان كان من امر عبد المطلب وحفره زمزم حيث وجد الغزالين ووجد في البئر ايضاً اسيافاً وادراعاً . ولما طالبت قريش بهذا الكنز لتحصل على نصيبها منه ، ضربوا بالقداح امام هبل – كما سنرى بعد – فخرج قِدْحا الغزالين للكعبة ، وقدحا الاسياف والادراع لعبد المطلب الذي زين بالجميع باب الكعبة ، فكان اول ذهب حُليت به الكعبة فيما يزعمون [2]

آلهة على شاكلة الحيوان

ويستدرجنا بحث الغزالين الى التساؤل عما كان بينهما من التشابه وبين العجل الذهبي الذي عبد الاسرائيليون به « يهوه » في معابد فلسطين الشمالية ، وبالافعى النحاسية التي كانوا يضحون لها ، والتي يقال انها من صنع موسى نفسه [3] والى القول انه كان للعرب مؤلهات تحمل اسماء حيوانات وان كانت هذه الاسماء قليلة العدد . ترى في التاج ان « الاشهل » صنم . ومنه بنو عبد الاشهل لحي من العرب ، فهل يمكن الاستنتاج من « عبد الاسد » انه كان هنالك بينهم إله باسم هذا الحيوان؟ ومن هذا القبيل نرى في المعاجم ان « العوف » من اسماء الاسد لانه

---

(١) ص ٥١ – ٥٣ اخبار مكة .

(٢) ص ٩٤ السيرة .

(٣) ص ١٣٩ ج ٧ – Enc. of Religion and. Eth

يتعوّف بالليـــل بمعنى يطوف ويفترس . والعوف الذئب ايضاً . وفي الفيروزآبادي : العوف صنم . وله معان اخرى منها قولهم : والعوف طائر ، والديك ، والحظ وغير ذلك . يقول نلدكه : ولعوف خاصة معنى التفاؤل ، ومن الممكن ان لا يكون اسم هـذا الاله من الطائر وانما من الفال المتعلق به ، وفي هذه الحالة يكون «عوف» مرادفاً «لسعد» [1] .

اصنام نوح

اما اصنام قوم نوح [2] فكان منها ما هو على صورة الحيـوان ، قال زيدان : وكان ود على صورة رجـــل وسواع على صورة امرأة ويغوث على صورة اسد ويعوق على صورة فرس ونسر على صورة نسر» [3] . وقد عرف الاخير بصيغته الارامية «نشرا» واعتـــبره التلمود وبعض الوثائق السريانية إلهاً عربياً [4] . ويؤخذ من كتاب الأصنـــام – كما ذكرنا – انه كان معبود حمير . ولم يسمع ابن الكلبي أن حمير سمت بـه ، لا بل انه لم يسمع له ذكراً في أشعارها ولا أشعار احد من العرب . [5] ويقول ياقوت ان الأخطـــل ذكره في ابيات منها :

أما ودماء مـائرات تخالهـــا على قنّة العزّى وبالنسر عندما [6]

وكان بموضع من أرض سبأ لم تزل تعبده حمير ومن والاهـــا حتى هوّدهم ذو نواس [7] .

---

(١) ص ٦٦٣ ج ١ نفس المصدر .

(٢) القرآن الكريم س ٧١ آية ٢٢ – ٢٣ .

(٣) ص ٣٩ انساب العرب .

(٤) ص ٦٦٤ ج ١ Enc. of Religion and Eth.

(٥) ص ١١ كتاب الأصنام .

(٦) ص ٧٨١ ج ٤ معجم البلدان .

(٧) ص ٢٦٨ ج ٣ نفس المصدر .

وفي معرض القول عن « يغوث » يقول زيدان : « جاء في تفسير الزمخشري انه على صورة اسد ، وان عمرو بن لحي نقله من جدة على ساحل البحر الى مكة . فإذا كان مجلوباً من الخارج فالغالب انه من الحبشة او مصر لأن جدة محطة المسافر من إحداهما الى الحجاز . وقد وجدنا بين آلهة المصريين صنماً على صورة اسد او لبوءة يسمونها « تغنوت » ، ولا يخفى ما بين هذه اللفظة ولفظ « يغوث » من المشاكلة الصورية اذا اعتبرنا ان العرب كانوا يكتبون بلا نقط فاذا كتبوا « تعوب » التبس عليهم بين ان تقرأ « يغوث » او « تغنوث » او « تعوث » . وكثير ما وقع لهم ذلك حتى بعد تدوين التاريخ في إبان التمدن الاسلامي . فامبراطور الروم الذي حاربه هارون الرشيد يسميه بعض المؤرخين « يعفور » والبعض الآخر « نعفور » والآخر « نقفور » وهو الصواب لأن اسمه الروماني « Nicephorus » . ألا يعقل ان يحدث مثل هذا الالتباس في عصر الجاهلية ؟ وعلى هذا المبدأ تحول اسم قايين الى قابيل وشاول الى طالوت وجليات الى جالوت وقورح الى قارون »[1]

اليعبوب : واليعبوب صنم لجديلة طيء . عبدته بعد ان أخذت منهم بنو اسد صنمهم الأول ، وبذلك يقول عبيد :

فتبدلوا اليعبوب بعد إلههم صنماً . فقروا يا جديل وأعذبوا

ويعلق محقق كتاب الأصنام على المعبود هذا في ذيل الصفحة ٦٣ بقوله : « ربما كان هذا الصنم على هيئة الفرس . لأن اليعبوب في اللغة الفرس السريع الطويل ، او الجواد السهل في عدوه ، او البعيد القدر في الجري . وبه سموا أفراساً مشهورة كما ترى في كتاب أنساب الخيل لابن الكلبي » .

---

(١) ص ١٠٤ انساب العرب .

آلهة الاماكن

ذو الشرى – وكان للعرب أصنام سميت باسماء اماكن معينة أهمها اثنان : ذو الشرى وذو الخلصة .

ولا ندري تماماً الى اي مكان انتسب الاله الاول ، فالمواضع التي كان لها « الشرى » اسماً ، كثيرة ، من بينها ما ذكره ياقوت في معجم البلدان قال : « والشرى موضع عند مكة في شعر مليح الهذلي » ، وفي الصفحة نفسها : « والشرى واد من عرفة على ليلة بين كبكب ونعمان » [1] .

وتزداد الصعوبة في معرفة اي الاماكن الذي اعطى الاله اسمه ، حينما نعلم ان عبادة هذا الاله ترجع الى عهد جد قديم ، اقدم بكثير من زمن اولئك الذين عبدوه من بني الحارث بن يشكر . جاء في كتاب الاصنام : وكان لبني الحارث بن يشكر بن مبشر من الازد صنم يقال له ذو الشرى ، وله يقول احد الغطاريف :

إذن لحللنا حول ما دون ذي الشرى وشجّ العدى منا خميس عرمرم [2]

ويظهر ان المواضع التي حملت هذا الاسم كانت على العموم خصبة ، وأشبه بالواحات ، ومثل هذه المواضع في بلاد جدباء كالبلاد العربية ، لا يستبعد ان يصبح مركز عبادة . وقد ذكر ابن هشام في سرده قصة اسلام الطفيل بن عمرو ، ان ذا الشرى كان صنماً لدوس ، وكان الحنا حمىً حموه له ، وبه وشل من ماء يهبط من جبل [3] . وعلى ما يظهر من القصة انهم يغتسلون في ذلك الحنا المحمي . فالطفيل عندما جاء من عند رسول الله مسلماً ، وأتته صاحبته ، قال لها : إليك عني فلستُ

---

(١) ص ٢٦٨ ج ٣ معجم البلدان

(٢) ص ٣٧-٣٨ كتاب الأصنام

(٣) ص ٢٥٣ السيرة

منك ولست مني ، لقد فرق بيني وبينك الاسلام ، فطلبت منه ان تتبع دينه فقال لها اذاً اذهبي الى حنا ذي الشرى فتطهري منه . فقالت بأبي انت وامي ، أتخشى على الصبية من ذي الشرى شيئاً ؟ فقال : لا ، أنا ضامن لذلك فذهبت واغتسلت ثم جاءت ، فعرض عليها الاسلام فاسلمت [١] .

وغريب عنا اسم الاله الحقيقي ومميزاته الاصلية بالنسبة الى ما بين ايدينا من المصادر ، أما ان يكون ذات الاله « اله الشمس » الذي عبده النبطيون فذلك محتمل . واذا اعتبر ذو الشرى Dusares الاله الرئيسي عندهم [٢] ، فانه لم يحتل بين العرب الجاهليين المتأخرين مكانة رفيعة . وذكر شيخو ذا الشرى قال : وكان النبطيون يعبدون الشمس عبادة خاصة ، وكان لهم في عاصمتهم سلع Petra معبد كبير لاكرامها ، وانما كانوا يدعونها باسم آخر وهو ذو الشرى اي الاله المنير . وقد ورد اسمه مراراً في كتابات عيون موسى ، ومدائن صالح وطور سينا . اما كون ذي الشرى يراد به الشمس فالأمر واضح من قول استرابون الذي يؤكد ان النبطيين يعبدونها ، وكانوا جعلوا عيدها في ٢٥ كانون اول كما أفادنا القديس ابيفانيوس في كتابه عهد الهرطقات . وزاد مكسيموس الصوري ان النبطيين كانوا اتخذوا صنماً لذي الشرى وهو حجر اسود مكعب علوه أربعة اقدام وعرضه قدمان » [٣] .

ومما ذكره نلدكه عنه قوله : وقد أشارت النقوش النبطية ، ونقوش الشعوب المجاورة الى هذا الاله ، والى وجود اسماء تنسب اليه أمثال عبد ذي الشرى وتيم ذي الشرى . كما كان الاسم « عبد ذي الشرى »

---

(١) راجع القصة مطولة في « السيرة » ص ٢٥٢-٢٥٥

(٢) ص ٩٦٥ ج ١ Enc. of Islam

(٣) ص ٩ النصرانية وآدابها بين عرب الجاهلية « القسم الأول » .

معروفاً بين الدوسيين . وقد ذكر بعض مؤلفي اليونان شيئاً عن هذا الاله ، غير ان أهم المعلومات عنه ما وجد في البطرا عاصمة دولة الأنباط ، فقد كان يعبد على شكل حجر أسود خام ذي اربعة أضلاع ، يبلغ طوله اربعة أقدام وعرضه قدمين ، وكان دماء ضحاياه تصب عليه او أمامه ، وكانت تحته قاعدة ذهبية كما كان يتألق معبده كله بالذهب وبالهبات التي كانت تنذر له [1] .

ذو الخلصة : ومما يستشف من الحديث عن ذي الخلصة انه كان ذا مكانة رفيعة تسمو على مكانة ذي الشرى في البلاد العربية ، ولربما كان هنالك شيء من المنافسة بينه وبين أرفع بيت ديني ، وهو حرم مكة . فقد كان يحج اليه ويهدى له . وفي تاج العروس ان بيته كان يدعى الكعبة اليمانية ، ويقال له الكعبة الشآمية ايضاً لجعلهم بابه مقابل الشآم ، وفي بعض الأصول كان يدعى كعبة اليامة [2] . وقد خصه النبي بحديث مآله ان طائفة من العرب يرتدون الى جاهليتهم في عبادة الأوثان فتسعى نساء بني دوس طائفات حول ذي الخلصة . قال : « لا تقوم الساعة حتى تضطرب اليات نساء دوس حول ذي الخلصة » [3] .

وقد تضاربت آراء الأقدمين فيه اسماً ومكاناً : فقائل يقول انه بيت لخثعم ، وكان فيه صنم يدعى الخلصة [4] . وقيل ذو الخلصة الصنم نفسه [5] . ومنهم من يقول انه كان بتبالة بين مكة واليمن على مسيرة سبع ليال من مكة [6] في المنطقة التي تدعى اليوم العسير [7] . والأزرقي يقول

---

(١) ص ٦٦٣ ج ١ Enc. of Rel. and Eth.

(٢) ص ٣٨٩ ج ٤ تاج العروس للزبيدي .

(٣) ص ٢٧١ ج ٢ مسند ابن حنبل .

(٤) ص ٢٩٥ ج ٨ لسان العرب لابن منظور .

(٥) ص ٣٨٩ ج ٤ تاج العروس .

(٦) ص ٣٤ – ٣٥ كتاب الأصنام .

(٧) ص ٦٦٣ ج ١ . Enc. of Rel. and Eth

ان عمرو بن لحي نصب الخلصة باسفل مكة [١] . وهو لا يضيف للخلصة « ذا » ولا يعين المكان تمام التعيين . وفي ياقوت ان الخلصة من قرى مكة بوادي مر الظهران [٢] . والظهران واد قرب مكة و « مر » قرية عنده تضاف اليه فيقال مر الظهران [٣] . وقد لاحظ الزبيدي هذا التضارب فقال - بعد ان ذكر الحديث النبوي المتقدم - ان الذي يظهر من سياقه هو ان الصنم المذكور فيه هو غير الذي هدمه جرير ، لأن دوساً رهط أبي هريرة من الأزد ، وخثعم وبجيلة من بني قيس ، فالأنساب مختلفة ، والبلاد مختلفة . ثم يرى الصحة في ذي الخلصة انه الصنم الذي نصبه ابن لحي أسفل مكة [٤] .

ولم يشر أحد الى إمكانية وجود صنمين او اكثر لهذا الاله يتجسد بها في اكثر من مكان ، وليس ذلك ببعيد التصور . فتكون عندئذ عبادته سائدة في غير مكان واحد .

والقول في اننا لا نعرف بميزات ذي الشرى الحقيقية ينطبق على هذا الاله الذي كان على رأي ابن الكلبي يتمثل بمروة بيضاء منقوشة عليها كهيئة التاج [٥] . ونرى من المحتمل ان تكون هذه المروة التي كانت بتبالة من نوع ، إن لم تكن نفس التي نصبها عمرو بن لحي باسفل مكة ، « فكانوا يلبسونها القلايد ، ويهدون اليها الشعير والحنطة ويصبّون عليها اللبن ويذبحون لها ويعلقون عليها بيض النعام » [٦] . ومر معنا انهم كانوا يضربون عنده بالقداح ، وان رجلا « يقال انه امرؤ القيس » كسر قداحه وضرب بها وجهه ، فلم يزل لا يستقسم عنده بشيء حتى

---

(١) ص ٧٨ اخبار مكة .
(٢) ص ٤٦٣ ج ٢ معجم البلدان .
(٣) ص ٥٨١ ج ٣ نفس المصدر .
(٤) ص ٣٨٩ ج ٤ تاج العروس .
(٥) ص ٣٤ كتاب الأصنام .
(٦) ص ٧٨ اخبار مكة .

جاء الاسلام ، فأرسل النبي جرير بن عبد الله اليه فسار بفتيان بني أحمس من بجيلة فقتل سدنته ، وحارب قبائله وظفر بهم ، ثم هدم بنيانه وأضرم فيه النار ، فقالت امرأة من خثعم :

وبنو امامة بالولية صرّعوا ثملا يعالج كلهم انبوبا
جاءوا لبيضتهم فلاقوا دونها اسداً تقب الى السيوف قبيبا
قسم المذلة بين نسوة خثعم فتيانُ أحمس قسمة تشعيبا [1]

ذو الكفين وذو الرجل : وهما كما يظهران من اسميهما لا ينتسبان الى أمكنة كاللذين سبقا ، وإنما ينتسبان الى أعضاء في جسم الانسان . وذو الكفين صنم كان لدوس ثم لبني منهب بن دوس ، حرقه الطفيل بن عمرو الدوسي وهو يقول :

يا ذا الكفين لست من عبادكا ميلادنا اكبر من ميلادكا
اني حشوت النار في فؤادكا [2]

وأما « ذو الرجل » فلا يزيد الزبيدي فيه على ان يقول : وهو صنم حجازي [3] وقد ذكر شيخو مع ذي الشرى وذي الخلصة « ذات السلام » [4].

ولقد سمت العرب آلهتها ايضاً – ولا ندري لمَ ؟ – باسماء معنوية كمناة ، ومناف ، وجد ، وسعد ، وكسرى ، ورضا ، وود .

ود : وود هذا ، كما وصفه من رأى خالد بن الوليد يكسره بعد غزوة تبوك : « كان تمثال رجل كأعظم ما يكون من الرجال ، قد ذبر عليه حلتان ، متزر بحلة ، مرتد باخرى . عليه سيف قد تقلده . وقد تنكب قوساً وبين يديه حربة فيها لواء ، ووفضة فيها نبل » [5].

---

(١) ص ٣٦ كتاب الأصنام .
(١) ص ٣٧ نفس المصدر
(٣) ص ٣٤٠ ج ٧ تاج العروس
(٤) ص ١٢ النصرانية وآدابها
(٥) ص ٥٦ كتاب الاصنام .

والباحث لأول وهلة يرى ان هذا الاله العربي قريب الشبه من اروس Eros اليوناني . فهذا – وإن لم يذكره هوميروس – كان إله الحب في الميثولوجيا اليونانية وهو من اقدم واجمل الالهة اليونانية ، على ان قوته لا يمكن ان يقاومها الابطال ولا الآلهة . ومن غريب الاتفاق انه كان يتنكب السهام والقوس ايضاً [1] . وهل الود في العربية غير الحب ؟! فمن اسم الاله وملامحه « كاعظم ما يكون الرجال » ، وتقلده السهام والقوس تبرز لنا وجوه الشبه القريب بين الالهين . وقد ذكره النابغة الذبياني في قصيدته الميمية « بانت سعاد » المعدودة في نظره « اكمل من يمشي على قدم » والتي بعد ان ينسب بها يقول لها :

حياك « ود » فانا لا يحل لنا لهو النساء وان الدين قد عزما [2]

ويرى زيدان به شبهاً لملك من ملوك الفراعنة ، او إله من آلهة المصريين او الفينيقيين ، ثم يقول : ولا يمكننا الجزم في ذلك ، وإنما يظهر من وصفه انه إله غريب [3] .

الفصل السادس : أشهر الآلهة

وآلهة العرب الجاهليين كثيرة ، ولا يمكننا ان نعدد جميعها هنا ، ففي ابن الكلبي ، وابن هشام ، وياقوت ، وغيرهم من كتب السير والتفاسير والتاريخ والأدب واللغة ومختلف المعاجم . . . ثم في ولهوزن والالوسي والجارم وغيرهم من المحدثين غنى عما يمكننا ذكره ورسم صفاته ومميزاته في هذا الباب ، على انه لا يمكننا ان نمر مر الكرام ، ونتجاوز ثم نغض الطرف عن اربعة هي ، على ما بين ايدينا من المصادر أشهر

---

(١) ص ٧٥٣ ج ٩ Enc. Brit

(٢) في « العقد الثمين في دواوين الشعراء الجاهليين » – حياك ربي – غير ان نلدكه يرى انها في الاصل – حياك ود – (ص ٦٦٢ ج ١ Enc. of Rel. and Eth.) . وكذلك ياقوت في معجم البلدان ص ٩١٣ ج ٤ يرويها حياك ود ، والكلبي في ص ١٠ من كتاب الاصنام.

(٣) ص ٤١ انساب العرب

مؤلهات العرب على الاطلاق ، وبالاربعة هذه نعني مناة واللات والعزى – وطالما ذكرت معاً – ثم هبل . ونبدأ باقدمها وهي :

مناة : يجتهد ياقوت في معرفة اشتقاق هذا الاسم فيقول : ولعله يكون المنا وهو القدر في قولهم :

ولا تقولن لشيء سوف أفعله حتى تبيَّن ما يمني لك الماني

أي ما يقدر عليك .. قال : ويجوز ان يكون من المنا وهو الموت ، او من مناه الله يمنيها أي ابتلاه ، ومنوت الرجل ومَنيته إذا اختبرته ، أي انه الخبير [١] . وفي نفس الوقت يعترف ياقوت بانه لم يقف على احد يقول في اشتقاقه شيئاً .

وغريب هذا الشبه بين مناة العربية وبين الكلمتين مناتا Menata الآرامية ومنوت Manot العبرية . وهو كالشبه بين الماني الواردة في البيت الذي سرده ياقوت وماني Meni إله القدر او إله الموت [٢] . وهو اغلب الظن معبود كنعاني ... وفي اللغة نجد ان منية تعني الموت او الأجل .

ومناة على رأي ابن الكلبي ، اقدم الاصنام كلها . « وكان منصوباً على ساحل البحر من ناحية المشلل بقديد ، بين المدينة ومكة [٣] » . ولربما كان قدم رفعها الهة سبباً في عدم معرفة كنهها وتفصيل شعائرها ، وتلمس صفاتها الحقيقية . وقد ذكرت مناة على صيغة الجمع في نقوش الحجر النبطية [٤] . وكان آخر العهد بدولة الانباط سنة ١٠٦ م . وذلك بعد ان جرد عليهم الامبراطور الروماني تراجان حملة عجز النبطيون عن الوقوف في وجهها فغلبتهم على مدينتهم وذهبت بعصبيتهم فانحلوا واختلطوا بغيرهم

---

(١) معجم البلدان لياقوت ص ٦٥٢ ج ٤ .
(٢) ص ٢٣١ ج ٣ Enc. of Islam
(١) كتاب الاصنام ص ١٣ .
(٢) ص ٣٣١ ج ٣ Enc. of Islam .

من الشعوب المجاورة [١] .

وكان الهذليون يعبدون مناة بحجر اسود على رأي بوهل [٢] « وكانت العرب جميعاً تعظمه [٣] » . « ولم يكن احد اشد اعظاماً له من الاوس والخزرج [٤] » تخصه بالهدية والزيارة كما كانت تخص قريش العزى وثقيف اللات [٥] . ولم يزل على ذلك حتى خرج الرسول من المدينة سنة ٨ للهجرة (عام الفتح) ... فلما سار من المدينة ، اربع او خمس ليال ، بعث عليا (وهناك روايات تنسب هدمها الى ابي سفيان بن حرب ، او سعد بن زيد الأشهلي) . فهدمها [٦] واخذ ما كان لها ، وكان فيما اخذه سيفان اهداهما لمناة الحارث بن ابي شمر الغساني - وهو من الملوك الغسانيين الذين اعترف نلدكه بوجودهم ، توفي سنة ٥٦٩ م - احدهما يسمى مخذما والآخر رسوبا . وقد ذكرهما علقمة في شعره فقال :

مظاهر سربالي حديد عليهما   عقيلا سيوف : مخذم ورسوب

على انه يقال ان عليّا وجدهما في الفلس صنم طيء [٧] . ويقول ابن الكلبي : إن مناة التي ذكرها القرآن في سورة النجم [٨] - ولم يذكرها في غيرها - هي لهذيل وخزاعة ، فهل يستنتج من تعداد القبائل جميعها في الحديث عن مناة هذه ، انه كان لها اكثر من رمز ؟ ذلك محتمل . على ان انتشار الاسماء المركبة منها « كزيد مناة » ، و « عبد مناة » ، بين مختلف القبائل ، وما سبق من ان العرب جميعاً كانت تعظمها ، من شأنه ان يدعو الى الظن ان هذه الألهة التي اعتبرت احدى بنات الله ،

---

(١) العرب قبل الاسلام ص ٨٦ .
(٢) ص ٣٣١ ج ٣ Enc. of Islam .
(٣ و ٤) كتاب الاصنام ص ١٣ .
(٥) نفس المصدر ص ٢٧ .
(٦) السيرة ص ٥٥ وتاريخ الطبري ج ١ ص ١٦٤٩ .
(٧) العرب قبل الاسلام ص ١٨٦ .
(٨) القرآن الكريم س ٥٣ آية ٢٠ .

قد عمت قسماً كبيراً من بلاد العرب .

اللات : إلهة عربية اخرى ، قديمة وهي احدث – على رأي ابن الكلبي – من مناة [1] . ترجع الى عهد الحجر وبطرا ، كما انها ذكرت في نقوش الانباط والتدمريين . ومعنى اللات الألهة وقيل انها اسم للشمس [2]. ويقول نلدكه ان اليلات Alilat التي يذكرها هيرودتس يجب ان تكون قد احتلت مكانة سامية في ديانة اولئك العرب الذين سكنوا شبه جزيرة سيناء ومن جاورهم . وقد ظهرت اسماء مركبة منها بين الانباط والتدمريين ، كما انها دعيت في احدى النقوش النبطية العديدة بام الآلهة The Mother of the gods [3] . ويرى نلدكه ايضاً ماير ولهوزن ان اللات هي نفس « اله الشمس » النبطي الذي كان يقدس عندهم تقديساً خاصاً .

اما ما يراه العرب من ان اللات نسبة الى صخره كان يهودي يلتّ عندها السويق ، فسميت صخرة اللات [4] ، فلا يخرج عن كونه حديث خرافة ، وضعوه لعجزهم عن معرفة اصلها وكيفية دخولها بينهم ، وتوغلها في الجزيرة حتى وجدت لها مكاناً في نواحي الطائف ، ولرغبتهم في ايجاد تعليل لوجوها .

وقريب من هذا التعليل اجتهاد ياقوت في وضع الجوازات في معجمه كقوله : يجوز ان يكون اللات من لاته يليته ، اذا صرفه عن الشيء كأنهم يريدون ان يصرف عنهم الشر [5] .

ولا أدري أكان جهلاً منهم ظنهم بانهم لم يتصلوا فيمن جاورهم ولم يتأثروا بهم ولم يأخذوا الشيء الكثير من معتقداتهم وبالعكس ، ام

---

(١) كتاب الاصنام ص ١٦ .

(٢) ص ١٨ ج ٣ Enc. of Islam .

(٣) ص ٦٦١ ج ١ Enc. of Rel. and Ethics .

(٤) كتاب الاصنام ص ١٦ واخبار مكة ص ٧٩ .

(٥) معجم البلدان ص ٣٣٤ ج ٤ .

تجاهلا ؟ اننا نقرأ في تواريخهم ما يدل على انهم عرفوا جيرانهم . ولا نرى سبباً لذلك – ان كان جهلاً – سوى عدم تسجيل تاريخ جامع لاحوال العرب او حقائق ثابتة عنهم – على الاقل – في الجاهلية ، مما ادى الى ضياع الكثير من اخبارهم وخصوصاً حوادث القرون الخمسة الاولى للميلاد . فلا أرى في اللات مثلاً إلا انها غريبة عن العرب اصلاً . دخلت الجزيرة العربية من الشمال فيما دخلها بواسطة القوافل التجارية وغيرها . وهي إلهة نبطية بلا ريب . اما ان يكون الانباط عرباً او آراميين ، فذلك ما نتركه لبحاث التاريخ القديم ، فاذا كانوا عرباً فهي من العرب والى العرب ، وتبقى في الاصل غريبة عن الحجاز ، جاءته في التالي من المناطق الشمالية .

والمعروف ان اللات قد عبدت بصخرة مربعة بالطائف ، وكانوا قد بنوا عليها بناء ، وكانت قريش والعرب جميعاً تعظمها ، ولقد سموا بها « زيد اللات » و « تيم اللات » [1] . وهي التي تذكر مع العزى وتضاف اليهما مناة كما جاء في القرآن .

وكنا ذكرنا كيف ان وفد ثقيف سألوا النبي ان يدع لهم الطاغية (اللات) لا يهدمها فابى . وقد ارسل محمد ابا سفيان والمغيرة بن شعبة لهدمها ، فقدما الطائف واراد المغيرة ان يقدم أبا سفيان فابى وقال : ادخل انت على قومك ، فدخل المغيرة ثم ذهب الى اللات فعلاها وحطمها بمعوله ، وجمع ما عليها من الذهب والحلي [2] .

ومن لطيف ما يروى في حادث هدمها ان عامة ثقيف ما كانوا يرون انها مهدومة ويظنون انها ممتنعة . فلما قام المغيرة لهدمها ، اخذ المعول وقال لاصحابه لاضحكنكم من ثقيف : وضرب بالمعول ثم سقط يركض برجله ، فارتج اهل الطائف بصيحة واحدة وفرحوا ، وقالوا ابعد الله

---

(١) كتاب الأصنام ص ١٦ .
(٢) السيرة ص ٩١٧ .

المغيرة ، قتلته الربة . ثم قالوا هازئين لاصحابه من شاء فليقترب ، فقام عندئذ المغيرة وقال : والله يا معشر ثقيف انما هي لكاع حجارة ومدر ، فاقبلوا عافية الله واعبدوه ، ثم انه ضرب الباب فكسره ، وعلا سورها وعلا الرجال معه فما زالوا يهدمونها حجراً حجراً حتى سوّوها بالارض . غير ان سادنها لم ييأس من انتقام الربة ، وجعل يقول : ليغضبن الاساس فليخسفن بهم ! فلما سمع المغيرة قال لخالد : دعني احفر اساسها ، فحفروه حتى اخرجوا ترابها . ثم رجعوا الى رسول الله فقسم اموالها بين المسلمين (١) .

ومما ذكره الاب شيخو عن اللات قوله : « واليوم قد اجمع الاثريون على ان اللات هي الزهرة ، ولنا على ذلك شهادة هيرودتس المؤرخ . قال في تاريخه ان العرب يعبدون الزهرة السماوية وهم يدعونها أليتّا Alitta وقد اصلح اسمها في محل آخر فدعاها الألات Alilat وهو اختصار الألاهت كما اختصروا الاسم الكريم الاله فقالوا الله . ثم اختصروا الألات فقالوا اللات . وكانت اللات معبودة في كثير من جهات الجزيرة ليس الطائف كما زعم كتبة العرب . فان الاثريين وجدوا كتابات عديدة ورد فيها ذكر اللات ولا سيما في بلاد النبط في حجر وصلخد والبصرى حيث كان لها هيكل وفي انحاء حوران وحتى في تدمر . وتدعى هناك بالقاب تدل على مقامها كاللات العظمى وام الآلهة . وكانوا يضيفون إلى اسمها اسم المكان الذي تكرم فيه فيقولون لات صلخد ولات حبران الخ ...

قال : « ودخل اسمها بين اهل المدر ، وبين سكنى حوران المتكلمين باليونانية فنقلوا اسمها الى اليونانية على صورة « اثيني » وهي عند اليونان ألهة الحكمة ، لكن صورها واوصافها في الكتابات القديمة تثبت على

(١) البداية والنهاية ص ٣٣-٣٤ ج٥

كونها الزهرة . ومما يدل على انتشار عبادتها بين العرب كثرة الاسماء المركبة من اسمها كوهبلات ، وتيم اللات ، وعمرو اللات ، وزيد اللات وغيرها مما وجد في الآثار والاعلام القديمة »[1] والاب شيخو مؤمن بان اللات هذه هي نفس مناة ، ومناة ، هي اسم من اسماء العزى . وما العزى إلا الزهرة التي عرفت باسماء أخرى على مقتضى احوال ظهورها بعد غروب الشمس وقبل طلوعها ، غير اننا لا نرى ان اللات ومناة والعزى انما هي اسماء مختلفة لألهة واحدة . بل انها ثلاثة اسماء لثلاث آلهات في بلاد العرب على الاقل .

العزى : من حديث ذكره ابو الفرج[2] يحلف فيه المنذر الرابع ملك الحيرة باللات والعزى ، نعلم ان العزى — تلك التي اهدى لها النبي شاة عفراء وهو على دين قومه[3] — كانت تعبد ايضاً بين اللخميين . اولئك الذين كانوا لعبة في ايدي ملوك فارس على الضفة الشمالية الشرقية من بلاد العرب ، كما كان ملوك غسان لعبة بايدي الاباطرة الرومان في مشارق الشام . ومما يروى عن العداء بين الغساسنة واللخميين ، ما ذكره مؤرخ سرياني قديم من ان المنذر ذاك قد ضحى للعزى ابن الحارث الجفني ملك غسان وقد وقع الولد بيده اسيراً ، كما ضحى اربعمائة راهبة اسيرة كن متنسكات في بعض اديرة العراق[4] . ذلك خبر مؤلم ، إن صح ، علمنا ما كان يصحب عبادة « كوكب الحسن » من القساوة . غير ان هذه القساوة — على ما يظهر — لم تدخل قلب بلاد العرب ، وان كان الكثير من ميزات هذه الألهة القاسية القلب منسياً او غير معروف لدينا . فهم ان تحدثوا عنها قالوا : والعزى تأنيث الاعز ، مثل الكبرى

---

(١) النصرانية وآدابها بين عرب الجاهلية ص ١٠

(٢) الاغاني ص ٢١ ج ٢

(٣) الاصنام ص ١٢

(٤) ص ١٠٦٩ ج ٤ Enc. of Islam

تأنيث الاكبر . والاعز بمعنى العزيز ، والعزى بمعنى العزيزة [١] . وهي احدث من اللات ومناة ، وذلك ان العرب – على رأي ابن الكلبي – سمت بهما قبل العزى . « وكانت بواد من نخلة الشآمية ، يقال له حراض بازاء الغمير عن يمين المصعد الى العراق من مكة فوق ذات عرق الى البستان بتسعة اميال » . وكانت اعظم الاصنام عند قريش التي حمت لها شعباً من وادي حراض يقال له سقام يضاهون به حرم الكعبة [٢] . ونخلة الشآمية هذه كانت واديين لهذيل على ليلتين من مكة ، وهما ما عناهما كثيّر بقوله :

حلفت برب الموضعين عشية [٣]

وقد اوردهما حسان بن ثابت في شعره قال :

وان الذي بالجزع من بطن نخلة

ومن دانها فل عن الحق معزل

وهو في هذه الشهادة انما يعني العزى نفسها [٤] .

وكانت العزى تعبد بثلاث شجرات سمرات بنخلة حيث كان يشتّي الرب لحر تهامة بعد ان يكون قد اصطاف في اللات لبرد الطائف [٥] . ولم تقتصر عبادتها تمثيلها بالثلاث سمرات ، ولكن كان لها صنم ايضاً معبود وبيت محمي تقدم له ضروب الشعائر [٦] . وفي حديث مسير خالد بن الوليد لها يقول ابن الكلبي انه قطع الشجر وهدم البيت وكسر الوثن [٧]

---

(١) معجم البلدان ص ٦٦٥ ج ٣

(٢) الاصنام ص ١٧ – ١٩ .

(٣) معجم البلدان ص ٧٦٩ ج ٤

(٤) اخبار مكة ص ٨٢ .

(٥) نفس المصدر ص ٧٩

(٦) تفسير الطبري ص ٣١ – ٣٢ ج ٢٧ .

(٧) الاصنام ص ٢٧ .

والظاهر ان عبادة العزى اخذت تتضاءل في اواخر العصر الجاهلي ، على ان منهم من كان لا يزال شديد الكلف بها . من حديث ذلك ان سعيد ابن العاص حينما مرض مرضه الاخير الذي مات فيه ، دخل عليه ابو لهب يعوده فوجده يبكي فقال ما يبكيك يا أبا احيحة ؟ امن الموت تبكي ولا بد منه ؟ قال لا ، ولكني اخاف ان لا تعبد العزى بعدي ! فقال ابو لهب : والله ما عبدت في حياتك لاجلك ولا تترك عبادتها بعدك لموتك ! فقال ابو احيحة : الآن علمت ان لي خليفـــة ![1] . ويدعي ابن الكلبي ان قريشاً كانت حينما تطوف بالكعبة تقول :

واللات والعزى ، ومناة الثالثة الاخرى ، فانهن الغرانيق العلى ، وان شفاعتهم لترتجى [2] .

ويلاحظ الشبه بين هذا الاهلال وبين مـا ورد في سورة النجم ، كما يلاحظ الجمع بين الألهات الثـــلاث تلك . وان كثر الجمع بين العزى واللات كقول زيد بن عمرو عزلت الـــلات والعزى الخ ... وكقول قريش في امرأة أصيب بصرها ما أذهب بصرها الا اللات والعزى فقالت كذبوا وبيت الله ما تضران « اللات والعزى » ! وقول كعب بن مالك :

وتنســـى اللات والعزى وود   ونسلبها القلايد والشنوفا [3]

والأيمان باللات والعزى ، مجموعتين ، كثيرة ، وفي أحد يقبل ابو سفيان يحمل اللات والعزى [4] . والعرب اجمالاً لم يكونوا يرون في بقيـة الاصنام ما يرون في بنات الله اللواتي يشفعن اليهم — على رأيهم — عنده . وحديث بنات الله يجرنا الى تلخيص القول في قصة الغرانيق التي لها وثيق الصلة بالألهات الثلاث :

---

(١) نفس المصدر ص ٢٣

(٢) نفس المصدر ص ١٩

(٣) السيرة ص ١٤٥ ، ٢٠٦ ، ٨٧١

(٤) تاريخ الطبري ص ١٢٩٥ ج ١

حديث الغرانيق : لقد شق على محمد في بدء دعوته إعراض قومه عنه وإيقاعهم بمن يقدرون عليهم من المسلمين شر العذاب ، ورفضهم ما جاءهم به من عند الله ، فتمنى في نفسه ان لا ينزل عليه الله شيئاً ينفرّهم عنه ، لرغبته في التقريب بينه وبينهم ولحرصه على إيمانهم . وكان ذات يوم جالساً في ناد من انديتهم وقد نزلت عليه سورة « والنجم إذا هوى » فأخذ يقرأها عليهم حتى بلغ قوله تعالى « أفرأيتم اللات والعزى ومناة الثالثة الاخرى » ... وكان تمنّيه لا يزال عالقاً في نفسه فجرى على لسانه « تلك الغرانيق العلى وان شفاعتهم لترتجى » فتهللت وجوه قريش بشراً واعجبهم ما ذكر به آلهتهم .... ومضى الرسول يقرأ حتى اتم السورة . وسجد في النهاية وسجد المسلمون معه وكذلك جميع المشركين من قريش إلا الوليد بن المغيرة فقد كان شيخاً كبيراً لا يقدر على السجود ، غير انه رفع الى جبهته تراباً وسجد عليه .... ثم تفرّق الناس وخرجت قريش مسرورة بما ذكر محمد عن آلهتهم أحسن الذكر : ألم يزعم انها الغرانيق العلى وان شفاعتهم لترتجى ؟

وتبلغ السجدة من بأرض الحبشة من اصحاب الرسول .... ويقال بينهم اسلمت قريش فنهض منهم رجال وتخلف آخرون .

ثم يأتي جبريل الى النبي ويقول ما صنعت يا محمد ؟. اقد تلوت على الناس ما لم آتك به !.... فيجزع الرسول ، ولكن الله كان به رحيما ، وانزل عليه الآية تلو الاخرى ناسخاً ما اجرى الشيطان على لسانه ، فتقول قريش ندم محمد على ما كان من منزلة آلهتنا عند الله فغيّر ما جاء به . ثم تعود لمناوأته وايذاء اصحابه ، ويعود النبي سيرته الاولى من ذكر آلهتهم بالشر [١] .

هذا هو ملخص حديث الغرانيق اما أن يكون موضوعاً اوله اصل

---

(١) راجع تفسير الطبري م ١٧ ص ١١٩ - ١٢٢ ، وتفسير القرآن للنيسابوري م ١٧ ص ١٠٢

من الصحة ، فشيء نتركه للقدماء والمحدثين من مؤيديه ومناهضيه ، ويحسن مراجعة حججهم في الفصل السادس من كتاب حياة محمد [1] .

ورجوعاً الى حديث العزى نقول انه كان لها على ما يظهر تمثال او رمز تحمله قريش في حروبها . وقد ذكرنا كيف اقبل ابو سفيان في احد يحمل اللات والعزى . وفي احد ايضاً كان يقول : ألا لنا العزى ولا عزّى لكم . فيجيبه المسلمون : الله مولانا ولا مولى لكم [2] . فهي من الآلهات التي كانت تشترك في الحروب وان كان هـذا الاشتراك قاصراً على اثارة حمية عبادها . ولامنس ، في حديثه عن الحجارة المؤلهة ، يرى غير ما يرى ولهوزن الذي يقول : « تنتقل القبائل البدوية ولكن لا ينتقل موضوع عبادتها الخ » ويعتمد الاب لامنس على امثال ما ذكر آنفاً وعلى اقرار ولهوزن نفسه بوجود « بعض الاشياء المقدسة التي تنتقل زمن الحرب » . ومن قول الاب لامنس في هـذا الحديث : وقد لا اخطىء القصد اذا رأيت اشارة الى شيء من هـذه العادة في بيت للكميت يقول :

وقد آلت قبائل لا تولي　　مناة ظهورها متحرفينا [3]

ويشاء التاريخ ان يكون خالد المشرك الذي اشترك في احـد جنباً الى جنب مع ابي سفيان ، هو نفس خـالد المؤمن الذي مسح معالم العزى . تلك التي كان ابوه الوليد — بشهادة خالد نفسه — يأتيها بخير ما له من الأبل والغنم فيذبحها لها ويقيم عندها ثلاثـاً ثم ينصرف اليهم مسروراً [4] . ومن حديث هدمها انه لما كان عام الفتح « ٨ هـ » دعا النبي خالداً لهدمها فانطلق الى بطن نخلة فعضد الشجرات الثلاث ، وقد

---

(١) حياة محمد ص ١٢٣ - ١٣١

(٢) تاريخ الطبري ج ١ ص ١٤١٨ .

(٣) مجلة المشرق ٣٦ - ج ١ ص ٢ ، ٦ ، ١٠ .

(٤) اخبار مكة ص ٨١

رأى في الاخيرة منها حبشية نافشة شعرها واضعة يديها على عاتقها وهي تصرف باسنانها ، وخلفها دبيّة السلمي سادنها يثيرها على خالد ويقول :

اعزّاي شدي شدة لا تكذبي على خالد ، ألقي الخمار وشمري
فانك ان لم تقتلي اليوم خالداً تبوئي بذل عاجلا وتنصري

ويقشعر ظهر خالد ثم يقدم مشجعاً نفسه بترديده :

يا عز كفرانك لا سبحانـك اني رأيت الله قـد اهانك

ثم يضربها فيفلق رأسها ويقتل سادنها ويهدم البيت ويكسر الصنم ثم يرجع الى النبي ويخبره بما فعل فيقول النبي : تلك العزى ولا عزى بعدها للعرب ، اما انها لن تعبد بعد اليوم [١] .

هكذا كانت نهاية العزى في بلاد العرب ، اصابها ما اصاب غيرها من الآلهة الكثيرة ، وتتلاشى الروايات عنها دون ان تترك ولو شيئاً ضئيلاً عن اصلها وخواصها . وقد لاحظ بعض المستشرقين ضآلة الحقائق التاريخية في حياة العرب الجاهلية . ويقول اوليري في هذا المعنى : انه لا يلاحظ في ما كتبه العرب تأخر المواد نسبياً فحسب ، حيث تلاشى كل شيء حقيقي يذكر عن العادات الوثنية ، ولكن هذه الكتابات التي حفظت لنا كانت قد نقحت وحررت في طريقة لتطابق ما ورد في القرآن [٢] .

هذا ، ومما يلاحظ ان العزى قديمة العهد وان كانت كما يذكر الرواة احدث من مناة واللات . فقد ذكرنا انها عبدت في الحيرة وان المنذر (في النصف الاول من القرن السادس) كان يضحي لها اسراه . وقبل هذا الزمن بقرن تقريباً ذكرها شاعر سرياني يدعى اسحاق الانطاقي ، وبذلك نعلم منه انها عبدت بين عرب ذلك الحين . وكان قد ذكرها في شعره على انها الزهرة نفسها Venus ... ويقولون انها وردت في

---

(١) كتاب الاصنام ص٢٤ — ٢٧ .

(٢) ص ١٩٢ O'Leary : Arabia Before Muhammad.

مؤلفات كتّاب يونانيين عاشوا في القرن الرابع . وهي بلا شك ترجع الى ما قبل ذلك بكثير ، ومصدر ذلك نقوشات وجدت في شبه جزيرة سيناء اشارت الى سادن لهذه الألهة ، كما اشار غيرها الى الاسم عبد العزى وذلك حوالي القرن الثاني للميلاد [1] . وقد عرفت الزهرة باسماء اخرى حسب ظهورها بعد غروب الشمس او قبل شروقها . فكانوا يدعون نجمة السماء « عثر » ، وهي ايضاً « استار » Astarté او « عترعتا » Atargatis . اما نجمة الصبح فشاع اسمها العزى اي الألهة السامية . وجاء ذكرها باسم كوكب الحسن في شعر اسحاق الانطاكي ، وصرح بانها هي الزهرة ... ومن اسماء الزهرة ايضاً « كبر » كما ذكر الكاتب اليوناني افتيموس قائلا انها من معبودات العرب [2] .

هبل : ويرجع بنا الى حديث احضار الاصنام من الشام « مآب » او العراق « هيت » . وهو على رأي اليعقوبي اول صنم وضع بمكة [3] . وياقوت على عادته يحاول محاولات عقيمة في استخراج اسمه من معان واشتقاقات لا تجدي [4] ، وذلك لجهله بانه اسم لمسمى غريب لا يحتاج الى تأويل .

وهبل هذا هو الذي كان يخاطبه ابو سفيان بن حرب في معركة احد سنة (٣) هـ . بقوله : ... اعل هبل ! اعل هبل ! فيجيبه اصحاب النبي : الله اعلى واجل [5] .

وهو على ما يروي ابن الكلبي اعظم الاصنام التي نصبتها قريش في جوف الكعبة ، وكان فيما بلغه من عقيق احمر على صورة انسان ، مكسور اليد اليمنى ، ادركته قريش كذلك فجعلت له يداً من ذهب [6] . وهذا

---

(١) ص ٦٦٠ ج ١ Enc. of Rel. and Ethics

(٢) النصرانية وآدابها ٩ — ١١

(٣) تاريخ ابن واضح اليعقوبي ج ١ ص ٢٩٥

(٤) معجم البلدان ج ٤ ص ٩٤٩

(٥) تاريخ الطبري ج ١ ص ١٤١٧ — ١٤١٨

(٦) الاصنام ص ٢٧و٢٨

يقول فنسنك Wensink انه يمكننا ان ندعوه « إله مكة والكعبة »[1] . وكان هبل موضوعاً على بير في جوف الكعبة [2] ، وكانت هذه البير فيما زعم الازرقي تسمى الاخف وكانت العرب كما يقول تسميها الاخشف [3] ، وكان لهبل خزانة للقربان كما كان قربانه مئـــة بعير ، فـاذا جاءوه بالقربان ضربوا القداح وقالوا :

انا اختلفنا فهب السراحا
ثلاثة يا هبـــل فصاحا
الميتة والعذرة والنـــكاحا
والمرء في المرضى والصحاحا
ان لم تقله فمر القداحا [4]

وسنرجـــع الى حديث القداح في الكلام عن المقامات الدينيـــة فيما بعد . اما شعائره الأخرى فلا تقدم الينا معلوماتنا الحاضرة منها شيئاً ، وهو في الاصل اقرب الى ان يكون مؤلهاً آرامياً . والغريب انه لم يذكر في خلاف الروايات العربية الضئيلة الا في نقش نبطي ذكره على ما يقال مع ذي الشرى ومناة [5] . ويظهر لزيدان ان هبل من آلهة الفينيقيين او الكنعانيين ، وهو يرى ادلة على ذلك فيما يلي :

١ - قول العرب انه جاءهم من مؤاب بارض البلقاء .

٢ - ان لفظ هبل لا اشتقاق له في العربية من معناه ، فهو غير مشتق من لفظ عربي ، وعندنا انه عبراني أو فينيقي اصله « هبعل » وهو اسم اكبر اصنام الفينيقيين او الكنعانيين ومن جاورهم ... وكان للفينيقيين

---

(١) ج ٢ ص ٥٩١ Enc. of Islam .
(٢) السيرة ص ٥٤ .
(٣) اخبار مكة ص ٧٣ .
(٤) نفس المصدر ص ٧٤ .
(٥) ج ٢ ص ٣٢٧ Enc. of Islam .

عشرات الآلهة يميزون منها اثنين، احدهما ذكر «هبعل» والثاني انثى «عشتروت». ومعنى بعل في لسانهم السيد او الاله، والهاء في العبرانية اداة التعريف مثل ال العربية، فباضافة هذه الأداة الى بعل يريدون الاله الاكبر. والظاهر انه حمل الى مكة بأسمه العبراني، واما العين الزائدة فيسهل اهمالها بالتخفيف ثم ضياعها بالاستعمال وخصوصاً في لفظ بعل، لان الكلدانيين كانوا يلفظونه «بل» باهمال العين، وهو اسم هذا الاله عندهم. وربما كان الموابيون يلفظونها هبل فنقلها عمرو بن لحي كما كان يسمعها.

٣ ـ ان اساليب عبادة العرب هبل تشبه اساليب عبادة المؤابيين هبعل فقد كان المؤابيون ينصبون هذا الصنم على التلال المرتفعة او سقوف البيوت ويذبحون له الذبائح من الحيوانات والآدميين ويحرقون له المحرقات ويستخيرونه ويفضلونه على سائر آلهتهم، وكذلك كان يفعل العرب لهبل. وكما ان هبعل اكبر اصنام العرب المؤابيين ومن جرى مجراهم، فهبل اكبر أصنام العرب، وكانوا ينصبونه فوق الكعبة [١].

وعلى شهرة هبل الواسعة، لا توجد لدينا فكرة واضحة عنه، ولعل ذلك راجع الى قلة الاخبار عنه وعن غيره من الآلهة، بينما هذه القلة نفسها انما تبتدىء في قسمها الاعظم بانتهاء عصور الوثنية، اي في الوقت الذي لم يكن للرواة العرب انفسهم علم كاف بهذا الموضوع.

---

(١) انساب العرب القدماء ص ٧١ ـ ٧٣.

الباب الثالث

عبادة النجوم

الفصل الاول : الصابئة – معرفة العرب بالنجوم

قديمة جداً هذه الفرقة التي آمنت بالله خالق ، واعترفت بالعجز عن الوصول الى جلاله الا بواسطة روحانية لا جسمانية . والصابئون هم بالحقيقة – على رأي البيروني – المتخلفون من اسرى بابل الذين نقلهم بختنصر من بيت المقدس اليها . ولقد اعتادوا ارض بابل فآثروا المقام بها . ولما لم يكونوا من دينهم بمكان معتمد ، سمعوا اقاويل المجوس ، وصبوا الى بعضها ، فامتزجت مذاهبهم من المجوسية واليهودية ، وانتشروا في بلاد الرافدين ، على ان اكثريتهم سكنت سواد العراق [1] .

وقد دعا البحاثَ ذكرُ هذه الفرقة بين اولي الكتاب ، الى تقسيمها قسمين : مؤمن وكافر ، غير ان الكثير من اصحاب هذا التقسيم لم يروا ما رأى المستشرق كارادي فو من ان القسم الاول انما هو – على ما يظهر – مسيحيو يوحنا المعمدان في العراق ، وان الاسم نفسه صابئة مشتق من اصل عبري يقابل معناه كلمة Baptists اولئك الذين يمارسون « المعمودية » بالتغطيس . وهو يرى ايضاً ان الصابئة الوثنيين – الذين لم يعرفوا هذا الطقس الديني مطلقاً – قد يمكن ان يكونوا اتخذوا اسم

---

(١) ص ٣١٨ – الآثار الباقية عن القرون الخالية

« الصابئة » ليحظوا بتسامح القرآن مع اولي الكتاب [1] . وليلاحظ ان البيروني قد سبق دي ڤو الى هذا الرأي الاخير فقال : « وقد يقع الاسم على الحرانية ... وهذا الاسم اشهر بهم من غيرهم ، وان كانوا تسمّوا به في الدولة العباسية في سنة ثمان وعشرين ومائتين ليعدوا في جملة من يؤخذ منه ويرعى له الذمة ، وكانوا قبلها يسمون الحنفاء والوثنية والحرانية [2] » .

اما الشهرستاني فيقول في الملل والنحل : « وفي اللغة صبا الرجل اذا مال وزاغ ، فبحكم ميل هؤلاء عن سنن الحق وزيغهم عن نهج الانبياء قيل لهم صابئة [3] » .

ويتحقق ابن العبري من مذهب الصابئة ، فيرى ان دعوتهم هي دعوة الكلدانيين القدماء بعينها ، وقبلتهم القطب الشمالي [4]

ومما يجدر بالذكر ان مدار مذهبهم على التعصب للروحانيين . ويفهم بالروحانيين ملائكة السماء . وهم يعتقدون ان للعالم فاطراً ويرون من الواجب عليهم معرفة العجز عن الوصول الى جلاله . فيتقربون اليه بالمتوسطات لديه ، وهم الروحانيون المطهرون المقدسون جوهراً وفعلاً وحالة [5] .

فبالجوهر ، يعني ان الروحانيات من حيث جوهرها قد جبلت على الطهارة وفطرت على التقديس ، يتقرب اليها ويتكل عليها . فهي اربابهم وآلهتهم ووسائلهم وشفعاؤهم عند الله . وهو رب الارباب وإله الآلهة [6]

---

(١) ص ٢١ م ٤ Enc. of Islam

(٢) ص ٣١٨ الآثار الباقية

(٣) ص ٩٥ ج ٢ – الملل والنحل

(٤) ص ٢٦٦ تاريخ مختصر الدول لابن العبري

(٥) ص ٩٥ – ٩٦ ج ٢ الملل والنحل

(٦) ص ٩٦ ج ٢ نفس المصدر

وبالفعل ، قالوا ان الروحانيات هم المتوسطون في تصريف الامور ، يستمدون القوة من الله ، ويفيضون الفيض على الموجودات السفلية . ومن هذه الروحانيات مدبرات الكواكب السبع السيارة . فالكواكب عندهم هياكل الروحانيات ، لكل روحاني هيكل ، ولكل هيكل فلك ، وتكون نسبة الروحاني الى ذلك الهيكل « اي الكوكب » الذي اختص به ، كنسبة الروح الى الجسد [1] .

واما حالة ، فاحوال الروحانيات في جوار رب الارباب لا يعصون الله ما امرهم [2] .

وما دام لا بد للانسان من متوسط ، ولا بد للمتوسط من ان يُرى فيُتوجه اليه ، لذلك فزعوا الى الهياكل (يعني السيارات السبع) يتعرفون على منازلها ومطالعها ومغاربها وكل ما يتعلق بها من صفات وحركات ، وسموها ارباباً آلهة ... فكانوا يتقربون اليها تقرّباً من الروحانيات ، ويتقربون الى الروحانيات تقرباً الى الله ، لاعتقادهم بان الكواكب هياكل او ابدان الروحانيات [3] . ولما كانت الهياكل تأفل فلا يرونها احياناً ، لذلك اتخذوا اشخاصاً اصناماً على مثال الهياكل (الكواكب) السبعة ... اذ لا بد لهم من صور واشخاص موجودة قائمة نصب اعينهم ليقدموا لها العبادات [4] .

وهذا ما دعا البعض الى ان يفرق بين من عبد النجوم مباشرة وبين الذين عبدوا الاصنام التي تمثلها ، والحقيقة انه لا فرق بينهما .. والظاهر انهم كانوا مع الكواكب السبع (الشمس والقمر والزهرة والمشتري والمريخ وعطارد وزحل) يعظمون البروج الاثني عشر . فقد كانوا يعيّدون لحلول السيارة بيوتها ، وكذلك كلما استهل الهلال ، وحلّت

---

(١) ص ٩٧ ج ٢ نفس المصدر

(٢) ص ٩٨ ج ٢ نفس المصدر

(٣) ص ١٤٦ – ص ١٤٧ ج ٢ نفس المصدر

(٤) ص ١٤٨ ج ٢ نفس المصدر

الشمس برجاً من الابراج المذكورة [١] .

معرفة العرب بالنجوم : والظاهر ايضاً ان الصابئين قـد نقلوا عن اساتذتهم الكلدانيين علوم الفلك . فقد مر معنـا ان مذهبهم كان عين مذهب الكلدانيين القدماء ، اولئك « الذين كانت لهم عناية بأرصـاد الكواكب ، وتحقيق بعلم اسرار الفلك ، ومعرفة مشهورة بطبائع النجوم واحكامها [٢] »

ولما كان عرب الجاهلية على اتصـال بسكان المناطق المتاخمـة ، فليس بعيداً ان يكون شيء من علوم الفلك قد تسرّب اليهم عن طريق الصابئة ، وهم من عرفهم العرب منذ القدم ، وكانت لهم فيما بعد نفس المنزلة التي كانت لأولي الكتاب ، كما انه ليس عجيباً ان يندس شيء من عبـادة النجوم بين تلك العلوم المتسرّبة .

ونرى من البدهي ان معرفة العرب للنجوم لم تكن منقولة بكاملها عن الصابئة او غيرهم ، فقد كان لهم مذهبهم في الصور الفلكية ومواضعها من فلك البروج [٣] . ويغالي ابن قتيبة فيزعم « ان العرب اعلم الامم بالكواكب ومطالعها ومساقطها [٤] » . ويجاريه بهذا الرأي ابن رشيق الذي يقول ان العرب اعلم الناس بمنازل القمر وانوائها [٥] . والبيروني ، بعد ان يرد على ابن قتيبة باسلوبه العلمي الرصين ، يعترف بانـه كان لهم

---

(١) ص ١٢ ابن العبري و ص ٢٢٤ ج ٢ بلوغ الارب في معرفة احوال العرب

(٢) ص ٨٢ ابن العبري

ويرى صروف في كتابه (بسائط علم الفلك) ان اسماء البروج قد اقتبسها العرب عن اليونان ، واليونان عن الكلدان . ويقول : « ولو اكتفى العرب باسمائهم القديمة على ما كان يعرفه اصحاب الأنواء ، ما وجدنا شيئاً من المشابهة بين اسمائهم واسماء الصور السماوية المعروفة في وقتنـا هذا » ص ١٠٤

(٣) ص ٣٨ عجائب المخلوقات للقزويني .

(٤) ص ٢٣٨ البيروني

(٥) ص ١٩٦ ج ٢ العمدة لابن رشيق

ما لم يكن لغيرهم ، وهو تخليد ما عرفوه او حدسوه حقاً كان او باطلا بالاشعار والاراجيز والاسجاع المتوارثة [١] .

فاين ، إذن ، هذه الاشعار والاراجيز والاسجاع ؟ هذه الوثائق التي خلدت - على رأي ابي الريحان - ما عرفه العرب وما توصلوا اليه من علم الفلك والنجوم ؟ لقد ضاعت فيما ضاع من الآثار ، ولم يبق منها الا القليل القليل ، ومن هذا القليل نتأكد من انه كان للعرب اقوال في الكواكب ومطالعها ومساقطها وصورها واسمائها وانوائها وما فيها من الامطار والرياح والحر والبرد ، وامارات خصب الزمان وجدبه . وهم - على رأي القزويني - في اقوالهم اقرب الى الصدق من غيرهم [٢] . ولا عجب إن مارسوا هذه الامور ، فطبيعتهم الصحراوية مكشوفة الى النجوم التي يهتدون بها في اسفارهم وحلهم وترحالهم ، ولقد جاء في الكتاب : « وبالنجم هم يهتدون [٣] » .

ومن ميزاتهم انهم اشتقوا اسماء الكواكب السبعة وغيرها من صفاتها كما نجد ذلك في معاجم اللغة [٤] . فالخنّس الجواري الكنّس التي ذكرت في القرآن [٥] - وهي السيارة عدا النيرين - انما سميت خنسا لانها تسير في البروج والمنازل كسير الشمس والقمر ، ثم تخنس اي ترجع ، بينما يرى احدها في آخر البروج ، واذا به يكر راجعاً الى الاول ، وسميت كنّسا لانها تكنس اي تستتر كما تكنس الظباء [٦] .

ولا ندري ما الذي ادى بالعرب وغيرهم الى تسمية الكواكب باسماء

---

(١) ص ٢٣٩ البيروني

(٢) ص ٤٢ القزويني

(٣) القرآن الكريم سورة ١٦ آية ١٦

(٤) راجع ص ٣٨ - ص ٣٩ ج ١ نهاية الأرب في فنون الادب للنويري

(٥) راجع القرآن الكريم س ٨١ آية ١٦

(٦) ص ٩٥ ادب الكاتب و ص ٣٨٩ انوار التنزيل واسرار التأويل للبيضاوي

الحيوانات وغيرها من الاشياء الارضية ، فاننا لا نرى ثمة جملا ولا ناقة ولا رجلا ولا امرأة مهما أمعنا النظر في ليلة ظلماء او قمراء ؟! يقول القزويني انهم سموها بهذه الاسماء لمعرفتها ومعرفة خواصها [1] . ولربما كان ذلك راجعاً ايضاً الى ميل الانسان منذ البدء الى تشخيص ما فوق حواسه الخمس واحلاله محل الموجودات من انسان وحيوان ونبات وجماد ، تلك الاشياء التي تحفه من كل جانب . وقد مر معنا ان الصابئة انما شخصوا آلهتهم لتكون بينهم ونصب اعينهم حتى يتمكنوا من ان يقدموا لها ضروب العبادات . وكذلك القول في اصنام العرب . فلا بأس اذن من ان تكون تسمية الامم القديمة مجاميع الكواكب نوعاً من التشخيص المعنوي حتى يتمكنوا من تصورها في عقولهم .

ويظهر ان لصفات الكواكب المزعومة عند العرب اثراً في اشتقاق اسم ذاك الفرقد وتلك الكوكبة . ولنأخذ « الثريا » مثلاً : زعموا ان في المطر عند نوئها الثروة [2] . فليس بعيداً ، اذن ، ان تكون مشتقة من الثراء ... وفي لسان العرب : « والثريا من الكواكب سميت لغزارة نوئها [3] » .. وفي العمدة لابن رشيق : « سميت بهذا لان مطرها عنه تكون الثروة وكثرة العدد والغنى [4] » .

وللنوء شبه صلة بعبادة العرب للنجوم وتعظيمها . وايمانهم بالانواء دعاهم الى الاعتقاد باثرها في تصرفاتهم وحركاتهم وسكناتهم . وقد نسبوا ذلك الى الكواكب ، وقالوا ان التأثيرات متعلقة باجرام الكواكب وطلوعها وسقوطها [5] . ومن امثالهم « أخطأ نوؤك » يضرب لمن طلب حاجته فلم يقدر

---

(١) ص ٢٩ القزويني

(٢) ص ٣٥ - ٣٦ القزويني

(٣) ص ١٢١ ج ٨ لسان العرب

(٤) ص ١٩٩ ج ٢ العمدة لابن رشيق

(٥) ص ٣٣٨ البيروني

عليها . والنوء النجم يطلع او يسقط فيمطر ، فيقال مطرنا بنوء كذا [1] .
« فالنجم اذا سقط فما بين سقوطه الى سقوط التالي له هو نوء ، وذلك في ثلاثة عشر يوماً ، فما كان في هذه الثلاثة عشر يوماً من مطر او ريح او حر او برد فهو في نوء ذلك النجم الساقط [2] » ، فان سقط ولم يكن مطر قيل خوى نجم كذا وكذا [3] . ومنهم من يقول ان النوء على الحقيقة للطالع من الكواكب لا للغارب [4] ومنهم من سمى تأثير الطلوع بارحاً وتأثير السقوط نوءاً . ولقد رجز بعضهم حساب النوء فقال :

والدهر ، فاعلم ، كله ارباع ... لكل ربع واحد ، اسباع
وكل سبع لطلوع كوكب ... ونوء نجم ساقط في المغرب
ومن طلوع كل نجم يطلع ... الى طلوع ما يليه اربع
من الليالي ثم تسع تتبع [5]

وينطبق هذا الرجز على حقيقة حساب النوء . جاء في العمدة : « السنة اربعة اجزاء ، لكل جزء منها سبعة انواء ، لكل نوء ثلاثة عشر يوماً ، الا نوء الجبهة فانه اربعة عشر يوماً [6] » .

ولما كان لا نوء في طلوع « بنات نعش » وسقوطها ، شبّه شاعر بها معشره ، وقد اراد هجوهم بان لا خير فيهم ، قال :

اولئك معشري كبنات نعش ... خوالف لا تنوء مع النجوم [7]

---

(١) ص ٢٠٢ جـ ١ — الامثال للميداني
(٢) ص ٢ : القزويني
(٣) ص ٨٨ ادب الكاتب ، ص ٣٣٩ البيروني
(٤) ص ١٩٧ جـ ٢ العمدة
(٥) ص ٣٣٩ البيروني
(٦) ص ١٩٦ جـ ٢ العمدة
(٧) ص ٢٤٢ البيروني

ومن الانواء التي يعتبرها العرب شؤما عليهم نوء « الدبران » ، ذلك الكوكب الاحمر المنير الذي خشيته العرب وتشاءمت به ، وزعمت انهم لا يمطرون بنوئه ، الا وسنتهم جدبة . ففي نوئه يشتــد الحر وتهب السمائم . ومما قيل في طلوعه : « اذا طلع الدبران ، توقدت الحزان ، وكرهت النيران ، واستعرت الونان ، ويبست الغدران [١] » . فلا غرابة اذا ضربت العرب بشؤمه المثل ، فقالت : اشأم من حادي النجم — وهو اسم آخر له [٢] .

وسنرى أن هذا الكوكب الذي استدبر الثريا ، لم يكتف بان خشيه العرب بل عبده قوم منهم ، كما عبد آخرون غيره من الاجرام .

فالعرب ، كما رأينا ، كان لهم معرفة بالفلك ، وكانت هذه المعرفـة متفاوتة بينهم . « وقد قالوا ان اعلم العرب بالنجوم بنو مارية بن كلب وبنو مرّة بن همام بن شيبان [٣] » . كما كانت عبادة النجوم عنـد قوم اشد منها عند آخرين .

الفصل الثاني : الزهرة

يرى « أمير علي » في كتابه القيّم « روح الاسلام » ان العرب قد عرفوا المذهبين الصابئي والمجوسي ، وقد اشار الى الحميريين بنوع خاص [٤] وكذلك « هومل » في الموسوعة الاسلامية يرى — معتمداً على النقوش — انه كان لعبادة النجوم في ديانة عرب الجنوب مكانة عظيمة [٥] . غير ان هذه المكانة لم تكن مختصة بحمير وسبأ . فقد ذهب بعضهم الى ان ديانة

---

(١) ص ٢٣٧ — ٢٣٨ ج ٣ الآلوسي

(٢) ص ٣٦ ، ص ٤٣ — ٤٤ القزويني

(٣) ص ٣٤١ البيروني

(٤) Ameer Ali : The Spirit of Islam IXVI

(٥) ص ٣٧٩ م ١ Enc. of Islam

العرب عموماً [١] أو حتى ديانة الساميين بكاملهم ، انما كانت بالكلية مرتكزة على عبادة الاجرام ، السماوية . ولا يرى « نلدكه » ذلك ، وان اعترف بان العرب ، دونما ريب ، قد عبدوا الشمس وغيرها من الكواكب كما عبدوا مؤلهات اخرى لا تفسر بانها قوى علوية [٢] .

وفي حديثنا عن العزى قلنا انها الزهرة . ومما ذكره « نلينو » معتمداً على « ولهوزن » اننا نستفيد من المؤلفين السريانيين واليونانيين من القرن الخامس والسادس للمسيح ، ان بعض العرب المجاورين للشام والعراق كانوا يعبدونها عند ظهورها . وكانوا يسمونها اذ ذاك العزى [٣] . وكان « سمث » اوسع منها تعميماً لعبادتها حيث يقول ان الكوكب « Venus » او « Lucifer » لم تكن إلهة قبليّة ، وانما — كما نعرف من مصادر عدة — كانت معبودة عرب الشمال باجمعهم [٤] .

وهنا ، وبهذه المناسبة ، نقول ان للكلدانيين درس السماء الاول . فقد زاولوا علم الهيئة قديماً ، ولم يسبقهم احد اليه . وكانوا قبل نجاحهم في علم الفلك نجاحاً يذكر ، مولعين بعلم التنجيم لكشف اسرار الغيب ، وكانت هياكلهم موضوعة للمراقبات مع العبادة ، ويكفيهم انهم اول من اوجدوا خريطة للاجرام السماوية [٥] . ولا بد ان يكون اعتقادهم في الكواكب اساساً لدرس السماء وما فيه ، فهم قوم من قديم الدهر كانوا « يعبدون الكواكب ويزعمون انها هي المدبرة لهذا العالم ، ومنها تصدر الخيرات والشرور والسعادة والنحوسة ، ويستحدثون الخوارق بواسطة تمزيج

---

(١) وقد ظن البعض — كما يقول المسعودي — ان البيت الحرام نفسه من البيوت التي خططت لعبادة الكواكب السيارة السبع « مروج الذهب — ص ٤٧ ج ٤ »

(٢) ص ٦٦٠ م ١ Enc. Rel.

(٣) ص ١٠٦ علم الفلك : تاريخه عند العرب في القرون الوسطى

(٤) ص ٢٨٢ R. Smith : Religion of the Semites

(٥) راجع ص ٤٣ : النبج القويم في التاريخ القديم لهارفي بورتر و ص ١٤٧ ، ١٤٨ : العصور القديمة لبراستد

القوى السماوية بالقوى الارضية [1] » .

ولقد كشفت اعمال الحفر عن كثير من المباني الكلدانيـة التي ابقت الدهور على بقاياها ، واشهر هذه المباني باب عشتروت الذي كان مكرساً لهذه الألهة . وهو البناء الوحيد في جميع بلاد بابل الذي تستحق بقاياه الذكر والاعجاب [2] .. هذه الألهة التي سماها الهنود مايا وبهاڤاني ، والفرس ميترا ، والفينيقيون عشتروت ، والاشوريون انايتيس ، واليونان والرومان فينوس . واصطلح العرب على تسميتها بالزهرة ، وفي القبطيـة بادخت — ولها اسماء اخرى عديدة تختلف باختلاف الامم التي عرفتها — انما كانت « في الميثولوجيا من اشهر المعبودات واقدمها لأنها إلهة الجمال والحب ، وكانت عبادتها قائمة باستباحة المنكرات وارتكاب القبائح الناشئة عن روح العشق في الطبيعـة البشرية . ولذلك قد اشتهرت بعبادتهـا وانتشرت في اقطار الارض وشاعت بين الامم القديمـة كل الشيوع ، وكانت كل الامم تقيم لها المعابد وتنحت لها التماثيل [3] » . وسبق لبابل ان مثلتها « وهي عشتار الساميين [4] » امرأة حسناء عارية ، الا ان صورتها هذه لم تقتصر على بابل بل عمت العراق القديم وسوريا وفينيقيـة وفلسطين على انها إلهة الحب والفسق [5]

ولا شك في تجاوز الزهرة الى اراضي هومر وفرجيل من السماء السامي بجمالها وما تمتلك من صفات الاغراء . فهي ايضاً كانت بين الرومان إلهة الحب ، والحب الشهواني خاصة [6] . كما كان اليونان يمثلونها امرأة

---

(١) ص ٣٤٢ – ٣٤٣ م ١ ، تفسير القرآن للنيسابوري

(٢) ص ١٤٦ – ١٤٧ براستد

(٣) راجع ص ٢٨٥ م ٩ دائرة المعارف لبطرس البستاني

(٤) راجع ص ١٣٦ ، ٢٣٥ Lewis Spence F. R. A. I : Myths and Legends of Babylonia and Assyria

(٥) ص ٣٤ م ٥ S. H. Langdon : The Mythology of all the World (Semitic)

(٦) ص ١٢٣٩ ج ٣ Smith : Dictionary of Greek and Roman Biography and Mythology

عريانة على صور شتى [١] ، ويحتفلون بعيدها ليلاً تحت اشجـــار الآس في ليالي الثلث الاول من شهر نيسان [٢] . فلا غرابة ، اذن ، في حمـل الزهرة معاني البياض والحسن والبهجة عند العرب [٣] . وقد دعيت ، كما سماها المنجمون بالسعد الاصغر ، لانها في السعادة دون المشتري ، واضافوا اليها الطرب والسرور واللهو [٤] . كما ان النظر اليها يوجب الفرح ، وتخفف عن الناظر اليها احياناً حرارات العشق اذا كان عاشقاً ، كما انها تثير غريزة الجنس . وهي عنـد الضجاع ، اذا كانت جيدة الحـــال ، أوقعت بين المتآلفين من شدة الحب ما يتعجب الناس منه ، وزعموا ان ذلك مجرب [٥] !!. ولقد صورها الفن الميثولوجي الفارسي في الاسلام حسناء تعزف على العود [٦] .

وجميل ما ذكره المفسرون بشأن كوكب الحسن او ملكة السماء ، فهي لا تقتصر فتنتها على بني الانسان ، بل تمكنت من اغراء الملائكة ، وبذلك نمر على نوع رائع من الميثولوجيا لا نشك انـه عرف شيء منه قبل الاسلام ، وان كان محتملاً دخوله الى الجزيرة من اليهود عن طريق مباشر او بغير مباشر [٧] . اما الحديث فسرده في تفسير الآية : « وما كفر سليمان ولكن الشياطين كفروا ، يعلمون الناس السحر ، وما انزل على الملكين ببابل هاروت وماروت [٨] » . وتتلخص قصة فتنة الزهرة لهذين الملكين فيما يلي :

لمـا وقع الناس من بعـد آدم في الضلال ، شرعت الملائكة تطعن في

---

(١) ص ٩٦١ الياذة هوميروس لسليمان البستاني

(٢) ص ٢٨٧ ج ٩ دائرة المعارف للبستاني .

(٣) راجع ص ٢٤٩ ج ٣ : تاج العروس للزبيدي وص ٤٢١ ج ٥ : لسان العرب .

(٤) ص ٢٢ القزويني .

(٥) ص٢٣ القزويني .

(٦) ص ٥٠ Hackin and Others : Asiatic Mythology .

(٧) ص ٧٦ ج ١ انوار التنزيل للبيضاوي .

(٨) القرآن الكريم س ٢ آية ٩٦ .

اعمالهم ، فاراد الله ان يبتلي الملائكة انفسهم ، فامرهم باختيار ملكين من اعظم الملائكة علماً وزهداً وديانة ، فاختاروا هاروت وماروت ، واهبطا الى الارض بعد ان رُكّبت بهما شهوات الانس ، وأمرا ان يعبدا الله ولا يشركا به احداً ، ونهيا عن قتل النفس والزنا وشرب الخمر وغير ذلك من المعصيات .

وفي الارض عرضت لهما امرأة « وهي الزهرة وبالنبطية تسمى بيدخت » جميلة كالزهرة بين الكواكب ، فغلبت عليهما الشهوة فاقبلا عليها وراوداها ، فابت الا ان يكونا على امرها ودينها ، واخرجت لهما صنماً يعبدانه ويسجدان له . فامتنعا ، وصبرا ردحاً ثم اتياها وراوداها على نفسها ، فابت ثانية واشترطت عليهما احدى ثلاث : اما عبادة الصنم ، او قتل النفس ، او شرب الخمر ، فقالا كل ذلك لا ينبغي . ثم احتدمت بهما الشهوة فآثرا اهون المطاليب ، وهو شرب الخمر . فسقتهما حتى اذا اخذت الخمر منهما وقعا بالزهرة ! وهنا يمر بهما انسان فيخشيان الفضيحة فيقتلانه ! ويشاآن الصعود الى السماء بعد ان عرفا وقوعهما في الخطيئة فلا يستطيعان ، ويُكشف الغطاء بينهما وبين اهل السماء فتنظر الملائكة الى ما وقعا فيه من الذنب فيعجبون كل العجب ، ويأخذون بالاستغفار لمن في الارض من البشر !!

ويُروى انها طلبت منهما تعليمها الكلام الذي يصعدان به الى السماء .. فعلّماها ، وعرجت به الى السماء ... وهناك نسيت ما تنزل به فبقيت مكانها ، وجعلها الله ذلك الكوكب الجميل !!

واما هاروت وماروت فخُيّرا بين عذاب الدنيا وعذاب الآخرة فاختارا عذاب الدنيا لانه ينقطع ، فجعلا ببابل يعذبان منكوسين في بئر الى يوم القيامة [1] .

هذه الميثولوجيا لم تكن غريبة قط عن عرب الجزيرة ، والا لماذا كان عبدالله بن عمر كلما رأى الزهرة لعنها وقال هذه التي فتنت هاروت

---

(١) ص ٣٤٣ – ٣٤٦ ج ١ تفسير الطبري و ص ٣٤٦ – ٣٤٧ ج ١ النيسابوري

وماروت [1] . ومما يروى عن نافع قال : سافرت مع ابن عمر ، فلما كان آخر الليل قال يا نافع انظر .. طلعت الحمراء .. واعادهـا مرتين او ثلاثاً . ثم قلت قد طلعت ، فقال : لا مرحباً ولا اهلاً !.. قلت سبحان الله نجم مسخر سميع مطيع ! قال : ما قلت لك الا ما سمعت من رسول الله ﷺ [2] .

فمن هذا الحديث .. ألا نستدل ، وقد تبين ان هذه الخرافة كانت معروفة للنبي – على ان هنالك بين عرب ما قبل الاسلام من كان يتداول قصصاً ميثولوجية ويعتقدها ؟ نعم ان لكل شعب عريق بالقدم – كالشعب العربي – ميثولوجيا خاصة ، وان كان لها اتصال رقيق او وثيق بميثولوجيا الشعوب القديمة الاخرى .

هذا ، وفي الكلام عن المقامات الدينية سنمر على صفـات اخرى للزهرة او عزى العرب . هذه الألهة المجدودة التي كان من حب العرب والآراميين لها ما جعلهم يكثرون من تقدمة القرابين البشرية ارضاء لها [3] .

الفصل الثالث : الشمس والقمر

الشمس : أما وقد اطلنا الحديث عن كوكب الحسن ، فلنتقدم الى جرم سماوي هائل ، لا يقل – ان لم يزد – اهمية عن الزهرة في ديانة العرب ، والساميين عامة . هذا الاله الذي يستبد بالسماء نهاراً فتختفي من امامه بقية الاجرام السماوية ، ونعني به سر الحياة او الشمس .

والشمس ، مع الزهرة والقمر ، تكوّن الثالوث الالهي الرئيسي – كما يعتقد Langdon – (وهو ممن يقولون بان اصل الساميين من جنوب جزيرة العرب) أو الوحيد الذي ابتدأت به الديانة السامية الاولى . وثلاثته

---

(١) ص ٣٤٥ ج١ تفسير الطبري

(٢) ص ٣٤٦ ج١ تفسير الطبري

(٣) ص ٢٥ S. H. Langdon

كما نرى مؤلهات فلكية[1] ، وهو في اعتقاده هذا ، يعتمـــد على نقوش يمنية ، وحضرمية ترجع الى عهد الحضارات الجنوبية المندثرة .

والظاهر ان عبادة الكواكب ما زالت بين عرب حمير حتى هوّدهم ذو نواس . ومن البراهين القديمة التي نستدل منها على عبادة اهل سبأ للشمس ، حديث سليمان والهدهد الذي جاء له بنبأ لم يحط بـه . وهذه البراهين تتلخص بالآيات : « وتفقد الطير فقال مالي لا ارى الهدهـد ام كان من الغائبين ؟ لأعذبنه عذاباً شديداً او لاذبحنه او ليأتيني بسلطان مبين ، فمكث غير بعيد ، فقال أحطت بما لم تحط به ، وجئتك من سبأ بنبأ يقين . اني وجدت أمرأة تملكهم وأوتيت من كل شيء ولها عرش عظيم . وجدتها وقومها يسجدون للشمس من دون الله ، وزين لهم الشيطان اعمالهم فصدهم عن السبيل فهم لا يهتدون . ألا يسجدون لله[2] » ؟ .

وفي شرح كتب التفاسير لتأويل هذه الآيات اخبار لا تخلو من فوائد وخاصة ما يتعلق باتصال سليمان بالملكة بلقيس .

ولم يقتصر تقديس ذاك الثالوث السماوي على عرب الجنوب فقـد كان يتحكم عند البابليين في منطقة البروج ، وهي في نظرهم اهم قســم من اقسام الكون[3] . وقد كانوا منذ القدم يعتبرون الآلهة – وخصوصــاً الشمس – حماة العدل والقانون ، كما ظنوا انها تنتقم من الظالم والمجرم[4] . وكثيراً ما تنشر كتب التاريخ القديم صورة لتمثال حمورابي وهو يستلم دستوره قبل نحو من عشرين قرناً قبل الميلاد ، من الاله الشمس .

ولا غرابة في عبادة الساميين للشمس . ونحن نعلم ان الساميين وغيرهم من الشعوب القديمة ، وكذلك الشعوب المتوحشة في جميع انحاء العالم

---

(١) ص ٢٥ نفس المصدر .
(٢) القرآن الكريم س ٢٧ آية ٢٢ – ٢٥
(٣) ص ١٨٤ م ١ Enc. of Rel.
(٤) ص ٥٢ Carl Clemen : Religions of the World

قد عبدوا القوى الطبيعية التي لها تأثير ، او يظن بان لهـا تأثيراً في حياتهم . وكانت المؤلهات عند الساميين تتألف كالانسان من جسد وروح فظاهر الشمس جسدهـا ، والروح او « البعل » في داخلها فهي شمس وإله معاً[١] ، فاذا عبدوا القوى الطبيعية وشخصوها تدريجياً ، فلماذا لا يعبدون إله الشمس وهو سيد القوى ومانح غلال الارض من ثمـار وحبوب ومالىء مخازنهم بخيرات الحصاد ؟ هـذا الاله لم يكن في العراق وحسب وانما عمت عبادته سوريا وفلسطين[٢] .

والظاهر أن عبادة الساميين للشمس ، او تمكّن هذه العبادة منهم لم تكن عريقة جداً بالقدم . ولربمـا اصطحبت مرورهم بالعصر الزراعي واستقرارهم في الاراضي الخصبة المنتشرة باطراف الجزيرة . ولا بد من الاشارة الى الاله « بعل » الذي عرف أيضاً ببطن الجزيرة ، في الواحات ومساقط الامطار التي كان يؤمها البدو انتجاعاً للماء والكلأ تارة ، وايفاء بنذر ديني تارة اخرى . ومن المسلم به أن الشمس كانت بعل ، او اله اراض معينة ، كما كان القمر رب اور وحران وتدمر ، وكما كان غيره من الكواكب ارباباً لاماكن اخرى[٣]

وقد عبد الشمس قبائل عربية عديدة في الجزيرة ، وشخصوهـا بصنم وخصصوا لهـا هيكلا كما كثر في بلاد العرب وجود الاسماء التي انتسبت لهـا كعبد شمس ، وامرىء الشمس ، وعبد الشارق ، وعبد المحرق ، والاخير ، كما يقول نلدكه ، ربمـا دل على لقب او اسم آخر للاله الشمس[٤] .

ولعبادة الشمس كما يستدل شيخو من A. Layard شواهد راقيـة الى الى القرن السابع قبل المسيح ، فان بين الكتابات التي وجدت في بابل كتابة

---

(١) ص ٢٨٥ م ٢ Enc. of Rel.
(٢) ص ٢٥١ م ٩ نفس المصدر
(٣) ص ٢٨٥ م ٢ نفس المصدر
(٤) ص ٦٦٠ م ١ نفس المصدر

لتغلتفلاسر يذكر فيها انتصاره على مدينة دومة الجندل وظفره بملكتها التي كانت كاهنة للاله شمس [1] . ومما يذكر عن الصنم ذي الشرى ان اسمه كان يعني الاله المنير . وقد اكد المؤرخ استرابون ان النبطيين كانوا يعبدون الشمس كما جاء لهيرودتس ان العرب كانوا يعبدون « اوروتال » وهي لفظة مركبة في اللغات الارامية من كلمتي « نور » و « علا » اي النور المتعالي وارادوا به الشمس [2] .

ومن الشواهد الاخرى على عبادة العرب لهذا النيّر ما يذكره اصحاب المعاجم العربية ، يقول ابن منظور : وشمس صنم قديم . وعبد شمس بطن من قريش قيل سموا بذاك الصنم [3] . وقالوا ان شمساً صنم كان لبني تميم وله بيت . وكانت تعبده بنو أدّ كلها ، ضبة ، وتيم ، وعدي ، وثور ، وعكل . وكانت سدنته في بني اوس [4] . وكان لقوم من عذرة صنم يقال له شمس [5] . وفي تسمية العرب للشمس ، الألهة ، برهان آخر على عبادتها . وقد جاء في بيت شعر لمية بنت ام عتبة بن الحارث – ويروى لغيرها – ذكر ذلك ، قالت :

تروحنا من اللعباء عصرا فاعجلنا الألهة ان تؤوبا

سموها الالهة تعظيما لها لانهم كانوا يعبدونها [6] .

والظاهر ان العرب كانت تطلق « الألهة » على ما كانت تعبده في الجاهلية فهي كما اطلقته على الشمس كذلك اطلقته على الاصنام والهلال [7] .

---

(١) ص ٨ النصرانية وآدابها بين عرب الجاهلية « القسم الاول »
(٢) ص ٩ نفس المصدر
(٣) ص ٤٢٠ م ٧ ابن منظور – لسان العرب . و ص ٢٤٥ – ٢٤٦ الفيروز ابادي – القاموس و ص ١٧٢ – ١٧٣ – تاج العروس م ٤
(٤) ص ٣١٩ م ٣ معجم البلدان
(٥) ص ٢٩٦ م ١ تاريخ ابن واضح اليعقوبي
(٦) ص ٣٦٠ م ١٧ لسان العرب
(٧) ص ٢٨٨ م ٢ القاموس

ولعل في نهي الرسول عن الصلاة عند طلوع الشمس وعند الغروب حافزاً لنا الى الظن بان محمداً خشي ان يتشبه المسلمون بالمشركين فتُعزى صلاتهم في هذه الاوقات الى تعظيم الشمس كما عظمها الجاهليون . قال عبد الله : سمعت النبي ينهى عن الصلاة عند طلوع الشمس وعند غروبها [1] ورووي عن عمر قال : ان المشركين كانوا لا يفيضون حتى تطلع الشمس ويقولون « اشرق ثبير » ، وان النبي خالفهم ثم افاض قبل ان تطلع الشمس [2] .

القمر : « ومن آياته الليل والنهار والشمس والقمر ، لا تسجدوا للشمس ولا للقمر واسجدوا لله الذي خلقهن » [3] . آية نستدل منها على عبادة القمر ايضاً ، والطبري في تأويلها لم يشر الى رواية ما تفيدنا في هذا الخصوص . الا ان الزمخشري في الكشاف يقول : « لعل ناساً منهم كانوا يسجدون للشمس والقمر كالصابئين في عبادتهم الكواكب . ويزعمون انهم يقصدون بالسجود لهما السجود لله فنهوا عن هذا الواسطة وأمروا ان يقصدوا بسجودهم وجه الله تعالى خالصاً » [4] . وعلى اي الوجوه فاننا نرى بها برهاناً من بين البراهين — القليلة — التي تدل على وجود عبادة القمر بين العرب في جاهليتهم . ولقد اشرنا سابقاً الى ان القمر كان احد الاجرام السماوية الهامة التي الّفت الثالوث الالهي الرئيسي ، او الوحيد في ديانة الساميين الاولى . واصبح عند البابليين الذين دعي عندهم بـ « سن » سيد الكواكب السيارة في السماء . وكانت له في « اور » و « حران » و « بابل » مراكز عبادة ، كما كانت سيناء واريحا مزاوات مقدسة له [5] . ولا نشك في وجود معابد اخرى مخصصة له في

---

(١) ص ١٩٠ م ٢ صحيح البخاري

(٢) ص ٢٠٤ م ٢ نفس المصدر

(٣) القرآن الكريم س ٤١ آية ٣٧

(٤) ص ٢٨٩ م ٢ حاجي خليفة — كشف الظنون

(٥) ص ٢٤٨ م ٩ Enc. of Rel.

اماكن شتى... هذا النيّر الذي يجب ان يكون قد لفت انظار الشعوب الفطرية بكاملها منذ البدء وادخل في عقليتها ان له تأثيراً شديداً في الكائنات وفي تصرفات الانسان وغيره من المخلوقات من حيوان ونبات وجماد . ذلك التأثير – كما اعتقد المنجمون فيما بعد – يختلف عند امتلاء القمر عنه عند نقصانه . بل هم يرون ان القوى الطبيعية تقوى بقوة القمر وتضعف بضعفه [1]

وهل اظهر لبدوي الجزيرة من القمر وخاصة في حالة اكتماله عندما يكون بدراً يضيء له مضارب اقدامه في المهامه الموحشة ؟ البدوي الذي ما زالت السماء في حله وترحاله مكشوفة له بأجرامها وشهبها ، يسبح في عرضها القمر ، رامياً بأشعته الفضية قلب الصحراء حيث تمتزج برمالها العسجدية ، فتعكس في نفس ذلك البدوي أنوار الطمأنينة ، وهو يحدو الابل في روعة ليالي الصحراء .

لا بد وان يكون القمر الهاً رئيسياً – كما كانت الشمس – لهذا البدوي الذي طالما ارتكزت ديانته على اسس فلكية علوية [2] . نعم ليس لدينا نص صريح ينوّه بعبادة العرب للقمر الا ما جاء في القرآن ، وما يقال عن عبادة بني كنانة [3] . فعلى ما يظهر ان الخطوط التي تشير الى عبادة القمر عند العرب قد طمست كما طمس الاكثر من آثار الوثنية العربية . غير ان من الثابت ان الحميريين وغيرهم من سكان الجنوب – كما ورد في نقوشهم – قد عبدوا القمر . والثابت ايضاً انه كان من الآلهة الرئيسية عند الصابئة ، اولئك الذين زعموا انه يستحق التعظيم والعبادة ، واليه تدبير هذا العالم السفلي ، واتخذوا له صنماً على شكل عجل ، وبيد

---

(١) ص ١٩ – ٢١ القزويني

(٢) راجع صفحة ٥ Olmstead : History of Assyria

(٣) ص ٢٤٠ ج ٢ بلوغ الارب في معرفة احوال العرب و ص٩ النصرانية وآدابها

الصنم جوهرة ، يعبدونه ويسجدون له [١] . ونحن نعلم ان عرب الجنوب كانوا على اتصال دائم بعرب الشمال ، لا بل ان مستعمرات يمنية قد تأسست في غير مكان واحد من اواسط الجزيرة وشمالها ، كما كانت الطرق التجارية تخترق الجزيرة بكاملها من الجنوب الى الشمال ، ومن الشرق الى الغرب مما ادى الى الاحتكاك الشديد بين العرب على اختلافهم ... ونعلم ايضاً ان من العرب من صبا ، وقد اشرنا سابقاً الى ان هذا المذهب قد عرف في البلاد العربية قديماً .

واذا اتصل العرب بالعبرانيين ايضاً ، فقد شغلت عبادة القمر مكاناً كبيراً في ديانة هؤلاء الاقوام [٢] . كل ذلك مما يؤيد القول ان عبادة القمر كانت معروفة بين اعراب الجزيرة حتى ان بعضهم يزعم ان بنات الله الثلاث مناة واللات والعزى انما هي آلهات القمر ، فمناة : القمر المظلم ، واللات : القمر المنير ، والعزى : الاثنان معاً [٣] .

وقبلا ذكرنا ان الاسم « الآلهة » اطلق على الشمس ، كما اطلق على الاصنام والقمر . وبعد ذلك كله نجد ان بين العرب من انتسب الى القمر كما انتسبوا الى الشمس فكان من احيائهم بنو قمر ، ومن بطونهم بنو قمير [٤]

الفصل الرابع : الدبران والثريا والشعريان

الدبران والثريا : ولم يكتف العرب بعبادة الشمس والقمر ، فانهم عرفوا كثيراً من النجوم والكوكبات وعبدوها . ولقد اكرموا زحل والجوزاء والجبار [٥] . وعبدت بنو لخم وجرهم المشتري ، وبعض طيء

---

(١) ص ٢١٦ ج ٢ الآلوسي

(٢) ص ٢٥١ م ٩ Enc. of Rel.

(٣) Ameer Ali : The Spirit of Islam IXVI

(٤) ص ١٣٣ م ١ القاموس

(٥) ص ١٢ شيخو .

سهيلاً [1] ذلك النجم الذي اذا وقعت عين الجمل عليه مات لساعته [2] وبعض قبائل ربيعة المرزم ، والمرزمان نجمان مع الشعريين [3] ... كما قيل ان عطارد عبد بين عرب بني تميم [4] .

ومن جميل ما يزعمون – وهو من بقايا أساطيرهم الميثولوجية – ان القمر اراد أن يزوج الدبران من الثريا حينما خطبها ، فأبت عليه وولت عنه ، وقالت للقمر ما أصنع بهذا السبروت الذي لا مال له ؟! فجمع الدبران قلاصه يتمول بها فهو يتبعها حيث توجهت ، يسوق صداقها قدامه يعنون القلاص [5] . غير ان العيوق – وهو كوكب احمر مضيء يطلع قبل الجوزاء – عاق الدبران عن لقاء الثريا فسمي بذلك [6] . وقد أشار طفيل الغنوي – وهو من الفحول على رأي أبي الفرج ، ومن أوصف العرب للخيل [7] – الى وفاء الدبران بقلاصه حيث يقول :

أما ابن طوق فقد اوفى بذمته ۔ كما وفى بقلاص النجم حاديها [8]

والنجم في هذا البيت هو الثريا ، وهي كوكبان على كاهل الثور ، نيران في خلالهما ثلاثة كواكب صارت مجتمعة متقاربة كعنقود العنب ... جعلها العرب بمنزلة كوكب واحد وسموها النجم [9] . والبيروني يقول انها تصغير ثروى واصله من الثروة وهو الاجتماع وكثرة العدد . وزعم بعضهم

---

(١) ص ١٨٧ اديان العرب في الجاهلية .

(٢) ص ١٦ م ١ الدميري : حياة الحيوان الكبرى .

(٣) ص ٢٤٠ ج ١ الآلوسي .

(٤) ص ١٠٦ نلينو : علم الفلك – تاريخه عند العرب في القرون الوسطى .

(٥) ص ٣١٢ م ١ الميداني : الأمثال ، وهو نظم الأحدب المسمى « فرائد اللآل في مجمع الأمثال » .

(٦) ص ١٥٣ م ١٢ لسان العرب .

(٧) ص ٨٨ م ١٤ الأغاني .

(٨) ص ٢٧٨ م ٢٠ لسان العرب « وفي القزويني ص ٣٥ : اما ابن عوف » .

(٩) ص ٣٥ القزويني .

انها سميت بذلك لأن المطر الذي يمطر بنوئها تكون منـــه الثروة وهو الغنى ، وتسمى أيضاً النجم [١] .

واما القلاص فهي صغار النوق التي يسوقها الدبران صداقا للثريا ، كما في الاسطورة . وسمي الدبران بذلك لانـه دبر الثريا أي جاء خلفها ، ويقال له ايضاً الراعي ، والتالي ، والتابع ، والحادي [٢] والمجدح [٣] . وهو النير الأحمر العظيم الواقع على عين « الثور » الجنوبية . ومن اسمائه الفنيق . وهو الجمل الضخم ، والتي حواليـه من الكواكب هي القلاص المذكورة [٤] .

هذا وكلا الكوكبين « الدبران » و « الثريا » عد بين الاجرام المؤلهة في الجاهلية ، ولقد عظم الدبران كنانة وقريش بجانب عبادتهما للعزى [٥] . وعبده طائفة من تميم [٦] . والظاهر ان عبادة العرب لهذا الكوكب كانت رهبة منه لا رغبة فيه . فهو كوكب مشؤوم عندهم لا يمطرون – على زعمهم – بنوئه الا وسنتهم جدبة ، ولهذا ضربوه مثلاً في النكد والشؤم فقالوا انكد من تالي النجم [٧] .

ولا غرابة في عبادة الانسان ما يكره احياناً ، وهذه العبادة تكون منبعثة عن رهبته من ظواهر الطبيعة المختلفة ومخلوقاتها الملعونة ، وقديماً عبد الساميون وغيرهم مخاوفهم [٨] كما نسمع اليوم عن القبائل المتوحشة في اواسط افريقيا وغيرها ، وكيف يخشون من حيوان شرس او افعى

---

(١) ص ٣٤٢ الآثار الباقية .
(٢) ص ١٩٩ م ٣ ابن رشيق ، العمدة في صناعة الشعر ونقده .
(٣) ص ٣٤٢ البيروني .
(٤) ص ٣٥ القزويني .
(٥) Ameer Ali IXVI .
(٦) ص ٢٣٩ ج ٢ الآلوسي .
(٧) ص ٣١٢ م ٢ الميداني .
(٨) ص ٢٤٠ م ٩ Enc. of Rel.

قاتلة فيتقدمون لها مختلف العبادات ويبسطون انواع المراسيم .

اما عبادة العرب للثريا فصادرة عن اسباب تختلف كل الاختلاف عن اسباب عبادة الدبران ... قالوا اذا رأيت « الثريا » تدبر فشهر نتاج وشهر مطر ، أي اذا بدأت للغروب مع المغرب فـذلك وقت المطر ووقت نتاج الابل[1] . ولقد عبدها بعض قبائل طيء[2] ونسب لها العرب الاسم « عبد الثريا » وقالوا « عبـد نجم » وسبق ان ذكرنا ان النجم اسم آخر للثريا ... ولا غرابة في تأليههم « الثريا » وهي مانحة الغيث ، وللغيث شأنه في بلاد العرب ، « وجعلنا من الماء كل شيء حي »[3] .

الشعريان : « وانه هو رب الشعرى »[4] ... آيـة اخرى من الآيات التي تشير اشارة لطيفة الى عبادة الكواكب ، والى امكانية اعتبار هذا النجم معبوداً جاهلياً ، وان لم يقتنع نلدكه اقتناعاً كلياً بتفسير الاية حيث يستشف من خلال حديثه شكه في البرهان على عبادة الشعرى[5] .

يقول الطبري ان الشعرى هو ذلك النجم الوقاد الذي يتبع الجوزاء . عبده قوم من العرب في الجاهلية ، فلذلك قيـل لهم أتعبدون الشعرى وتتركون ربها[6] ؟ ويقال ان بني قيس عيلان عبدوا الشعرى[7] . وعلى رأي الزمخشري ان خزاعة كانت تعبد هذا الكوكب بعد ان سن لهم ذلك ابو كبشة . وهو من اشرافهم[8] او كما يقول البيضاوي ، انه احد

---

(١) ٣٥٦ م ٥ لسان العرب .

(٢) ص ٢٤٠ ج ٢ الآلوسي .

(٣) القرآن الكريم س ٢١ آية ٣١ .

(٤) القرآن الكريم س ٥٣ آية ٥٠ .

(٥) ص ٦٦٠ م ١ Enc. of Rel.

(٦) ص ٤١ ج ٢٧ تفسير الطبري .

(٧) Ameer Ali IXVI .

(٨) ص ٣٦٣ م ٢ الزمخشري ، محمود بن عمر : الكشاف عن حقائق غوامض التنزيل .

اجداد الرسول خالف قريشاً في عبادة الاوثان وعبد الشعرى[١] . « وهو اول من عبدها ، وكان يقول الشعرى تقطع السماء عرضاً ولا أرى في السماء شمساً ولا قمراً ولا نجماً يقطع السماء عرضاً غيرها »[٢] .

ولقد يرى « هس » I.Hess ان الشعرى اجنبية وهي متخذة في لغتنا من اللغة اليونانية . ويرى بين براهينه على اجنبيتها كونها غير معروفـــة في بطن الجزيرة العربية فالعرب بدوا وحضرا - كما يقول - كانوا يدعونها المرزم[٣].

ومهما قيل في اصلها فالشعرى قديمة في اللغة العربية . ذكرها القرآن كما رأينا ووردت في الشعر الجاهلي . وهذا الشنفرى لا يكتفي بذكرها بل يشير الى صفة من صفاتها عرفها العرب من قديم ، الا وهي طلوعها في شدة الحر ، كما يذكرون ، وهو يقول في بيت جميـــل من لاميته المشهورة :

ويوم من الشعرى يذوب لوابه أفاعيه من رمضائه تتململ[٤]

والعرب تطلق اسم « الشعريين » عـلى « الشعرى العبور » التي في الجوزاء « والشعرى الغميصاء » التي في الذراع[٥] . وهي تزعم في اخبارها ان الشعريين اختا سهيل حيث كانت ثلاثتهم مجتمعة ، فانحدر سهيل فصار يمانياً ، وتبتعه الشعرى اليمانية عابرة المجرة ، وبذلك سميت عبوراً . وهي ترى سهيلا اذا طلع فكأنها تستعبر ! امـــا الغميصاء فأنها أقامت مكانها وبكت على اثر عبور اختها وراء سهيل ، وذلك لفقدهمـا . وما زالت تبكي حتى غمصت فسميت الغميصاء[٦] .

---

(١) ص ٢٩٥ ج ٢ البيضاوي .

(٢) ص ٦٥ ج ١ الديار بكري ، حسين : تاريخ الخميس في احوال أنفس نفيس و ص ٢٩ القزويني .

(٣) ص ٣٧٦ م ٤ Enc. of Islam .

(٤) ص ٦٥ ، أعجب العجب في شرح لامية العرب للزمخشري .

(٥) ص ٨٤ م ٦ لسان العرب .

(٦) ص ٣٢٩ م ٨ نفس المصدر .

وبما يلحق بهذه الاساطير قولهم ان سهيلاً كان عشاراً على طريق اليمن ظلوماً فمسخه الله كوكباً [1] وانه ركض الجوزاء فركلته برجلها فطرحته حيث هو . وضربها هو بالسيف فقطع وسطها ... كما ان « الجدي » قتل « نعشاً » فبناته تدور به تريده [2] . فهل يختلف ذلك عما كانوا يزعمون من اساطير الميثولوجيا عند اليونان وغيرهم وعما كان يقع بين آلهتهم من حوادث البشر امثال الزواج والحروب . فالعرب ، اذاً ، قد شخصت الاجرام السماوية ، وانزلتها منزلة البشر ، كما الهوها وعبدوها ، وان ضاعت اخبارها كما ضاع الكثير من آثار حياتهم الجاهلية وذلك لعدم تدوينها وحفظها للاجيال .

---

(١) ص ٣٨٤ م ٧ تاج العروس .
(٢) ص ٣١٢ – ٣١٣ م ٢ الميداني .

الباب الرابع

عبادات العرب الأخرى

الفصل الأول : تقديس الانسان والحيوان والنبات

تقديس الانسان : لقد كان مجتمع القربى عندهم اصل المجتمع الديني ، وكل واجبات القربى كانت قسماً من الدين[1] . ولعل في قصة الاصنام الخمسة ، اصنام قوم نوح ، اشارة الى هذا المعتقد ، الم يكونوا قوماً صالحين كما ذكرنا ماتوا فنحتت صورهم وعبدوا ؟ وفي حديث موت عامر بن الطفيل برهان آخر على تعظيم الموتى بين عرب الجاهلية . قال ابو عبيدة : « لما مات عامر بن الطفيل بعد منصرفه عن النبي « ﷺ » نصبت عليه بنو عامر أنصاباً ميلاً في ميل حمى على قبره لا ينشر فيه ماشية ، ولا يرعى ولا يسلكه راكب او ماش » وكان رجل منهم يقال له حيان بن سلمى غائباً ، فلما قدم قال : « ما هذه الانصاب ؟ قالوا : نصبناها حمى لقبر عامر بن الطفيل ! فقال : ضيقتم على أبي علي ! ان أبا علي بان من الناس بثلاث : كان لا يعطش حتى يعطش الجمل ، وكان لا يضل حتى يضل النجم ، وكان لا يجبن حتى يجبن السيل[2] » .

فالعرب ، إذاً ، في تعظيمهم الرؤساء كانوا كشأن غيرهم ممن عظموا الملوك تعظيم العبادة مع فرق ما تستوجبه الحياة ومقتضياتها . وهم ، ما

---

(١) ص ٤٧ ، ٤٨ R. Smith : Religion of the Semites

(٢) ص ١٣٩ ج ١٥ الاغاني .

داموا غير مرتبطين ربطاً وثيقاً بالله ، ولا يجمعهم دين عام كما تجمعهم اواصر القبيلة التي كانت مثال العروة الوثقى بينهم ، فلماذا لا يعظمون ويقدسون سيدها او يرفعونه الى مكانة العبادة ؟ وكان من بين هؤلاء الاسياد من يصبو الى هذه المكانة . سئل ابن الطفيل ، وقد اسلم الناس ، ان يسلم فقال : « والله لقد كنت آليت ان لا انتهي حتى تتبع العرب عقبي فاتبع انا هذا الفتى من قريش [1] ؟! » .

ولقد عاصر عامر بن الطفيل رجل آخر قيل ان بعضاً من القبائل كانت تحج بيته . وهو الزبرقان بن بدر . ينقل الجارم عن السهيلي قوله : « وكان الزبرقان يرفع له بيت من عمائم وثياب وينضح بالزعفران والطيب ، وكانت بنو تميم تحج ذلك البيت [2] » . والزبرقان شاعر جميل – كما في الطبري – اسمه الحصين ويلقب بقمر نجد . وكان من اشراف بني تميم ، وهو القائل مفتخراً ومشيراً الى حج العرب بيته :

نحن الكرام فلا حي يعادلنا منا الملوك وفينا تنصب البيع [3]

غير ان ما حدثونا به عن عمرو بن لحي وعن ابتداعاته الدينية في الجاهلية، لأقرب الى ما نحن في صدده من تعظيم العرب رؤساءهم ، وتقديس زعمائهم . والازرقي في كلامه عن هذا الكاهن يقول انه : « بلغ بمكة وفي العرب من الشرف ما لم يبلغ عربي قبله ولا بعده في الجاهلية ... وكان قد ذهب شرفه في العرب كل مذهب ، وكان قوله فيهم ديناً متبعاً لا يخالف [4] . » على ان منهم من ذهب الى ابعد من ذلك فزعم انه صار « للعرب رباً لا يبتدع لهم بدعة الا اتخذوها شرعة ، لانه كان يطعم الناس ويكسوهم في الموسم ، وربما نحر لهم في الموسم عشرة آلاف

---

(١) ص ١٣٧ ج ١٥ الأغاني .

(٢) ص ١٢٤ اديان العرب في الجاهلية .

(٣) ص ١٧١٢ – ١٣ ، ص ٢٣٥٨ ج ١ تاريخ الطبري .

(٤) ص ٥٨ اخبار مكة .

بدنة ، وكسا عشرة آلاف حلة [1] » . ولا عجب من بدوي ذي دين رقيق او غير ذي دين ان يؤله مثل عمرو بن لحي ... واذا اضفنا الى هذه الاسباب كهانة الخزاعي وانه كان لديه - كما ذكرنا - رئي من الجن ، كان ذلك كافياً لبدوي الجاهلية ان يضع مثل هذا الكاهن - وخصوصاً اذا كان زعيمه - موضع التقديس ، او يرفعه الى مكانة التأليه والعبادة .

تقديس الحيوان : ومن مبتدعات هذا الكاهن عدا تغييره دين ابراهيم - فيما يزعمون - ونصبه الاوثان ، انه كان أول من بحّر « البحيرة » وسيّب « السائبة » ووصل « الوصيلة » وحمى « الحامي » [2] .

« فالبحيرة » ابنة « السائبة » .

« والسائبة » الناقة اذا تابعت ثنتي عشرة اناثاً ليس فيها ذكر سُيِّبت . فلم يركب ظهرها ولم يجز وبرها ، ولم يشرب لبنها الا ضيف ، فما نتجت بعد ذلك من انثى شقت اذنها ثم خُلي سبيلها « وهي البحيرة » مع امها في الابل ، فلم يركب ظهرها ايضاً ، ولم يجز وبرها ، ولم يشرب لبنها الا ضيف .

« والوصيلة » ، الشاة اذا نتجت عشر اناث في خمسة ابطن ليس فيهن ذكر جُعلت وصيلة ، قالوا : وصلت فكان ما ولدت بعد ذلك للذكور بينهم دون اناثهم ، الى ان يموت منها شيء فيشتركون في اكله ذكورهم واناثهم .

اما « الحامي » فهو الفحل اذا نتج له عشر اناث متتابعات ليس بينهن ذكر . عندئذ يحمى ظهره ، ولا يجز وبره بل يخلّى في الابل يضرب فيها ولا ينتفع به بغير ذلك [3] .

---

(١) ص ١٢ ج ١ السيرة الحلبية .

(٢) ص ٥١ السيرة لابن هاشم .

(٣) التفصيلات في تفسير الطبري ص ٥٣ ج ٧ وهنالك اقوال لابن اسحاق وابن هشام لا تختلف في الجوهر عما ذكرنا . ولتراجع في السيرة لابن هشام ص ٥٧-٥٨ .

ولربما تبع هذه الحيوانات المقدسة ما سرق من الماشيـــة ، او ضل والتجأ الى حمى إله من الآلهة العديـدة ، حيث يتمتع بنفس الحرية التي تتمتع بها البحيرة وغيرها ، وهي تعد احيانـاً من ممتلكات الالـه[1] . وفي حديث مـالك بن كلثوم مع سادن صنم طيء ، اشارة الى ذلك . فقد اطرد هذا السادن ، ويقـــال له صيفي ، ناقة لامرأة من كلب ، فطلبها لها جارها الشريف مالك بن كلثوم . فرد عليه السادن بقوله : انها لربك[2] ! .

وفي سورة الانعام وردت آية حديثاً عن هذه الحيوانات المقدسة وما يرون فيها : « وقالوا هذه انعام وحرث حِجر لا يطعمها إلا من نشاء ، بزعمهم ، وانعام حرمت ظهورها ، وانعـــام لا يذكرون اسم الله عليها[3] » . والبيضاوي يقول ان معنى حِجر « حرام » والمراد بمن نشاء « خدم الاوثان والرجال دون النساء » والتي حرمت ظهورهـا هي « البحائر والسوائب والحوامي » وهم لا يذكرون اسم الله عليهـــا « في الذبح » « وانما يذكرون اسماء الاصنام »[4] . ومن المعلوم انه ورد في المائدة ما انكر عليهم اعتقادهم هذا وهو : « ما جعل الله من بحيرة ولا سائبة ولا وصيلة ولا حام »[5] .

ويظهر من حديث مالك بن كلثوم المذكور ان هذه الأبل المحرمـة كانت تحل احياناً ، فقد بوأ مالك للسادن بالرمح عندما قال له انهـــا لربك ، واخذ الناقة ثم ارجعها حلالا الى جارته . ويروى انه أغير يوماً على أبل (لجرية بن اوس) واطردوها غير ناقة فيها مما يحرّم اهـــل

---

(١) ص ١٤٩ Smith : Relgion of the Semites

(٢) اطلب الحديث في ص ٦٠ من كتاب الاصنام

(٣) القرآن الكريم س ٦ آية ١٣٩ .

(٤) البيضاوي ص ٣١١ ج ١ .

(٥) القرآن الكريم س ٥ آية ١٠٢

الجاهلية ركوبه . وذهب القوم في الابـــل غير تلك الناقه الحرام فانهم أخرجوها ، وكرهوا ان تكون في الابل . وبلغ « جرية » الخبر فقال لابن أخته : رد علي الناقة لعلي اركبها في اثر القوم ، فقال : انهـــا حرام . وعندئذ قال « جرية » : « حرامه يُركب من لا حلال له » ... وركبها في اثر الابل فانقذها ، واصدر قوله مثلاً [1] .

ولقد مر معنا الكلام عن غزالي مكة اللذين اكتشفها عبد المطلب في زمزم ، وعلمنا ايضاً ان هنالك عــدداً في قائمة الآلهة العربية يحمـل اسماء حيوانات كاسد ، وعوف ، واليعبوب ، ونسر ... والاخــير – وهو طير – يذكرنا بتقديس العرب حمام مكة المحرم ... حتى انهم اوجدوا هنالك إله دعوه « مطعم الطير » نصبوه على المروة ، كما ان هنالك بين الاصنام ما كان يهدى له الشعير والحنطة [2] .

والحقيقة ان معلوماتنا المبنية حتى اليوم على الروايات في هـذا الشأن ضئيلة جداً ، فلا نكاد نعلم شيئاً عن ميزات تلك الحيوانات الدينيـة ، وشعائرها ، على انه بيّن ان فكرة نزول هذه الحيوانات زبائن او ضيوفاً على الآلهة لم تكن غريبة عن العقلية العربية . وان اطعامها كان عملاً دينياً في كثير من الانظمة الوثنيـــة ، وخصوصاً في مصر حيث كانت حتى الكلاب تعظم وتأكل أكلا مقدساً . وهـــل أنوبيس الاله سوى كلب مقدس [3] ؟

لا ندري إذا كانت حيوانات العرب المقدسة في الجاهلية قد ارتفعت الى مكانة هذا الكلب ؟! او الى مكانة عجل بني اسرائيل الذي ورد ذكره في الكتاب ؟ « واتخذ قوم موسى من بعده من حليهم عجـــلا

---

(١) يراجع ص ١٩ امثال العرب للضبي .

(٢) ص ٧٨ اخبار مكة .

(٣) يراجع ص ٢٢٥ – ٢٢٦ Smith : Religion of the Semites

جسداً له خوار »[1] . غير ان الجارم ينقل عن السهيلي من حديثه عن قدوم وفد طيء على الرسول ما ملخصه : خرج نفر من طيء يريدون النبي بالمدينة وفوداً ، فلما وصلوا عقلوا رواحلهم بفناء المسجد . ودخلوا فجلسوا قريباً من النبي حيث يسمعون صوته . فلما نظر اليهم قال : اني خير لكم من العزى ولاتها ومن الجمل الاسود الذي تعبدونه من دون الله . وفي نفس المصدر حديث عن عمرو بن حبيب واغارته على بني بكر حيث أصاب سقباً كانوا يعبدونه من دون الله ، ونحره اغاظة لهم وأكله [2] . فاذا صح ذلك ، كانت العرب قد ضربت في هذا النوع من الدين الطوطمي بسهم وافر .

والطوطم ، او الحيوان المقدس Totem لم يعد مطلقاً لغذاء إلا في حالات دينية استثنائية نادرة ، حيث تنتعش حياة القبيلة وتتجدد باشتراكها مع الآله في قسمة هذا الحيوان . وسيأتي معنا انهم كانوا يتناولون لحم العتيرة بينما يكتفي الرب بالروح او بالدم الذي يراق على رأس النصب او الصنم .

فالطوطمية Totemism قد عرفت — كما يرى البعض — بين بعض القبائل معتمدين على وجود افراد وعشائر دعوا باسماء الحيوانات ، والحقيقة ان العرب سمت باسماء الحيوانات كما سمت باسماء الطير والزواحف والهوام فكان بينهم عنبس ، وحيدرة ، واسامة ، وهرثمة « بمعنى الاسد » وكان بينهم اوس ، وذؤالة ، ونهشل « بمعنى الذئب » وكذلك كلثوم « الفيل » والحنش والاراقم « الحيات » . وكان من بينهم هوزة « القطاة » والقطامي « الصقر » واليعقوب « ذكر الحجل » والهيثم « فرخ العقاب » وعكرمة « الحمامة » وكذلك جندب « الجرادة » والذر « أصغر النمل »

---

(١) القرآن الكريم س ٧ آية ١٤٧ ولتراجع س ٢ آية ٤٨ ، ٥١ ، ٨٦ ، ٨٧ وس ٤ آية ١٥٢ وس ٧ آية ١٥١ وس ٢٠ آية ٩٠ .

(٢) ص ١٢٤ اديان العرب في الجاهلية

والعلس « القراد » والفرعة « القملة » وغيرها [١] .

أما نحن فلا نعلم حتى اليوم علم اليقين لماذا سميت الافراد والقبائل بمثل هذه الاسماء وبهذا لا نجرؤ على الحكم الجازم بوجود الطوطمية ، وان يرى القائلون بها حالات عديدة تؤكد هذا الوجود وتثبت ان الحيوان والرجل انما كانا اخوة بالدم [٢] . ولقد رد زيدان على هؤلاء في كتابه الصغير أنساب العرب [٣] فليراجع .

تقديس النبات : ولم يكن تقديس الاشجار بين عرب الجاهلية باقل من تقديس الحيوانات ونخص بالذكر شجرة النخيل التي كانت تؤلف قواماً من مقومات حياتهم ، والتي لا بد ان تكون قد عبدت [٤] وقدست لهذه الميزة .

وليس بعيداً ان ينشأ في بلاد اعظمها عقيم أجرد صحراوي ، شيء من تعظيم الاشجار والحج اليها في ظروف مباشرة وغير مباشرة ليؤدى لها نوع من العبادة والتقديس . ونعلم ان الواحات ومساقط الامطار التي كانت تساعد على ان تكون مراكز تجارية يوم كانت الصحراء قبل اجيال من الاسلام طريقاً هاماً للتجارة الشرقية ، لا بد وان تكون اماكن عبادة ايضاً يحج اليها من الاطراف . ويذهب Smith الى ابعد من ذلك فيقول ان تقدم الشعائر الدينية لم يكن مديناً الى البدو الاقحاح ، وانما لهذه المستعمرات الزراعية والتجارية — من سامية ويمنية وآرامية — والتي لا يفدها البدو إلا كحجاج يؤدون فرضاً دينياً او يوفون بنذر [٥] .

---

(١) يراجع ص ٧٠ - ٧٤ ادب الكاتب

(٢) Enc. of Rel. ٢٥١ ج ٩

(٣) قبل قراءة زيدان يستحسن مراجعة :

R. Smith Kinship and Marriage in Early Arabia

(٤) ص ١٠٩ R. Smith : Religion of the Semites .

(٥) ص ١٠٩ نفس المصدر .

واكبر دليل على تقديس العرب للاشجار حديث الخليفة الراشد ابن الخطاب في شأن شجرة الحديبية . فلقد بلغه – على ما ذكر ياقوت – ان الناس يكثرون قصدها وزيارتها والتبرك بها فخشي ان تعبد كما عبدت اللات والعزى ، فامر بقطعها واعدامها فاصبح الناس فلم يروا لها اثراً . والشجرة هذه هي المعنية بالآية : « لقد رضي الله عن المؤمنين إذ يبايعونك تحت الشجرة » [1] . ومن تفسير البيضاوي للآية يفهم ان هذه الشجرة كانت سمرة او سدرة [2] .

وابن اسحاق في كلامه عن ابتداء وقوع النصرانية بنجران يقول : « واهل نجران يومئذ على دين العرب يعبدون نخلة طويلة بين اظهرهم لها عيد كل سنة اذا كان ذلك العيد علقوا عليها كل ثوب حسن وجدوه وحلي النساء ثم خرجوا اليها فعكفوا عليها يوماً » [3] .

ولم تكن هذه العبادة لتقتصر على اهل نجران وغيرهم من سكان الجنوب ، فقد جاء في السيرة أيضاً : « وكانت لكفار قريش ومن سواهم من العرب شجرة عظيمة خضراء يقال لها ذات أنواط يأتونها كل سنة فيعلقون اسلحتهم عليها ويذبحون عندها ويعكفون عليها يوماً » [4] . وقال الحارث بن مالك الليثي ، وكان فيمن خرجوا مع الرسول الى حنين : خرجنا مع الرسول الى حنين ونحن حديثو عهد بالجاهلية ، فرأينا ونحن نسير معه سدرة خضراء عظيمة ، فتنادينا من جنبات الطريق : يا رسول الله اجعل لنا ذات انواط كما لهم ذات انواط ! فقال الرسول : الله اكبر ! قلتم ، والذي نفس محمد بيده ، كما قال قوم موسى لموسى

---

(١) القرآن الكريم س ٤٨ آية ١٨ .

(٢) ص ٢٦٩ ج ٢ البيضاوي .

(٣) ص ٢٢ السيرة لابن هشام . وانظر تاريخ الطبري ص ٩٢٢ ج ١ .

(٤) ص ٨٤٤ السيرة لابن هشام .

اجعل لنا إلهاً كما لهم آلهة [1] .

وكذلك حديثنا عن العزى لم يخل من الاشارة الى ان العزى كانت تعبد بشجرة مقدسة ، او كانت هي نفسها شجرة ...

ومن المفيد ان نشير بهذه المناسبة الى انه كان لعبادة الاشجار بين السريان الوثنيين مكانة عظيمة ، كما انها كانت عامة في بلاد اليونان الذين تحدثت اساطيرهم عن تحول الآلهـة الى اشجار ، او عن نمو الشجر في دماء الآلهة [2] .

وعلى ما يظهر ان تقديس الاشجار قد استمر شيء منه في بلاد العرب حتى ايامنا هذه . يأخذ سمث عن Doughty [3] ان هذه الاشجار المقدسة تسمى عندهم « مناهل » ينزلها الملائكة او الجن حيث تسمع فيها راقصة او مغنية ! ومن الخطورة بمكان عظيم ان يقطع ولو غصن صغير منها . وهي تعظم بتقديمهم لهـا الضحايا ، وتعليقهم قسماً من اللحوم عليها ، وكذلك الخرز والمزق . ومما يذكر انها تشفي المريض اذا نام تحتها ، حيث يرشد وهو نائم الى طريقة يستعيد بها صحته [4] .

الفصل الثاني : القول في جملة معتقدات

عود على بدء : في كلامنا عن عبادة الاحجار فيما سبق ذكرنا ان قسماً من العرب في الجزيرة كان يدين بشريعة ابراهيم التي تلقوهـا من ابنه اسماعيل ... ذلك النبي الذي اعطى للعرب الحجازيين اسمـه ونشر بينهم دينه حيث آمنوا بالله الواحد ، وبالبعث ، وقاموا بالفرائض وتعظيم البيت والعمرة والحج اليه والطواف به . والسعي بين الصفـا والمروة

---

(١) ص ٨٤٤ السيرة لابن هشام . راجع اخبار مكة ص ٨٢ – ٨٣

(٢) ص ١٨٦ ، ١٩١ Religion of the Semites .

(٣) ص ٤٤٨ جـ ١ : Travels in Arabia Deserta

(٤) ص ١٨٥ – ١٨٦ . Rel. of the Semites

والوقوف على عرفة ومزدلفة وهدي البدن والاهلال وغير ذلك من المناسك الدينية . وحري ان ينكر عبادة الاحجار من كان مثل الحنيفية دينه وان يأنف من تجسد الاله في صخر اصم .

ثم قلنا ان كلا من الديانتين اليهودية والنصرانية قد عرف في الجزيرة قبل الاسلام بكثير ، وأشرنا الى وجود افراد بين العرب انفسهم كانوا على شيء من البصيرة في الاديان على ما يظهر ، فاعترفوا بوجود الله وسفهوا عبادة الاحجار وإن لم يعرف عنهم انهم كانوا على دين .. وتخلصنا بعد ذلك كله الى حديث الحجارة المؤلهة من اصنام وأوثان وانصاب ، وأفضنا بشرح الكثير من آلهة العرب قبل الاسلام .

على اننا اذا رجعنا الى القرآن نستفسره عن شأن عبدة الاصنام ، افدنا ان قسماً كبيراً منهم كانوا يعتقدون بعبادتهم الاصنام عبادة الله تعالى : « والذين اتخذوا من دونه اولياء ما نعبدهم إلا ليقربونا الى الله زلفى »[1] ، وفي اخرى : « وما يؤمن اكثرهم بالله إلا وهم مشركون »[2] . وقد مر معنا كيف ان قريشاً كانت تطوف بالكعبة وتقول : واللات والعزى ، ومناة الثالثة الاخرى ، فانهن الغرانيق العلى ، وان شفاعتهن لترتجى .

والآيات التي تثبت إيمانهم بان الله خالقهم وخالق السموات والارض وانه مدبر امور الكون ، كثيرة . وعليه نرى ان هذه المعتقدات حجة بيد من قالوا ان العرب كانت على دين اسماعيل ثم سلخ بهم الى عبادة الحجارة طول الامد والبعد عن زمن النبوة ، ونزوحهم عن مكة وانتشارهم في البلاد . وعظيم الاحتمال – إن كانوا كذلك – ان لا يؤدي بهم الحدثان الى نسيان كل ما كانوا عليه . فقد عبدوا الاصنام ، وفيهم بقايا من عهد اسماعيل وابراهيم يتنسكون بها .

---

(١) القرآن الكريم س ٣٩ آية ٤ .
(٢) القرآن الكريم س ١٢ آية ١٠٦ .

انكار الرسل : وكما اشرك عبّاد الاصنام بالله آلهة اخرى ، كذلك جحد الكثيرون ارسال الرسل . وكيف يكون هـذا النبي او ذاك مرسلاً من عند الله ، وهو بشر مثلهم يأكل ويشرب وينام ؟! ان البدوي بما يؤثر عنه مـن صعوبة الانقيـاد وضعف الشعور الديني – بالنسبة الى كرامته الفردية والقبلية – والتفاني في الحرية الشخصية ، ليصعب عليه الانصياع الى رجل مثله يطلب منه الطاعة التامة ، وهدم الكثير مما كان عليه من المعتقدات والعادات اجيـالاً ، وليجدر به ان يجحد ارسال مثل هذا الرجل !! فهو يستصغر نفسه ان يُبعث اليه بشر رسولاً .. فإما Superhuman وإلا فلا ! وقد جاء في القرآن : « وما منع الناس ان يؤمنوا إذ جاءهم الهدى الا ان قالوا أبعث الله بشراً رسولاً »[1] .. « وقالوا ما لهذا الرسول يأكل الطعام ويمشي في الاسواق لولا انزل اليه ملك فيكون معه نذيراً . او يلقى اليه كنز او تكون له جنة يأكل منها وقال الظالمون ان تتبعون إلا رجلاً مسحوراً »[2] .

انكار البعث : وكذلك انكروا البعث . فان عقلية البدوي البسيطة لم يكن بوسعهـا ان تؤمن بحياة اخرى ، وخيالهم لم يتسع الى تصور نشر جديد بعد ظلمة القبر وفناء الجسد بمواد الارض وصيرورته هيولى جديدة . وقد ورد شيء في اشعارهم يشك بالبعث ، قال شداد بن الاسود الليثي من قصيدة يرثي بها مشركي قريش يوم بدر ، وكان نفسه قد اسلم ثم ارتد :

يخبرنا الرسول بان سنحيى   وكيف حياة اصداء وهام[3]

وفي هذا الشك يقول شاعر جاهلي :

حياة ثم موت ثم بعث   حديث خرافة يا ام عمرو[4]

---

(١) القرآن الكريم س ١٧ آية ٩٦ .
(٢) القرآن الكريم س ٢٥ آية ٨–٩ .
(٣) ص ٥٣٠ – ٥٣١ السيرة لابن هشام .
(٤) ص ٥٢٧ ج١ محيط المحيط لبطرس البستاني و ص ٣٥٧ ج٧ دائرة المعارف لبطرس البستاني .

وقال الكتاب على لسان هؤلاء القوم : « أئذا متنا وكنا ترابـاً وعظاماً أئنا لمبعوثون . او آباؤنا الاولون » [1] . ولعـل في حديث الهامة واعتقادهم بها شيئاً من الاعتقاد في التناسخ وتنقل الارواح . ولقد انكر الرسول عليهم معتقدهم بها فقـال في حديث له : لا هامة ولا عدوى ولا صفر [2] . أما من كان على دين في الجاهلية ، فلا يعتقد ان البعث حديث خرافة ، بل يؤمن بالله واليوم الآخر . وهذا امية بن أبي الصلت يذكر الجنة والنار فيقول في قصيدة :

هما فريقـان فرقة تدخل الجنة حفت بهـا حدائقها

وفرقة منهم قد ادخلت النار فساءتهم مرافقهـا [3]

عبادة الجن والملائكة : هـذا ، ولم يكتف العرب بالدين الفتشي : بعبادتهم مواليد الطبيعـة من انسان وحيوان ونبات وجماد ، بل امتد اعتقادهم الى ما فوق الطبيعة فعبدوا الجن والملائكة . وشاهد ذلك مـا جاء لابن الكلبي في قوله : « وكانت بنو مليح من خزاعة — وهم رهط طلحة الطلحات — يعبدون الجن » [4] . وفيهم نزلت الآية : « ان الذين تدعون من دون الله عباد امثالكم ، فادعوهم فليستجيبوا لكم إن كنتم صادقين » [5] . وقد نزلت آيات كثيرة في الجن وعبادتها ، منهـا : « بل كانوا يعبدون الجن اكثرهم بهم مؤمنون » [6] . « وجعلوا لله شركاء الجن » [7] . « ويوم يحشرهم جميعـاً يا معشر الجن قد استكثرتم مـن

---

(١) القرآن الكريم س ٣٧ آية ١٦، ١٧ وانظر س ٣٧ آية ٥١ و س ٥٦ آيـة ٤٧، س ٢٣ آية ٨٤ .

(٢) س ١٦٦ ج ٧ صحيح البخاري .

(٣) س ٢٢٥ ج ٢ البداية والنهاية .

(٤) س ٣٤ كتاب الاصنام .

(٥) القرآن الكريم س ٧ آية ١٩٣ .

(٦) القرآن الكريم س ٣٤ آية ٤٠ .

(٧) القرآن الكريم س ٦ آية ١٠٠ .

الانس »[1] . وفي غيرها مع روايات تفسيرها اخبار لا تخلو من فائدة . وكذلك ما يذكرون في تفسير الآية : « وانه كان رجال من الانس يعوذون برجال من الجن »[2] .

وأما عبادة الملائكة فشاهدها قول قرشي للرسول : « نحن نعبد الملائكة وهي بنات الله »[3] . وقال تعالى : « ويوم يحشرهم جميعاً ثم يقول للملائكة اهؤلاء اياكم كانوا يعبدون »[4] . « ويوم يحشرهم وما يعبدون من دون الله فيقول أأنتم اضللتم عبادي ام هم ضلوا السبيل »[5] .

ونكتفي بهذه الآيات شواهد على عبادة الملائكة . وسنرجع الى الحديث عن الملائكة والجن فيما بعد . ولقد مررنا بعبادتهم النجوم ، واعتقادهم بها كما اعتقدوا بالجن والملائكة قوى فائقة الطبيعة . وهم في عبادتهم لهذه المخلوقات اما طوعاً لانها تدير – على زعمهم – حركات الكون وتدبر شؤون العالم ، واما كرهاً لخوفهم من غضبها او من الارواح الشريرة . ومن الجن والعفاريت من يلقي الرعب حتى في نفوس الكثيرين من رجال اليوم !

الظواهر الطبيعية : ولقد تلقي ظواهر الطبيعة الرهبة في النفوس ايضاً فتعبد . ومما يروى ان قسماً من العرب قد عبد البرق . وهم – كما في السيرة – بنو عدي ، انما سموا ببارق لانهم تبعوا البرق[6] . ويمتنع المطر فتقدم انواع الشعائر لاستنزاله . يقول لامنس : « وكذلك القول عن صلاة الاستسقاء وعن الميزة او الكرامة التي اختص بها بعضهم من استنزال المطر زمن الجدب ، وهي ميزة يبررها عادة كون صاحبها

---

(١) القرآن الكريم س ٦ آية ١٢٨ .
(٢) القرآن الكريم س ٧٢ آية ٦ .
(٣) س ١٨٩ السيرة لابن هشام وانظر كذلك س ٢٣٦، ٢٣٧ .
(٤) القرآن الكريم س ٣٤ آية ٣٩ .
(٥) القرآن الكريم س ٢٥ آية ١٨ .
(٦) س ٦٧ السيرة لابن هشام .

يحفظ بيت القبيلة وقبتها ، وللبيت والقبة مركزها الاسمى في هـذه الادعية الحافلة » [١] .

وقد جاء في البخاري عن عبيد الله سمع ابن عباس يقول : « خلال من خلال الجاهلية الطعن في الانساب ، والنياحة ، ونسي الثالثة . قـال سفيان : ويقولون انها الاستسقاء بالانواء » [٢] . وترى في الآلوسي شيئاً من عاداتهم في الاستسقاء اذا أجدبت الارض وأمسكت السماء [٣] .

ومن المفيد هنا ان نشير الى ان منهم من نهى في الاسلام عن اضافة « قوس » الى « قزح » . روي عن ابن عباس قال : لا تقولوا قوس قزح فان قزح اسم للشيطـان . ولكن قولوا قوس الله [٤] . ويفهم من ياقوت ان قزح كان اسماً يطلق على جبل قرب المزدلفة [٥] بالحجـاز . وجاء بالفيروز ابادي ان قزح اسم ملك موكل بالسحاب [٦] . فهل نستبعد ان يكون قزح الهاً من بين آلهة العرب العديدة ؟ وليس غريباً ان يكون اله العواصف ، فهو وان لم تزدهر شعائره – على رأي « نلدكه » – حيث فقد جميع مميزاته على ما يظهر في اواخر العصر الجاهلي ، الا انه كان قد عبده الادوميون من قبل [٧] .

هذا ، ولا يعجب الانسان ان يكون للمطر – وهو سر حياتهم – اله جدير بالعبادة . وعلى ذلك نرى Smith يعتقد بان النيران التي كانت توقدها قريش في المزدلفة [٨] انما كانت نيران الاله قزح المقدسة [٩] .

---

(١) مجلة المشرق م ٣٧ ع ٢ ص ٢٣٨ .

(٢) ص ٢٢١ ج ٤ صحيح البخاري .

(٣) ص ٣٠١ ج ٢ الآلوسي .

(٤) ص ٨٦ ج ٤ معجم البلدان وص ٩٠ ج ١ نهاية الأرب للنويري .

(٥) ص ٥٢٠ ج ٤ معجم البلدان .

(٦) ص ٢٦٤ ج ١ القاموس للفيروز ابادي .

(٧) ص ٦٦١ ج ١ Enc. of Religion

(٨) يراجع ص ٨٥ ج ٤ معجم البلدان وص ٦٦٩ ج ١ Enc. of Rel.

(٩) ص ٣٤٢ Religion of the Semites

النــار : وتقودنا نار الاله قزح الى الاشارة بان عبادة النار لم تكن مجهولة لدى بعض اعراب الجزيرة . فقد عبدها اناس فيها وهم على رأي الآلوسي – أشتات من العرب ، ربما سرى اليهم ذلك من الفرس والمجوس [1] . ويقول ابن قتيبة ان المجوسية كانت في تميم ، ويذكر اسماء بعض من كانوا يدينون بها [2] . وفي كتـاب الحيوان للجاحظ تفصيلات ومعلومات عن النار ، وكذلك في نهاية الأرب للنويري حديث عام في النار ، واسمائها وعبادها وبيوتها مما لا حاجة لنا به ، الا ما جاء على ذكر نيران العرب العديدة . ولا نشير هنا الا الى ثلاث منها وهي : نار الاستسقاء ، ونار التحالف ، ونار الحرتين .

كانوا يشعلون مواد نباتية سريعة الاحتراق ، يعلقونها باذناب البقر بعد ان يصعدوا بها الى جبل وعر . وكان هذا العمل ، في زعمهم ، سبباً من اسباب نزول الغيث . هذه هي نار الاستسقاء التي كانت تصطحب بضجيج من الادعية والتضرع .

واما الثانية ، وهي نار التحالف ، فكانوا لا يعقدون حلفهم الا عليها . يطرحون فيها الكبريت والملح . ومما جاء في « أيمان العرب في الجاهلية » قال ابو عبيدة : « كانوا في الجاهلية الاولى اذا تحـالفوا وتعاهدوا ، اوقدوا ناراً ودنوا منها حتى تكاد تحرقهم . وعددوا منافع النار ودعوا على ناقض تلك اليمين ، والناكث لذلك العهد ، بحرمان تلك المنافع ، ويتصافحون عندهـا ، ويقولون : ، الدم الدم والهدم الهدم ، والمعنى دماؤنا دماؤكم وهدمنا هدمكم ، والهدم اسم البنـاء المهدوم ، اي فما هدم لكم من بناء او شأن فقد هدم لنا ، وما اريق لكم من دم فقد اريق لنا ، يلزمنا من نصرتكم ما يلزمنا من نصرة انفسنا .

---

(١) ص ٢٣٣ ج ٢ الآلوسي .

(٢) ص ٢٩٩ كتاب المعارف لابن قتيبة . « وقد قال العلماء ان المجوسية كان يدين بها بعض العرب في البحرين » ص ٤٣٨ ج ١ الكامل في التاريخ لابن الأثير .

وعبروا على استعمال ذلك يتوارثونه ، الى ان اتى الله تعالى بالاسلام ، وكان الحلف بين رسول الله صلى الله عليه وسلم وبين الانصار ، فقال صلوات الله وسلامه عليه لهم : « الدم الدم والهدم الهدم .

وربما دنوا من النار حتى تكاد تمحشهم ، او تكاد تحرقهم . ويهولون بها على من يستخف بحقوقها ، ويتوعدونه بحرمان منافعها ومرافقها ، وفي ذلك نكد العيش وحرمان الحياة .

ويسمون الرجل القيم بامر تلك النار « المهول » وقد ذكرته الشعراء ، قال الكميت :

كهولة ما اوقد المحلفون لدى الحالفين وما هولوا

وقال اوس بن حجر ، وذكر عيرا قائماً فوق نشز :

اذا استقبلته الشمس صد بوجهه كما صد عن نار المهول حالف

وكان من شأنهم اذا تحالفوا ان يغمسوا ايديهم بالدم » [1] .

غير ان نار الحرتين التي اطفأها خالد بن سنان [2] كانت على ما يظهر احفل نيران العرب كلها بالخرافات . وهي في بلاد عبس . زعموا انه كان يخرج منها عنق فسيح مسافة ثلاثة او اربعة اميال ، لا تمر بشيء الا احرقته .. الى ان كان من امر خالد بن سنان ما كان حيث اخذ من كل بطن من بني عبس رجلا وخرج بهم نحوها ، وقد خرج منها عنق كأنه عنق بعير ، واحاط بهم فقالوا : هلكت والله اشياخ بني عبس آخر الدهر . فقال خالد كلا ! وجعل يضرب ذلك العنق ويقول : « بَدّاً بَدّاً ، كل هدي الله يؤدى ! انا عبد الله خالد بن سنان » فما زال يضربه حتى رجع وهو يتبعه والقوم معه كأنه ثعبان يتملك حجارة الحرة حتى انتهى الى قليب ، فانساب فيه فدخل عليه خالد ، فقال ابن عم له : لا ارى خالداً يخرج اليكم أبداً ... فخرج خالد ينطف عرقاً !!

---

(١) ص ٢٩–٣١ ايمان العرب في الجاهلية وراجع ص ٦ ج ٣ الحيوان للجاحظ .
(٢) راجع ٢٧٠ ج ١ الكامل في التاريخ .

وفي هذه النار يقول الشاعر :

كنـــار الحرّتين لها زفـير   تصم مسامع الرجل السميع [1]

ولا عجب بهذه الخرافة عندهم ، فقد زعم بعض البربر النـازلين بمصر ان خالد بن سنان هذا كان نبياً ، وكانوا ينزلون بالفسطاط بمصر عـلى كعب بن يسار بن ضبة العبسي ، ويعظمونه زاعمين ان اباه هو خـالد ابن سنان المذكور الذي بعث اليهم [2] . ومما يروى عن خالد هذا انـه قال لما حضرته الوفاة : اذا دفنتموني فاحضروا بعد ثلاث فانكم ترون بعيراً ابتر يطوف بقبري ، فاذا رأيتم ذلك فانبشوني ، اخبركم بمـا هو كائن الى يوم القيامة . ويزعمون ان بنته لما قدمت على النبي سمعت : « قل هو الله احد » فقالت : كان أبي يتلو هذه السورة ! وأكثر من ذلك ما رووا ان النبي قال عنها : هذه بنت نبي ضيعه قومه ، وبسط لها رداءه [3] .

« وكانت في اليمن فيما يزعم اهل اليمن نار تحكم بينهم فيما يختلفون فيه ، تأكل الظالم ولا تضر المظلوم [4] »... فهل بعد هذا شك في مكانة النيران وتقديسها بين بعض العرب في الجاهلية ؟

وحديث النار يدعونا الى الاشارة الى المحرّق . وهو على رأي ياقوت صنم كان بسلمان لبكر بن وائل وسائر ربيعة . وكانوا قد جعلوا في كل حي من ربيعة له ولداً [5] . وهذه الرواية هي التي دفعت « ولهوزن » الى الاعتقاد بأن ضحايا بشرية كانت تقدم للنيران في الجزيرة . وقـد شك « نلدكه » في ذلك [6] . والعرب سمّت باسم هذا الصنم ، وكان

---

(١) ص ١٠٦،١٠٧،١٠٩–١١٠ : ج ١ النويري .

(٢) ص ١٩٣ ج ٣ معجم البلدان .

(٣) ص ٢٧٨ ج ٢ محاضرات الادباء للراغب الاصبهاني .

(٤) ص ١٧ السيرة لابن هشام .

(٥) ص ٤٢٥ ج ٤ معجم البلدان .

(٦) ص ٣٦٤ R. Smith. Religion of the Semites

عمرو بن هند يدعى محرّقاً . يقول الضبي لأنه احرق اليمامة [1] . ولا غرابة في تسمية ابن هند بالمحرق ، فقد روى ابو الفرج انه أقسم علـى اثر حادثة ليحرقن مائة رجل من بني حنظلة ، فأمر بحفر اخدود وأضرم فيه النار ورمى بها اولئك المساكين [2] .

(١) ص ٦٨ امثال العرب للضبي .
(٢) ص ١٢٩ جـ ١٩ الاغاني .

الباب الخامس

المقامات الدينية

الفصل الأول : تحفظ وتمهيد ـ مكة والكعبة ـ الركن والمقام محجات العرب ـ الحمى ـ السدنة ـ القداح

تحفظ وتمهيد : قبل أن نلتمس شيئاً من مناسك العرب الجاهليين ، يجب ان نبدأ بتحفظ طالما نردد ذكره فيما نكتب من تاريخ العرب قبل الاسلام ، وخصوصاً حينما نتصدر للناحية الدينية منه ، ونعني بذلك قلة المآخذ الوثيقة ، وضيق صدر الروايات الاسلامية بهذه الشؤون . ومما يجمل الاشارة اليه ذكر مقطع ورد لابن قتيبة ، وقد كلفه احدهم ان يكتب اليه رسالة بالميسر والقداح ، قال :

« وقد كلفت ، رحمك الله ، شططاً ، وحاولت عسيراً ، لان الميسر أمر من امور الجاهليـة قطعه الله بالاسلام . فلم يبق عند الاعراب إلا النبذ منه اليسير ، وعند علمائنا إلا ما أدى اليهم الشعر القديم ، من غير ان يجدوا فيه اخباراً تؤثر او روايات تحفظ . والشعر يضيق بالاوزان والقوافي عما يتسع له الكلام المنثور . على انني لم اجد في اشعارهم شيئاً على جلالته وعظيم نفعه هو اقل منه ، انما يعرض في شعر المكثرين من ذكره البيتان والثلاثة . وأكثرهم يضرب عنه صفحـا . وليس ذلك مذهبهم في وصف الابل ، والحمير ، والنعام ، والظبـاء ، والقطا ، والفلوات ، والحشرات . ولم اجد فيهم أحداً انهج بذكر القداح من ابن

مقبل ثم الطرمّاح بعده . ولو جمعت ما في شعر احدهما من ذكره لم تجده بعشر ما فيه من وصف حمار او بعير[1] » .

والكلام نفسه لا ينطبق على الميسر والقداح فحسب ، وانما ينطبق على امور الجاهلية (والدينية خاصة) بنوع عام . وليس الميسر كما قال ابن قتيبة . إلا امراً من امورها . وكما جد الرجل وجمع كتيباً في الميسر والقداح ، كذلك نحاول ان نجد شيئاً نلفت النظر اليه لعله يفتح لغيرنا من تلاميذ الموضوع آفاقاً تهديهم الى تدبيج رسالات اوسع بحثاً وأدق تمحيصاً وأعم فائدة .

هذا ، ولا شك في ان مكة وما حولها من اماكن الاستقرار كانت في الحجاز منذ القدم محجات للعرب يفدونها من كل صوب في مواسم معينة من السنة ، اعتادوا ان يقيموها تبادلا للمصالح المشتركة بينهم . وكانت لهذه المواسم اسباب هامة في سيادة اهل الحجاز ، وخاصة قبيلة قريش ، في كثير من الامور . كانتشار لغتها وعاداتها ومناسكها التي كانت تقدمها الى اصنامها وحجارتها المؤلهة . يقول اليعقوبي :

« كانت العرب اذا حجت البيت فرأت تلك الاصنام ، سالت قريشاً وخزاعة فيقولون نعبدها لتقربنا الى الله زلفى . فلما رأت العرب ذلك اتخذت اصناماً فجعلت كل قبيلة لها صنماً يصلون اليه تقرباً الى الله »[2].

والظاهر انه كان لهم اعياد كثيرة منها زمنية كايام مسراتهم وافراحهم لنصرتهم على عدو ، وظفرهم بخصم ، وهذا يكون عند قبيلة دون اخرى ومنها مكانية واهمها ما كان يقام فيما ذكرنا من المدن حيث كانت مناة — كما في احوال العرب — لاهل المدينة ، واللات لاهل الطائف ، والعزى لاهل مكة . ولهذه الاماكن الثلاثة كانت تشد الرحال فيقصدها العرب ويعظمونها كتعظيم الكعبة . وكان لها سدنة يقومون بخدماتها ،

---

(١) ص ٣٠-٣١ الميسر والقداح لابن قتيبة .

(٢) ص ٢٩٥ ج ١ تاريخ ابن واضح اليعقوبي .

وخصوصاً حينما يجتمع عبادها فيطوفون بها وينحرون عندها [1] .

ويكاد لا يخلو كتاب من الكتب الاولى وغيرها مما ذكر شيئاً عن الوثنية العربية ، من الاشارة الى ان العرب - بدواً وحضراً - كانوا ، مع تعظيمهم للاصنام يعترفون بفضل الكعبة عليها لأنها - كما يرددون دائماً - بيت أبيهم ابراهيم .. ومن هذه الاشارة نفهم انهم يجمعون - تقريباً - على القول بانتشار الحنيفية - وقد مر حديثها - في بلاد العرب .. ولا نعلم تماماً اسباب حرصهم على هذه الفكرة . والظاهر ان السبب الرئيسي « اسلامي محض » يميل الى اسناد ما هو متفش من الفضائل بين العرب الجاهليين الى الدين الحنيفي القديم .. الى « الفكرة الاسلامية » التي كانت قبل الاسلام .. الى اسماعيل وابراهيم . والحقيقة اننا لا يسعنا ان نرى - كما ترى تلك الكتب - هذا الانتشار الواسع من تلك التعاليم ، وتلك الفكرة الممثلة بالشعور بالله واحد اعلى . وإلا كيف نفسر هذا العناء الذي قابلت به العرب نبيهم في اوائل الدعوة وذاك النزاع الذي اشتمل عليه صدر التاريخ الهجري ؟ بل كيف نؤول الآية : « اجعل الآلهة إلهاً واحداً ان هذا لشيء عجاب » [2] . فالتوحيد لا بد ان يكون قد اقتصر على القليل بالنسبة الى الاكثرية الوثنية المطلقة . ومما ذكره امير علي في حديثه عن بنات الله ان عبادة هذه الاصنام كانت بالدرجة الاولى ، تمثيلاً للقوة المولدة في الطبيعة . وهي تشبه في مميزاتها ديانة الساميين القدماء والفينيقيين والبابليين . على ان اكثرية الامة ، وخصوصاً القبائل التي تنتسب الى الشعب المضري ، عكفت على نوع بسيط من الدين الفتشي ، فكانت الحيوانات كالغزال والحصان والجمل ، والنباتات كالنخيل ، والمواد غير العضوية كقطع الصخور والاحجار .. تكوّن الاشياء الرئيسية للعبادة . وقد وجدت فكرة الاله

---

(١) ٣٤٦ - ٣٤٧ ج ١ الآلوسي .

(٢) القرآن الكريم س ٣٨ آية ٥ .

الاعلى بينهم ، إلا ان تأثيرها كان مقصوداً على اقلية ضئيلة تخلصت من عبودية الوثنيـــة متأثرة بتعاليم من جاورهـــا من السبأيين ، واليهود والنصارى [١] . وقد اتخذت مؤلهات العرب الحجرية اشكالاً مختلفة - كما ذكرنا - منها ما كان ينقل ، ومنها ما بقي مكانه حيث اكتشف ثابتاً في صخرة ، ومنها - كالحجر الاسود - ما كان يحاط ببناية صغيرة ، إذ لم تكف ُعبَّادَهُ إحاطتُه بالاحجار [٢] .

هذه البنايات المقدسة امثال رضى ، والقليس ، وكعبـــة نجران ، وسنداد ، ورئـــام ، وبيت العزى [وبعضها مسيحي]. طالما حاول اصحابها ان يضاهوا بها الكعبة او حرم مكة الذي قدسته العرب على مختلف قبائلهم ومعتقداتهم ونزعاتهم . ولما كانت لمكة هذه المكانة السامية في قلوب العرب الجاهليين [وفي عقيدة العالم الاسلامي فيما بعد] ، وجب ان نأتي عليها بشيء يجاري ما نحن بشأنه في بحثنا هذا .

مكة والكعبة : لا تكاد مكـــة تتخلص من ضباب الاساطـــير والخرافات إلا على عهد النبي حوالي سني ميلاده ، اي في النصف الاخير من القرن السادس للميلاد . ونحن اذ نحاول سرد حديث عنها وعن الكعبة ، انما يهمنا تلك الرواياتِ التي ترجع بما تدور حوله الى ما وراء هــذا التاريخ . وبكلمة نعالج اخباراً تكتنفها الخرافة من كل جانب ، وإذا شئت فقل اننا في غمار الحديث عن مكة الاسطورة .

فنحن لا ندري الى اي زمن يرجع بنـــا تأسيس مكة على وجه الضبط ، غير انه لا يستبعد ، بل يكاد يكون واقعياً ، وجودها قبل المسيح بعشرات او مئات من السنين !؟ امـــا اذا جاز لنا ان نأخذ الاسطورة التي تنسب تأسيسهـــا الى مضاض بن عمرو الجرهمي ، صهر

---

(١) يراجع كتاب The Spirit of Islam IXVI-IXVII

(٢) ص ١٨ H. Lammens : Islam : Belief and Institutions

اسماعيل ، كانت مكة عندئذ في عـــالم الوجود قبل التاريخ المسيحي بآلاف !

ولربما كان بطليموس الجغرافي أقدم من اشار الى مكة في التاريخ ، والظاهر انه كان يعرفها باسم مكورابا Macoraba [١] . وياقوت في معجم البلدان ينقل عنه تحديدها طولاً وعرضاً بالدرجـــات [٢] . ومن ذكر بطليموس لها نستنتج انها كانت بلدة عامرة في القرن الثاني للميلاد ، على انها يجب ان تكون كذلك قبل هذا التاريخ بكثير .

ويظن الدكتور Snouck Hurgrunje [٣] انه ربما كان نبع ماء زمزم في واد غير ذي ماء ، سبباً في ايجاد المكان المقدس هناك [٤] وذلك لا يستبعد لما كان للواحات ، ومساقط الامطار في الجزيرة الصحراويـــة الكبيرة من الاثر في حياة البدوي المادية والروحية . ولقد ذكر الكتاب ذلك الوادي على لسان ابراهـــيم حينما وصل ومعه هاجر واسماعيل الى الحرم ، والتفت فلم ير احداً ، فقال : « ربنا اني اسكنت من ذريتي بواد غير ذي زرع عند بيتك المحرّم فاجعل افئدة من الناس تهوي اليهم وارزقهم من الثمرات لعلهم يشكرون [٥] » .

والقصة تتفق وظن الدكتور شنوخ ، وتجيب ابراهيم على دعائه : فقد ترك ابراهيم زوجه وولده :

« فاشتد عليهما الحر . فرأت هاجر في موضع بئر زمزم شجـــرة ، وعلقت عليها ثوباً يظلها من حر الشمس ، ونفد ماء الكوز الذي كان معها ، وعطشا ، فلم تدر هاجر ما تصنع . وكانت تعدو نحو الصفـــا

---

(١) ص ٤٣٧ م ٣ Enc. of Islam

(٢) ص ٦١٦ م ٤ معجم البلدان .

(٣) له كتاب ضخم (Mekka) في ٣٩٣ صفحة طبع سنة ١٨٨٨ .

(٤) ص ٥٨٦ م ٢ Enc. of Islam

(٥) القرآن الكريم س ١٤ آية ٤٠ .

مرة ، ونحو المروة اخرى في طلب الماء ، وهي تقول الهنا لا تهلكنا عطشاً ، فهبط عليها جبريل وبشرها بالنجاة . فانصرفت الى اسماعيل وهو يبحث الارض باصبعه فنبعت عين زمزم ، فخرت ساجدة لله تع . ثم جمعت الحصاة حوله لئلا ينتشر الماء ، وقالت له زمزم ، فسمي بذلك ، فلو انها ما فعلت ذلك لساح الماء على وجه الارض شرقاً وغرباً ، فمكثا هنالك حتى أقبلت قافلة من اليمن تريد الشام فرأوا طيوراً عاكفة على هاجر وولدها ، فتعجبوا من ذلك وقالوا ان الطير لا يأوي إلا على ماء والعمارة ، فأقبلوا ووجدوا هاجر واسماعيل على عين ماء عذب ، وقالوا لها من الانس انت ام من الجن ؟ فقالت : أنا هاجر جارية ابراهيم خليل الله ، وهذا ولدي منه ، وهذا المعين أخرج الله لولدي . فقالوا : ان حضرنا باهالينا وسكنا هناك مؤنسين لك ، فهل تمنعينا عن الماء ؟ فقالت : انه لله يشربه خلق الله . فرجعوا واحتملوا اهاليهم ومواشيهم ونزلوا الحرم [1] » .

وقد مر معنا حديث زواج اسماعيل من امرأة لهذه القبيلة ، وبنائه البيت مع والده ، وليس في مكة يومئذ بيت مشيد ، وتعليم جبريل لهما المناسك كلها ، واستقبال ابراهيم القبلة الخ . فمكة اذاً حسب هذه القصة لا بد وان تكون نتيجة لاستقرار تلك القبيلة التي نزلت بزمزم جيراناً لاسماعيل وامه .

على ان الاخبار لا تكتفي بذلك ، فقد جاء بها : « ان اول ما خلق الله في الارض مكان الكعبة ، ثم دحى الارض من تحتها ، فهي سرة الارض ووسط الدنيا وأم القرى » [2] . ولربما رجعوا بخلق مكة الى خلق الله السموات فزعموا انه « وجد على حجر فيها كتاب فيه أنا

---

(١) ص ١٤٣ قصص الانبياء .

(٢) ص ٢٧٩ م ٤ معجم البلدان .

الله رب مكة الحرام وضعتها يوم وضعت الشمس والقمر »[1] .. وكيف لا وقد بنتها الملائكة لاول مرة قبل آدم ، لا بل قبل خلق الارض باربعين عاماً ؛ واذا شئت فبألفي عام[2] ، وذلك حينما اراد الله ان يجعل خليفة في الارض ، فأجابته الملائكة « أتجعل فيها من يفسد فيها ويسفك الدماء »[3] . وغضب عليهم فعادوا بالعرش ، وطافوا سبعة أطواف ؛ واسترضوا ربهم فرضي وأمرهم ان يبنوا له بيتاً في الارض يعوذ به من سخط عليه من بني آدم ، فبنوه حيال البيت المعمور - الذي هو تحت العرش - وعلى قدره ومثاله . وامر من في الارض ان يطوفوا به كما يطوف اهل السماء بالبيت المعمور[4] .

بهذا يفسرون : « ان اول بيت وضع للناس للذي ببكة مباركاً وهدى للعالمين »[5] .

وكانت الملائكة تحجه قبل آدم[6] ، فلما اهبط الى الارض اشتد حزنه . وبكاؤه ، فعزاه الله بخيمة من خيام الجنة ووضعها له بمكة في موضع الكعبة ، وانزل لها الركن كرسياً لآدم . وهما ياقوتتان من يواقيت الجنة ... وقد حرس الملائكة لآدم خيمته ، وذادوا عنها ساكن الارض ، وساكن الارض يومئذ من الجن والشياطين . فمن اجل الملائكة ومقامهم حرّم الحرم حتى اليوم ووضعت اعلامه حيث كان مقام الملائكة . وقد حرم الله على حواء دخول الحرم لخطيئتها في الجنة . حتى إذا ارادها آدم خرج بها من الحرم كله[7] .

---

(١) ص ٦١٩م٤ نفس المصدر «والكتاب على رأي ابن اسحاق بالسريانية. السيرة ص ١٢٤».
(٢) ص ٢٣-٢٥ الإعلام بأعلام البيت الحرام للنهروالي .
(٣) القرآن الكريم س ٢ آية ٢٨
(٤) ص ١٠٠ جـ١ تاريخ الخميس في احوال أنفس نفيس ويراجع معجم البلدان ص ٢٧٩ م ٤.
(٥) القرآن الكريم س ٣ آية ٩٠ ،
(٦) ص ٢٨١ م ٤ معجم البلدان ، ص ١٣ اخبار مكة
(٧) ص ٨ - ٩ اخبار مكة

ثم بنى آدم اساس الكعبة بعد دثور ما بنته الملائكة حتى ساوى وجه الارض ، وعلى هذا الاساس وضع البيت المعمور الذي انزل من السماء[1] فكان اول من اسس البيت وصلى فيه وطاف به[2] .. ولما مات آدم ورفعت خيمته التي عزاه الله بها بنى بنوه مكانها بالطين والحجارة بيتاً لم يزل معموراً حتى كان زمن نوح ، فنسفه الغرق ، وغير مكانه[3] . وفي رواية لم يمسه الطوفان بل رفعه الى السماء سبعون الف ملك ، وبقيت قواعده حتى ان الماء لم يصل الكعبة بل قام حولها .. وبقيت هي معلقة في الهواء الى السماء[4] ، وان سفينة نوح طافت بالبيت أربعين يوماً ثم وجهت الى الجودي[5] .

وكان الناس يحجون الى مكة والى موضع البيت قبل ابراهيم[6] حتى بوأ له الله مكانه[7] ، بعد ان اوحى اليه بناءه . وكان يومئذ في الشام (وقيل في ارمينية) عندما اقبل على البراق يتبع السكينة وهي ريح هفافة - اي ساكنة طيبة - لها وجه يتكلم ، وجناحان . [وفي رواية اخرى هي ريح حجوج لها رأسان شبه الحية يتبع احدهما صاحبه] ومعها ملك يدلها على موضع البيت[8] .

ويروى انه لما أراد ابراهيم بناء البيت عُرج به الى السماء . فنظر الى مشارق الارض ومغاربها ، وقيل له اختر ، فاختار موضع مكة ، فقالت الملائكة : يا خليل الله اخترت موضع مكة وحرم الله في الارض .

---

(١) ص ٢٧ النهر والي .
(٢) ص ٧ اخبار مكة .
(٣) ص ٢٨ - ٢٩ النهروالي
(٤) ص ١٠١ ، ١٠٢ ، ١٠٤ ج ١ تاريخ الخميس
(٥) ص ٢٠ اخبار مكة
(٦) ص ٢٨٠ م ٤ معجم البلدان .
(٧) راجع القرآن الكريم س ٢٢ آية ٢٧ .
(٨) ص ١١١-١١٢ ج ١ تاريخ الخميس .

فبناه ، وجعل اساسه من سبعة أجبل (او خمسة او اربعة) ، وكانت الملائكة تأتي بالحجارة الى ابراهيم من تلك الجبال [1] .

ثم انهدم بناء ابراهيم ، فبنته العمالقة من بعده . ثم انهدم فبنته قبيلة من جرهم الى ان كان زمن قصي وولايته أمر البيت فجمع نفقته ، وهدم الكعبة ثم بناها بنياناً لم يبن مثله ممن بناها قبله احد .

وقيل ان امرأة جمرت الكعبة بالبخور فطارت شرارة من مجمرها في ثياب الكعبة فاحترق اكثر اخشابها... ودخلها سيل عظيم فصدع جدرانها فهبت قريش تجدد بنيانها [2] .

وهنا نكاد نتكلم حقائق لولا بعض المشوبات ، فقد بلغ رسول الله اذ ذاك خمساً وثلاثين سنة حينما اجتمعت قريش لبنيان الكعبة ... وكان البحر قد رمى بسفينة الى جدة لرجل من تجار الروم فاخذوا خشبها ... وكان بمكة رجل قبطي نجار فتهيأ لهم اصلاحها ، الا انهم كانوا يهابون هدمها ، ويخشون افعى كانت تخرج من بئر الكعبة التي كان يطرح بها ما يهدى لها كل يوم ، فتتشرق على جدار الكعبة لا يدنو منها احد الا اجزألت وكشت وفتحت فاها ... ويأتي طائر غريب فيختطف الحية ، وبذلك يرضى الله عما أرادت قريش ، فقد كفاهم امر هذه الآفة وهيأ لهم العامل والخشب ، فيجمعون امرهم في هدمها وبنائها... ويتناول احدهم من الكعبة حجراً فيثب من يده الى مكانه ، فيقول : يا معشر قريش ، لا تدخلوا في بنائها من كسبكم الا طيباً . لا يدخل فيها مهر بغي ولا بيع ربا ولا مظلمة احد من الناس . وبدأ الوليد بن المغيرة بهدمها ، فتربص الناس تلك الليلة وقالوا لننظر ، فان اصيب لم نهدم منها شيئاً ، فلم يصبه شيء ، فهدم الناس معه ... حتى اذا انتهى بهم الهدم الى اساس ابراهيم ، افضوا الى حجارة خضر كالأسنة آخذ بعضها ببعض ... وقد

---

(١) ص ٢٨١ م ٤ معجم البلدان ، ص ١٣ اخبار مكة

(٢) ص ٤٣ ، ص ٤٩ - ٥٢ النهر والي

ادخل رجل من قريش عتلة بين حجرين ليقلع احدهما ، فلما تحرك الحجر تنقضت مكة باسرها فانتهوا عن ذلك الأساس.. وبعد ان تذكر السيرة الروايات التي تزعم ان كتباً وجدت هناك — وبعضها بالسريانية — يقول ابن اسحق ان القبائل من قريش جمعت الحجارة لبنائها ، كل قبيلة تجمع على حدة ، ثم بنوها حتى بلغ البنيان موضع الركن فاختصموا فيه ، كل قبيلة تريد ان ترفعه الى موضعه دون الاخرى [1] . ثم تكمل القصة كما هو معروف من احتكامهم الى اول داخل عليهم ... وكان الامين .

الركن والمقام : هذا الحجر الاسود الذي اختصمت على وضعه مكانه قبائل قريش ، لا يشك البعض في كونه بقية صارخة من عبادة الاحجار . ويرى ولهوزن ان الكعبة انما تدين بقداستها لهذا الركن ، ويعقب فنسنك على ذلك بقوله ان ذلك ممكن لان ديانة العرب القدماء ، انما كانت قائمة بجوهرها على عبادة الحجارة [2] . ومن المعلوم ان الحجر الاسود لم يكن الحجر المقدس الوحيد في الكعبة ، فقد وجد بها اصنام واوثان وانصاب كثيرة بينها الـ « ٣٦٠ » تمثالاً ، كما ان مقام ابراهيم كان منذ القدم حجراً مقدساً [3] . قال تعالى : « واذ جعلنا البيت مثابة للناس وامناً ، واتخذوا من مقام ابراهيم مصلى ، وعهدنا الى ابراهيم واسماعيل ان طهرا بيتي للطائفين والعاكفين والركع السجود » [4] .

وليس ببعيد ان يكون الركن والمصلى « المقام » قطعتين من تلك الاحجار البركانية التي يخال الى الناس انها اجسام سماوية ، ولربما كانا كذلك اي من بقايا نيازك متساقطة ، وعلى هذا الاساس كان تقديس العرب الوثنيين لها ، وعبادتها ، كما قدسوا النجوم وعبدوها . وليس غريباً ايضاً ان

---

(١) ص ١٢٢ — ١٢٦ السيرة ، ص ١٠٧ — ١٠٩ اخبار مكة

(٢) ص ٥٩٠ — ٥٩١ م ٢ Enc. of Islam

(٣) ص ٥٩١ م ٢ نفس المصدر

(٤) القرآن الكريم س ٢ آية ١٢٥

تكون الاخبار المتاخرة - كما سنرى - مبنية على هذا الاساس . فقد ظل وما زال الركن والمقام من مقدسات العرب بعد الاسلام .

ولا نحتاج الى القول بان تناهي المسلمين عن التحدث عن الوثنية بعد ان عفوا على آثارها وازالوا من الوجود في التاريخ وفي الادب كل ما يتصل بها [1] كان سبباً في طمس ما يتعلق بهذين الحجرين من مميزات وطقوس جاهلية ... اما الروايات الاسلامية عنهما فكثيرة ومختلفة ، غير انها اجمعت على تقديسهما في الاسلام ، ولا تكتفي الاخبار بتقديسهما فحسب ، بل هما في الاصل « ياقوتتان من ياقوت الجنة طمس الله نورهما. ولو لم يطمس نورهما لأضاآ ما بين المشرق والمغرب » [2] . وعن ابن عباس قال : « ليس في الارض شيء من الجنة الا الركن الاسود والمقام ، فانهما جوهرتان من جوهر الجنة ، ولولا ما مسهما من اهل الشرك ، ما مسهما ذو عاهة الا شفاه الله » [3] . لا بل ينسبون الى النبي حديثاً قاله لعائشة ، وهي تطوف معه بالكعبة حين استلم الركن :

« لولا ما طبع على هذا الحجر يا عائشة من ارجاس الجاهلية وانجاسها اذا لاستشفي به من كل عاهة ، واذا لالفي كهيئة يوم انزله الله ، وليعيدنه الله الى ما خلقه اول مرة . وانه لياقوتة بيضاء من يواقيت الجنة ، ولكن الله غيره بمعصية العاصين ، وستر زينته عن الظلمة والأئمة لأنهم لا ينبغي لهم ان ينظروا الى شيء كان بدؤه من الجنة » [4] ..

والحجر الاسود كان أيضاً في الابتداء ملكاً صالحاً [5] وسيأتي مع المقام يوم القيامة.. كل واحد مثل ابي قبيس يشهدان لمن وافاهما بالموافاة [6] .

---

(١) راجع ص ٤٣ حياة محمد لهيكل

(٢) ص ١٠٠ ج ١ تاريخ الخميس

(٣) ص ٢١٢ م ٢ معجم البلدان

(٤) ص ٣٠٣ م ١ نهاية الارب في فنون الادب

(٥) ص ١٠٣ ج ١ تاريخ الخميس

(٦) ص ٣٠٤ م ١ نهاية الارب

ومن الاخبار ما يجعل حجارة الارض التي من الجنة ثلاثة بدل اثنين. قال محمد بن علي : « ثلاثة احجار من الجنة : الحجر الاسود ، والمقام، وحجر بني اسرائيل »[1] .

اما الحجر الاسود ، فكما ذكره ياقوت ، في مقدار رأس الانسان[2] . وقد قيل ان القرامطة اقتلعوه سنة ٣١٧ هـ حينما وافى بهم ابو طاهر القرمطي مكة فنهبوا اموال الحجاج وقتلوهم ، وذهبوا بالحجر الى هجر ، وبقي عندهم اكثر من عشرين عاماً ، ثم حملوه الى موضعه[3] . وقد حدثني من رآه ان به نقرة كبيرة لما مر عليه من لمس وتقبيل اثناء استلامه عند الطواف طيلة هذه الاجيال التي مرت على تقديسه .

واما المقام فتختلف الروايات فيه ايضاً ، على انها تجمع على ان قداسته انما هي منبعثة عن صلته بابراهيم . ومن هذه الروايات قولهم انه هو الحجر الذي قام فيه ابراهيم حين رفع بناء البيت ، وقيل هو الحجر الذي وقف عليه يوم اذن في الناس بالحج ، فتطاول له وعلا على الجبل حتى اشرف على ما تحته ... فلما فرغ منه ، وضعه قبلة .. وكذلك رسخت قدما ابراهيم فيه مقدار سبع اصابع ، ووسطه قد استدق من التمسح به ، اما ذرعه فمقدار ذراع ، وهو على ما يذكر ياقوت ، في حوض مربع حوله رصاص . ومن مقداره يظهر انه اكبر من الركن وهو مثله حجر اسود[4] .

وللركن على ما يظهر المكانة الاولى ، فهو يمين الله في الارض، فمن لم يدرك بيعة النبي وتمسح به فقد بايع الله ورسوله[5] . هذا هو الحجر الاسود الذي نزل من الجنة وهو اشد بياضاً من اللبن فسودته - كما

---

(١) ص ٢١٢ م ٢ معجم البلدان

(٢) ص ٢٨٠ م ٤ نفس المصدر

(٣) ص ١٥٣ م ٨ الكامل في التاريخ وص ٢١٣ م ٢ معجم البلدان

(٤) ص ٥٨٨ - ٥٨٩ م ٤ معجم البلدان

(٥) ص ٣٠٤ م ١ نهاية الارب

ذكر ـ خطايا البشر . او اسود ـ كما يقول البعض ـ من لمس الحيّض في الجاهلية [1] . وليرحم الله الراشد عمر . لقد حدث ابو سعيد الخدري قال :

« خرجنا مع عمر بن الخطاب رضي الله عنه الى مكة ، فلما دخلنا الطواف قام عند الحجر وقال : والله اني لأعلم انك حجر لا تضر ولا تنفع ، ولولا اني رأيت رسول الله صلى الله عليه وسلم يقبلك ما قبلتك ، ثم قبله ومضى في الطواف [2] » .

محجات العرب : ويجب ان لا يخطر على بال احد ان مكة ـ وان ارتفعت مكانتها عن سواها من اماكن العبادة ـ هي القبلة الوحيدة في الجزيرة . فقد كان للعرب كعبات عديدة اخرى تحج اليها في مواسم معينة ، وغير معينة ، تعتر عندها ، وتقدم لها النذور والهدايا ، وتطوف بها ، ثم ترحل عنها بعد ان تكون قامت بجميع المناسك الدينية المطلوبة .

وليلاحظ انه لم يكن هنالك لرب من الارباب بيت او معبد الا في بقعة يظهر فيها شيء من الشروع في حياة الاستقرار . والحقيقة ان اهم شعائر البدو الدينية انما كانت تتجلى في حجهم الى اماكن العرب الحضريين المقدسة في المدن امثال مناة واللات والعزى في المدينة والطائف ومكة . اما المزارات الثانوية التي كان يؤمها بعض القبائل فكانت ـ وان ابتعدت عن المدن احياناً ـ كثيراً ما تشاد في بقاع لم يعد اهلها بدواً اقحاحاً [3] .

وكما كان للكعبة خدام وحجاب ، كذلك كانت لهذه البيوت ـ التي بني بعضها مضاهاة للكعبة نفسها ـ كهنة وسدنة .

يقول الهمذاني في الاكليل : « وقد كان للعرب بيوت تحجها » [4] . ويعدد اللات ، وذا الخلصة ، وكعبة نجران ، وكعبة شداد الايادي ،

---

(١) ص ١٠٠ جـ ١ تاريخ الخميس

(٢) ص ٣٠٣ م ١ نهاية الارب و ص ١٨٣ م ٢ صحيح البخاري

(٣) ص ١١٢ Smith : Religion of the Semites

(٤) ص ٨٤ جـ ٨ الاكليل الهمذاني .

وكعبة غطفان ، والاخيرة - كما يقول - بناها ظالم بن سعد بن ربيعة وهدمها زهير بن حباب الكلبي ، فقال الرسول من بعد : لم يكن شيء من امر الجاهلية وافق الاسلام إلا ما صنع زهير بن حباب . وفي « صفة جزيرة العرب » يقول الهمداني :

« مواضع العبادة مكة وايلياء باعلى نخلة ، وذو الخلصة بناحية تبالة ، وكعبة نجران وريام في بلد همذان ، وكنيسة الباغوتة بالحيرة [١] » .

وفي السيرة :

« وكانت العرب قد اتخذت من الكعبة طواغيت ، وهي بيوت تعظمها كتعظيم الكعبة ، لها سدنة وحجاب ، وتهدي لها كما تهدي للكعبة وتطوف بها كطوافها بها ، وتنحر عندها [٢] » .

وهو يذكر فيما يذكر من هذه البيوت - غير ما اشرنا اليه - العزى ومناة ورضاء . وفي كتاب الاصنام : يذكر ابن الكلبي كنيسة بناها ابرهة الاشرم على باب صنعاء محاولاً صرف العرب عن مكة اليها [٣] . وقد ذكرها ياقوت فقال :

ولما استتم ابرهة بنيان القليس كتب الى النجاشي : « اني قد بنيت لك ، ايها الملك ، كنيسة لم يبن مثلها لملك كان قبلك ، ولست بمنته حتى اصرف اليها حج العرب » .. ويجري ذكر هذا الكتاب على السنة العرب فيغضب احد النسأة ويرسل من يحدث فيها ، ويقال لأبرهة هذا فعل رجل من اهل البيت الذي تحج اليه العرب بمكة ، فيغضب ابرهة وتكون قصة الفيل [٤] .

ومن تلخيص ما جاء عن القليس في « الروض الانف » يستفاد انها لما تلاشى ملك الحبشة من اليمن ، اقفر ما حول الكنيسة ولم يعمرها

(١) ص ١٢٧ صفة جزيرة العرب للهمداني .
(٢) ص ٥٤ - ٥٥ السيرة .
(٣) ص ٤٦-٤٧ كتاب الاصنام .
(٤) ص ١٧٢ م ٤ معجم البلدان .

احد ، وكثرت حولها السباع والحيات ، فكان العرب يتخوفون من القُرب منها ، ويزعمون ان من اخذ شيئاً من انقاضها استهوته الجن ، وقد بقيت حتى زمن ابي العباس السفاح حيث ارسل لها عامله في اليمن ، فاستخرج ما كان فيها وخربها حتى عفا رسمها وانقطع خبرها [١] .

ويظهر ان كعبة نجران التي يقول فيها الاعشى :

وكعبة نجران حتم عليك حتى تناخي بابوابها
تزور يزيدا وعبد المسيح وقيسا ، هم خير اربابها

اصبحت ، بعد دخول النصرانية نجران ، كنيسة او شبه كنيسة .. يقال انها بنيت على بناء الكعبة مضاهاة لها ، ومن الروايات ما يجعلها قبة من ادم ، من ثلثمائة جلد ، اذا جاءها الخائف أمن ، او طالب حاجة قضيت ، او مسترفد ارفد ، فاذا كان ذلك ، لم تختلف عن غيرها من مضارب الشيوخ الرئيسية التي تجتمع حولها العشيرة ، وتكتسب هيبتها وعظمتها من شخصية الامير وثروته وكرمه ، وتكون اذاً كالطراف الذي يتخذه الاغنياء بيتاً من الأديم ، ويذكره الشاعر :

رأيت بني الغبراء لا ينكرونني
ولا اهل هذاك الطراف الممدد [٢]

ويرجح الظن بان اصحاب هذه الكعبة قد تنصروا ، ذكر الاعشى « عبد المسيح » - ويزيد وقيسا - الذي كان من خير اربابها . ومما ذكره ياقوت قال : « وكان فيها اساقفة معتمون » [٣] .

وذو الخلصه بيت مقدس آخر في الجنوب ، وقد مر معنا حديث عنه . ذكر ياقوت انه بيت اصنام بتبالة قدسه عدد كبير من القبائل العربية . ولتعظيمهم له دعوه بالكعبة اليمانية مضاهاة للكعبة الشامية وهي

---

(١) ص ٦ ؛ هامش كتاب الأصنام .
(٢) ص ٣٩ ؛ ج ٣ الآلوسي .
(٣) ص ٧٥٦ م ٤ معجم البلدان .

البيت الحرام [١] .

وكذلك رئـــام . قال الهمداني :

« اما رئام فانه بيت كان متنسكا ينسك عنده ، ويحج اليه ، وهو في رأس جبل اقوى من بلد همذان [٢]

وروى ابن اسحاق قال :

« وكان رئام بيتاً لهم يعظمونه وينحرون عنده ويكلمون منـه إذ كانوا على شركهم ، فقال الحبران (وقد مر حديثهما) لتبع انما هو شيطان يفتنهم بذلك فخلّ بيننا وبينه ، قـــال فشأنكما به ، فاستخرجا منه فيما يزعم اهل اليمن كلباً أسود ، فذبحاه ثم هدما ذلك البيت فبقاياه اليوم (زمن ابن اسحاق) – كما ذكر لي – بهـا آثار الدماء التي كانت تهرق عليـه » [٣] .

وفي هامش الاكليل :

« ان رئاما كان فيه شيطان . فلما جاء الحبران مع تبع نشرا التوراة عنده ، وجعلا يقرآنها ، فطار ذلك الشيطان حتى وقع في البحر » [٤] .

غير ان هذه البيوت التي عظمها العرب في الجنوب لم تبلغ مكانـــة الكعبة ، وليس ببعيد ان تكون عظمة البيت الحرام قد ضاهت هـذه البيوت مجتمعة . وهي ، على مالها من التقديس ، لم تكف عرب الحجاز فقد كان لهم في مدنهم الشهيرة بيوت اخرى كبيت ثقيف الذي كان له سدنة ويضاهون بذلك قريشاً [٥] .

واقد ذكرنا الكثير عن اللات ومناة والعزى .

ولعل القصر ذا الشرفات الذي ذكره الاسود بن يعفر في قصيدة له

---

(١) ص ٤٦١ م ٢ نفس المصدر .
(٢) ص ٨٢ الاكليل .
(٣) ص ١٧ – ١٨ السيرة .
(٤) ص ٨٣ هامش الاكليل .
(٥) ص ٦٠ ج ٧ الحيوان للجاحظ ، وراجع كتاب الأصنام ص ١٦ والسيرة ص ٣٢

مع بارق والخورنق والسدير ، من اشهر الاماكن المقدسة في القسم الشمالي الشرقي من جزيرة العرب ، وكان لأياد التي كانت تنزل سنداد . وسنداد نهر فيما بين الحيرة الى الابلة . وكان عليه هذا القصر الذي كانت تحج اليه العرب . ومما يروى ان عمر بن عبد العزيز مر بقصر لآل جفنة فتمثل مولاه مزاحم بقصيدة الاسود النهشلي التي يقول فيها :

ماذا اؤمل بعد آل محرق   تركوا منازلهم ، وبعد إياد
اهل الخورنق والسدير وبارق   والقصر ذي الشرفات من سنداد

فقال له عمر ألا قرأت [1] : « كم تركوا من جنات وعيون ، وزروع ومقام كريم ، ونعمة كانوا فيها فاكهين ، كذلك وأورثناها قوماً آخرين » [2] .

وقد دعي هذا القصر بذي الكعبات ايضاً . قال الهمداني : « وكانوا يعبدون بيتاً يسمى ذا الكعبات » [3] ويروى للمتلمس قوله :

الك السدير وبارق ومبايض ولك الخورنق
والقصر من سنداد ذو الكعبات والنخل المنبق [4]

وهناك بيوت معظمة كثيرة في اماكن شتى من بلاد العرب امثال « رضى » او « رضاء » الذي هدمه المستوغر « عمرو بن ربيعة بن كعب » في الاسلام وقال :

ولقد شددت على رضاء شدة   فتركتها تلا تنازع أسحما
ودعوت عبدالله في مكرورها   .ولمثل عبدالله يغشى المحرما [5]

ثم « الفلس » لقبائل طيء عند جبلي سلمى وأجأ [6] . و « السعيدة »

---

(١) ص ١٦٤–١٦٥ م ٣ معجم البلدان .
(٢) القرآن الكريم س ٤٤ آية ٢٤–٢٨ .
(٣) ص ١٧١ صفة جزيرة العرب .
(٤) ص ٢٣٠ نفس المصدر .
(٥) ص ٣٠ كتاب الأصنام.
(٦) ص ٥٦ السيرة .

وكان بيتاً تحجه العرب وسدنته بنو عجلان . وقيل ان قبائل الأزد كانت تعبده [1] . ولا شك في وجود عدد كبير آخر من البيوت التي تحجها العرب وتقدسها ، وتقدم لها القرابين والهدايا ، وتخصص لها الحجاب والسدنة ، وتأتيها إما قصداً وإما عرضاً في اثناء مرورهم . يعرجون عليها ويقيمون عندها اياماً ، فيرتاحون عندها ويستسقون . وكثيراً ما تكون هذه المزارات المقدسة عند عين وغدير ، او واحة وشعب .

الحمى : وكما كان الشرع يبطل الكثير من اعمال الجاهلية ، كذلك هدم ما كان عليه اعزاء العرب واقوياؤهم من التفرد بالحمى ، اذ كان القوي منهم اذا انتجع ارضاً خصبة اوفى بكلب على مرتفع منها واستعواه ثم أوقف له من يسمع منتهى عوائه ، فحيث انتهى صوته حمى المكان من كل ناحية لنفسه ، ومنع الناس منه [2] . وفي الامثال يقولون : « اعز من كليب وائل » . رووا عنه قالوا :

وقد بلغ من عزه انه كان يحمي الكلأ فلا يقرب حماه ، ويجير الصيد فلا يهاج . وكان اذا مر بروضة اعجبته ، او غدير ارتضاه رمى بكلب هناك فحيث بلغ عواؤه كان حمى لا يرعى . وكان اسمه وائلا فلما حمى كليبه المرمي الكلأ قيل اعز من كليب وائل . ثم غلب هذا الاسم عليه حتى ظنوه اسمه . وكان من عزه انه لا توقد نار مع ناره ، ولا يستبق احد الى الورد الا بامره [3] .

وهذا ما يخالفه رأي Smith القائل بأن التملك في الصحاري كان غير معروف ، وهو يرى ايضاً ان فكرة الحمى لم ترتكز على هذا التملك او الخاصية ، وانما كان يحمى المكان لوجود الاله او الشيء المقدس [4] . ولا يسعنا ان نتخذ هذا الرأي ، ونحن نعتقد انه قد وجد في الجاهلية « حمى للرجل »

---

(١) ص ٩٤ م ٣ معجم البلدان .

(٢) ص ٢١٧ م ١٨ لسان العرب ،ص ٣٤٣ ج ٢ معجم البلدان

(٣) ص ٣٤ م ٢ الامثال الميداني

(٤) ص ١١٢ Religon of the Semites

و « حمى للاله » ونعني بالأول تلك المنطقة المعشوشبة التي يحددها الشيخ او الامير ، ويحرم على الغير الانتجاع ، او حتى السير فيها ، وأما حمى الاله - وطالما يكون في مكان طري - فهو المكان الذي تحرّمه السدنة تقديساً للاله ، يأمن فيه النبات والحيوان والانسان .

ولربما عرف الاول قبل الثاني باجيال . وكثيراً ما كان امنع منه ، وخصوصاً اذا كان حاميه ذا جاه عريض وصولة فعالة ، وأكاد ارى ان حرم الاله كلما كان المسيطرون عليه اقوياء ، كلما كان اقل انتهاكاً . فحرمته مستمدة من اولئك الذين يسدنونه اكثر منها مستمدة من الاله نفسه .

ولنذكر ان عنصر الدين عند البدوي ثانوي - كما يرى Olmstead - بالنسبة الى العنصر المادي [١] فهو في عراك حتى في الحصول على القلة . وكثيراً ما كان المنتجع ساحة نضال بين القبائل للانفراد بها . ومما يذكر ان ثقيفاً قد اهتمت بواديها « وج » اهتماماً مادياً اكثر من اهتمامها بحمى « لاتها » بالطائف حتى انها بنت شبه سور لتمتنع باقتصادياتها فيه . ولما جاء بنو عـــامر ليأخذوا ما عودوا ان يأخذوه منهم منعوهم . وجرت بينهم حروب خرجت منها ثقيف منتصرة ، فضرب العرب بامتناعهـــا المثل ، قال ابو طالب :

منعنـا ارضنا من كل حي كما امتنعت بطائفها ثقيف

اتاهم معشر كي يسلبـــوهم فحالت دون ذلكم السيوف [٢]

وقد مر معنا حمى آخر وهو مـا كان يحمى حول قبر بعض الرجال كما فعلوا عندما مات عامر بن الطفيل تعظيما له .

وكما كانوا يبنون البيوت مضاهاة للكعبة ، كذلك كان حمى الآلهة يضاهي الحرم . قال ابن الكلبي في حديثه عن العزى : « كانت قريش

---

(١) ص ٦ Olmstead : History of Assyria

(٢) ص ٤٩٩ م ٣ معجم البلدان

قد حمت لها شعباً من وادي حراض يقام له (سقام) يضاهون به حرم الكعبة »[1] . وسقام هذا ، كما ذكره ياقوت ، واد بالحجاز ورد في شعر أبي خراش الهذلي ، قال :

أمسى سقام خلاء لا أنيس به   إلا السباع ومر الريح بالغرف[2]

ومن حرمة الحمى ان لا يأتيه خائف إلا أمن ، ولا يطرد حيوان اليه إلا ترك[3] له ، وكذلك لا تقرب من الاله الذي يسكنه نساء حُيَّض[4] . كما كان لا تقرب البيت ميلاث « حائض » . وقد دام ذلك حتى في الاسلام . جاءت عائشة مكة وهي حائض ، فقال لها الرسول افعلي كما يفعل الحاج غير ان لا تطوفي بالبيت حتى تطهري[5] .

وكنا ذكرنا حمى « ذي الشرى » الذي كان به وشل من ماء يهبط من جبل[6] . فالحمى ، كما يظهر دائماً ، مكان خصب وخلاء . اما الحرم فلربما سكنه الكثير من اهالي مكة انفسهم .

وهنالك اماكن مقدسة اخرى حول بعض الآلهة لا ينتقل سدنتها مهما كانت الظروف ، فهم يرثون حجابتها ولا يفارقونها حتى ولو نزعت القبيلة عما حول الاله بخاطرها ، او احتلت مكانها قبيلة اخرى بالقوة . فلهؤلاء السدنة الذين يكونون عادة بيتاً من البيوت ان يعتبروا تلك الاماكن اذاً خاصة بهم وبالاله دون غيرهم

السدنة : والسدنة في اللغة جمع سادن . وهو القائم بعمل الحجابة على ان هنالك فرقاً بين السادن والحاجب قالوا الحاجب يحجب واذنه لغيره ، وأما السادن فيحجب واذنه لنفسه[7] . وربما تسمى

---

(١) ص ١٩ كتاب الاصنام .
(٢) ص ١٠٠ م ٣ معجم البلدان .
(٣) ص ٥٩ – ٦٠ كتاب الاصنام .
(٤) ص ٣٢ نفس المصدر .
(٥) ص ١٩٥ م ٢ صحيح البخاري .
(٦) ص ٢٦٩ م ٣ معجم البلدان
(٧) ص ٢٣٣ م ٩ تاج العروس

بعضهم باسم المكان الذي يقومون على سدانته ، فيكون بينهم عبد الكعبة وعبد البيت ، وعبد الدار الخ .

وكما كان للكعبة حجاب وسدنة تقوم على خدمتها وتولي أمرها وفتح بابها وإغلاقه ، كذلك كان للأصنام وبيوتها سدنة يخدمونها ويجعلون انفسهم واسطة بين الناس وبين الآلهة . وتختلف اهمية السادن باختلاف أهمية الآلهة . ولا شك ان المنزلة التي كان يتمتع بها سدنة العزى او الربة « اللات » مثلاً تفوق مكانة الكثيرين من سدنة الأصنام المحلية الأخرى .

والسدنة في الجاهلية كثيرو العدد . وهم ليسوا فقط سدنة الآلهة الثابتة في المدن وغيرها من اماكن الاستقرار ، وإنما كان ايضاً للآلهة المحمولة او المنقولة سدنة اخرى تسهر على خدمتها وتساعد عبادها في تقديم ما اعتادوا عليه من الطقوس والمناسك . ولربما فاقوا عدد السدنة الأول بمنصبهم ، إذ ليس ببعيد ان يكونوا من رؤساء القبائل أنفسهم . قال الأب لامنس :

« إن كثيراً من هؤلاء الأشخاص رؤساء الأسر ، ذوي القباب الحمر ، الساهرين على (البيت) - ويعني بيت الصنم او الحجر المؤله - يتصفون بصفات إكليركية ، إذ يحق لهم ان يتسموا باسم (الكاهن) او (الحازر) او (السادن) او (الحاجب) وبعضهم باسم (الحكم) »[1] .

وقد ذكر ولهوزن ان السدانة الوراثية احياناً ، طالما قام بها عوائل لا تمت بسبب الى القبيلة التي تمتلك الأراضي التي تحيط بمكان الاله[2] . وربما فسر ذلك بنزوح قبيلة او طردها - كما ذكرنا - من مكانها ، وحلول قبيلة اخرى ، دون ان ترحل العائلة التي تقوم بخدمات الاله وبيته وحماه .

ومما يثبت ان السدانة تكون احياناً وراثية قول ابن الكلبي بعد

---

(١) ص ٢٣٧ ع ٢ مجلة المشرق ١٩٣٦ - ١٩٣٧ .

(٢) راجع ص ٧٩ Religion the Semites ، ص ٦٦٧ Enc. of Religion

ان ذكر حمل عوف بن عذرة بن زيد اللات (ودا) الى دومة الجندل:

« وجعل عوف ابنه عامرا الذي يقال له عامر الأجدار سادناً له . فلم تزل بنوه يسدنونه حتى جاء الله بالاسلام »[1] .

وكذلك القول في سدنة (الفلس) « بني بولان » وسدنة العزى « بني شيبان » الخ . ومما ذكره ابن الكلبي من السدنة بنو عتاب بن مالك من ثقيف « للات » وبنو لحيان « لسواع » وبنو امامة من باهلة « لذي الخلصة » والخزاعي ابن عبد نهم من مزينة « لنهم » وذلك في اماكن شتى من كتاب الاصنام .

القداح : هؤلاء السدنة هم الذين كانوا ، كما ذكرنا ، الواسطة بين الناس والآلهة . وقد مر معنا حديث امرىء القيس حينما استشار ذا الخلصة في امر الغارة على بني اسد . والاستشارة تكون في الاستقسام بالأزلام ، او الضرب بالقداح .

وقد ذكروا انه كان امام هبل في جوف الكعبة سبعة اقدح يستقسمون بها اذا اختصموا في أمر او ارادوا سفراً او عملا فما خرج عملوا به وانتهوا اليه[2] . وقال ابن واضح :

« وكانت العرب تستقسم بالأزلام في كل امورها . وهي القداح . ولا يكون لها سفر ومقام ، ولا نكاح ولا معرفة حال إلا رجعت الى القداح . وكانت القداح سبعة ... فكانوا اذا أرادوا أمراً رجعوا الى القداح فضربوا بها ثم عملوا بما يخرج القداح لا يتعدونه ولا يجوزونه . وكان لهم امناء على القداح لا يثقون بغيرهم »[3] .

والظاهر ان عدد القداح وما يكتب عليها يختلف باختلاف الاغراض التي يضرب من اجلها . فبينما يكون امام هبل سبعة اقداح مثلاً ، يكون عند ذي الخلصة ثلاثة[4] . وكذلك يختلف ما كتب على القداح السبعة

---

(١) ص ٥٥ كتاب الاصنام .

(٢) ص ٩٧ السيرة ، ص ٢٨ كتاب الاصنام ، ص ١٣ السيرة الحلبية .

(٣) ص ٣٠٠ م ١ تاريخ اليعقوبي .

(٤) ص ٤٧ كتاب الاصنام .

عند ابن الكلبي واليعقوبي .

والذي يطالع رسالة الميسر والقداح لابن قتيبة يتبين له ان الاستقسام بالأزلام كان لغرضين : الاول استشارة الاله الصنم بامر من الامور . وهنا يقول :

« وكانوا اذا ارادوا الخروج الى وجه ضربوا بالقداح فان القدح الآمر نفذ لوجهه راجياً السلامة والصنع ، واذا خرج القدح الناهي امسك عن الخروج خائفاً النكبة »[1] .

والثاني يختلف عن الاول كل الاختلاف ، وهو نوع من القمار ليس إلا ، يمارسونه عند الشدة والضيق . وهو ما يسمونه بالميسر . امـــا قداح هذا الضرب من الاستقسام فعشرة متساوية منها سبعة ذوات خطوط وهي : الفذ ، والتوأم ، والرقيب ، والحلس ، والنافس ، والمسبل ، والمعلى . وثلاثة اغفـــال لا خطوط بها وهي : السفيح ، والمنيح ، والوغد[2] .

وكان على كل قدح من السبعة علامة « حز » فعلى الفذ حز ، وعلى التوأم حزان وهكذا ... الى سبعة على المعلى . ولكل حز نصيب[3] . وأما الثلاثة التي لا نصيب لها ، فليس عليها علامات ، وإنما تجعل مـع تلك السبعة ليكثر بها العدد ، ولتؤمن بها حيلة الضارب[4] .

وكانوا لا يضربون على الميسر بالقداح إلا في الشتاء ، عند جدب البلاد ، وتعذر الاقوات ، وكلب الزمان ، لينعشوا بذلك الفقـــير والضرير[5] . فكانوا ييسرون عـــلى جزور يقسمونه اجزاء[6] . او

---

(١) ص ٤٠ الميسر والقداح .
(٢) ص ٥٦ نفس المصدر .
(٣) ص ٧٥ نفس المصدر .
(٤) ص ٨٢-٨٣ نفس المصدر .
(٥) ١٠٦ نفس المصدر . ثم راجع تاريخ اليعقوبي ص ٣٠٠-٣٠١ ج ١ .
(٦) ص ١١٣ الميسر والقداح

يضربون بالقداح على الابل الصحـــاح فيجعلون مكان العُشر من اعشار الجزور بعيراً كاملاً [1] .

ولما كان لهم – كما قلنا – امناء على القداح لا يثقون بغيرهم ، وجب عليهم ان يرضوا هؤلاء القدّاح بهبات وعطايا لقاء عملهم . قال الأزرقي :

« وكانوا إذا أرادوا ان يختنوا غلاماً او ينكحوا منكحـــاً او يدفنوا ميتاً ، او شكوا في نسب احد ذهبوا به الى هبل وبمائة درهم وجزور فأعطوها صاحب القداح الخ » [2] .

وامام هبل هذا تخاصمت قريش – كما ذكرنا – وعبد المطلب على الغزالين والأسياف والأدراع التي اكتشفها عبد المطلب في حفرة بـئر زمزم حيث قالت قريش :

« يا عبد المطلب ، لنا معك في هـــذا شرك وحق . قال : لا ، ولكن هلموا الى أمر نصف بيني وبينكم نضرب عليها بالقداح . قالوا : وكيف تصنع ؟ قال : اجعل للكعبة قدحين ولي قدحـين ، ولكم قدحين ، فمن خرج قدحاه على شيء كان له ، ومن تخلف قدحاه فلا شيء له . قالوا : أنصفت . فجعل قدحين أصفرين للكعبة وقدحـــين أسودين لعبد المطلب ، وقدحـــين أبيضين لقريش . ثم أعطوا القداح صاحب القداح الذي يضرب بها عند هبل ... وضرب صاحب القـداح فخرج الأصفران على الغزالين للكعبة ، وخرج الأسودان عـلى الأسياف والأدراع لعبد المطلب وتخلف قدحا قريش » [3] .

وقد استشار عبد المطلب القداح حينما اراد ان يذبح ابنه [4] ومختصر القصة ، كما سردها ابن اسحاق ، ان عبد المطلب نذر حـــين لقي من قريش ما لقي عند حفر زمزم لئن ولد له عشرة اولاد لينحرن احـدهم

(١) ١٢٣ نفس المصدر
(٢) ص ٧٣ اخبار مكة ، ص ٩٧ السيرة
(٣) ص ٦٤ السيرة
(٤) ص ٧٤ اخبار مكة

عند الكعبة ، فلما توافى بنوه عشرة ، وعرف انهم سيمنعونـه جمعهم ، ثم اخبرهم بنذره ودعاهم الى الوفاء بذلك فأطاعوه ، وقـالوا : كيف نصنع ؟ قال : ليأخذ كل رجل منكم قدحـاً ثم يكتب فيه اسمه . ففعلوا ، وأتوه فدخل بهم على هبل في جوف الكعبة وطلب من القدّاح ان يضرب على بنيه بقداحهم فخرج قدح عبد الله . وكان فـيما زعموا احبهم الى ابيه ، غير ان هذا الحب لم يمنع عبد المطلب من وفائه بنذره ، بل اخذه بيـده ، وأخذ الشفرة ثم اقبل به على اساف ونائلة .. فهبت قريش من انديتهـا وقالوا : ماذا تريد يا عبد المطلب ؟ قال : اريد ذبحه ! فقـالت قريش وبنوه والله لا تذبحه ابداً حتى تعذر فيـه ، فان كان فداؤه باموالنا فدينـاه ... واخيراً يقر الرأي عـلى ان يستشيروا عرافة في المدينة ، وذهبوا فوجدوها بخيبر ، وقصوا عليها الخبر فقالت لهم : ارجعوا عني حتى يأتيني تابعي . فرجعوا ، ثم جاءوها ثانية ، فقالت لهم : كم الدية فيكم ؟ قالوا : عشرة ابل . قالت : فارجعوا الى بلادكم ، ثم قربوا صاحبكم وقربوا عشراً من الابل ، ثم اضربوا عليها وعليه بالقداح ، فان خرجت على صاحبكم فزيدوا من الابل حتى يرضى ربكم ، وان خرجت على الابـل فانحروها ، وهكذا كان . فقد ذهبوا وضربوا بالقداح فخرج قـدح عبدالله ، فزادوا حتى بلغت الابل مائة ، فخرج قدح الابـل ، فقال من حضر لقد رضي ربك يا عبد المطلب . فاعاد الضرب ثلاث مرات وكان القدح يخرج على الابل في كل مرة .. فنحرت الابل وتركت لا يصد عنها انسان ولا وحش [1] .

والظاهر ان الاستقسام كان متفشياً في الجاهلية ، حتى قيل ربما كان مع الرجل زلمان يضعهما في قرابه ، فاذا اراد الاستقسام اخرج احدهما [2] . وروي عن ابن عباس قال :

---

(١) ص ٩٧ — ١٠٠ السيرة

(٢) ص ٣٢٧ م ٨ تاج العروس

« ان رسول الله ﷺ لما قدم ابي ان يدخل البيت وفيه الآلهة فامر بها فاخرجت ، فاخرجوا صورة ابراهيم واسماعيل في ايديهما الأزلام فقال رسول الله ﷺ قاتلهم الله .. اما والله قد علموا انهما لم يستقسما بها قط ، فدخل البيت فكبر في نواحيه ، ولم يصلّ فيه »[١] .

وقد ابطل الكتاب هذه العادة فيما ابطل فقال : « وان تستقسموا بالازلام ذلكم فسق »[٢] . على انه بقي في الاسلام ما يشبه الاستقسام بالطريقة وان خالفها بالغرض والغاية ، عن عائشة قالت :

كان رسول الله اذا اراد سفرا أقرع بين ازواجه فايهن خرج سهمها خرج بها رسول الله معه . فاقرع بيننا في غزوة غزاها فخرج فيها سهمي فخرجت معه[٣] .

والاقداح « او القداح » ، والازناد ، والسهام ، والاقلام ، والازلام تعطي معنى واحداً . وهي أعواد تسوّى للاستقسام الذي هو من القسم اي النصيب . وهذه الاعواد ـ كما يقول ابن قتيبة ـ متشابهة في اقدار الأجسام ، وانما تختلف بالعلامات والوسوم . قالوا : وليس يجوز ان تكون الا كذلك لانها اذا اختلفت امكنت الضارب الحيلة فيها[٤] .

الفصل الثاني : الحج الجاهلي ـ الاسواق ـ الوقوف ـ الذبح تقصير الشعور ـ العمرة والسعي ـ الطواف والتلبية ـ النسيء والحمس

الحج الجاهلي : والحج اروع ظاهرة في شعائرهم الدينية القديمة . وهي في اللغة كلمة جد قديمة ، ومن الممكن ان يكون العمل بمعناها قد جاراها في القدم . ولو خوّلنا ان نأخذ بقول الرواة الذين تحدثوا عن مكة والبيت ، ومجيء ابراهيم ، لكانت عادة الحج قد سبقت تكوّن اللغة العربية على ما هي معروفة عليه في الجاهلية .

---

(١) ص ١٨٤ م ٢ صحيح البخاري
(٢) القرآن الكريم س ٥ آية ٤
(٣) ص ٥٢ م ٥ صحيح البخاري
(٤) ص ٨٧ الميسر والقداح

والمسلم به ان الحج عمل ديني قديم دونما ريب . ومن الصعب على الباحث تحقيق الزمان الذي ابتدأ العربي فيه بالحج . والقرآن الكريم يرجعه الى عهد ابراهيم حيث قال له تعالى : « وأذّن في الحج بالناس يأتوك رجالا ، وعلى كل ضامر يأتين من كل فج عميق »[1] . ولعل هذا القول مما جعل البعض يظن ان العرب في حجها البيت اقدم امة عرفت عندها عادة الحج قبل سائر الامم[2] .

والحج في اللغة القدوم والقصد مطلقاً . تقول حججت فلانا اذا اتيته مرة بعد مرة ، فقيل حج البيت لانهم يأتونه كل سنة ثم تعورف استعماله في قصد مكة للنسك[3] .

ولا ارى معقولا ان الدافع الوحيد - كما يُظن - لتقاطر الجاهليين من جميع انحاء الجزيرة الى نواحي مكة ، ديني محض . بل ارى ان حج البيت ، على ما كان له من المظاهر ، اقل اهمية في الحقيقة ، ان لم يكن ثانوياً بالنسبة الى دافع داخلي رئيسي .. الى دافع تتوقف عليه حياة البدوي ، وغيره ، امتن من الدين وأشد من اواصر القربى .. وهو الدافع الاقتصادي ، وبكلمة مختصرة : التجارة .

اما ان تفد القبائل الى مكة ، بعد ان يكون بعضها جاب الجزيرة من دومة الجندل .. الى هجر .. الى الشحر .. الى الطائف .. ماراً بالكثير من الاسواق قبل ان يحط رحاله في عكاظ .. فمجنة .. فذي المجاز .. وذلك ليطوفوا ، ويقفوا على عرفة ، ويفيضوا ، ويعتروا ، فسبب لا اراه وجيهاً اذا اتخذ وحده مهما قيل فيه ، فلو لم يكن في مواسم الحج اسواق تجارية يتبادلون فيها المصالح وغيرها من مقومات الحياة .. وبالنتيجة يتعارفون ، إذا انتهوا من مهامهم ، ويتناشدون الاشعار ، ويتجاذبون

---

(١) القرآن الكريم : س ٢٢ آية ٢٨

(٢) راجع ص ٦٩٦ ج ٦ - دائرة المعارف لبطرس البستاني

(٣) ص ١٦ - ١٧ ج ٢ - تاج العروس

الاحاديث ، وتكون لهم هـذه الاسواق اعياداً سنوية ، لاكتفت كل قبيلة بما عندها من اصنام وانصاب ، تقدم لها من المناسك ما تقدم في الحج من ذبح ، ووقوف ، وطواف ، ولما تجشمت الحداء من اطراف الجزيرة واواسطها .. ولما كان – بالنتيجة – لحج البيت عندهم تلك المظاهر الرائعة كلما حلت عليهم الاشهر الحرم .

الاسواق : ويبتدىء الحج بالاسواق ، تلك التي كانت بين الطائف ومكة متجر الناس في الجاهلية [1] ، حتى قيل لابن الخطاب مرة : « هل كنتم تكرهون التجارة في الحج ؟ فقال : وهل كانت معيشتنا إلا من التجارة في الحج ؟! » [2] ولمـــا كان المسلمون في اوائـــل الدعوة يأبون ما للجاهلية من عادات وخصوصاً الدينية منها ، لذلك تأثموا البيع والشراء في ايام الموسم ، وكرهوا التجارة في الحج [3] فأبيحت لهم ، ورفعت عنهم الجناح الآية : « ليس عليكم جناح ان تبتغوا فضلاً من ربكم » [4] .

في مكان من عكاظ [5] – وعكاظ نخل في واد بين مكة والطائف – مستو لا علم فيه ولا جبل ، كانت تقوم السوق . وكان في هذا المكان الذي عرف بالاثيداء ، مياه ونخل . ولم يخل من انصاب وصخور ملطخة بالدماء ، قيل انهم كانوا يحجون اليها ويطوفون حولها . وكانت تحفـــل عكاظ بالناس في شوّال ، ويتم تقاطرهم اليها في ذي القعدة : الزمن الرسمي للسوق . وفي العشرين من هذا الشهر تذهب جماعاتهم – بعد ان يتخلف من لم يكن انهى بيعه وشراءه – الى مجنة .

ومجنة موضع قرب جبل يقال له الاصفر باسفل مكة ، تقوم سوقها عشرة ايام [6] ، الى ان يهل ذو الحجة حيث يسيرون الى ذي المجاز .

---

(١) ص ٢٢٢ ﺣ ٢ – صحيح البخاري
(٢) ص ٨٤ ج ١ – الكشاف عن حقائق غوامض التنزيل للزمخشري
(٣) ص ٢٢٣ ﺣ ٢ صحيح البخاري
(٤) القرآن الكريم – س ٢ آية ١٩٢
(٥) راجع ص ٢٤٩ – ٢٥٠ – اسواق العرب في الجاهلية والاسلام ، لسعيد الافغاني
(٦) ص ٤٢١ ج ٤ – معجم البلدان

وذو المجاز موضع على فرسخ من عرفة تقوم سوقه ثمانية ايام [1] اي حتى الثامن من ذي الحجة : وهو يوم التروية ، سمي بذلك لانهم يتروون من الماء ، ويملأون اوعيتهم لما بعده إذ لا ماء بعرفة . والى هـذه السوق تتقاطر وفود الحجاج من سائر العرب ، ممن شهد الاسواق قبلها ، او لم يشهدها واتى للحج خاصة ، إذ ان ذا المجـاز من مواسم الحج عنـدهم [2] .

فعكاظ ومجنة وذو المجاز هي الاسواق التي كانوا يتّجرون بها في الجاهلية ايام الموسم ؛ والتي كادت ان تكون قسماً من اعمال الحج ذاتـه حتى ان قريشاً وغيرها من العرب كانت تقول - على ما روى الازرقي - : « لا تحضروا سوق عكاظ ومجنة وذا المجاز الا محرمـين بالحج » [3] . ويكفي بالاحرام تعظيماً لها وتقديساً .

الوقوف : من هذه الاسواق كانت العرب ترتحل الى مكة لحجهم [4] حيث يبتدىء الحج في التاسع من ذي الحجة ، اذ يتركون ذا المجـاز مباشرة الى عرفة . وعلى عرفة يقضون بالوقوف شعيرة من اهم شعائر الحج الدينيــة .

ويرى « سمث » ما يرى « ولهوزن » ان ميزة وقوفهم هذا تشبـه منظر اولئك الذين يلتفون حول المذبح في خشوع والعتائر مسطحة على الارض ، وذلك يكون اما عند انتهاء الذبح مباشرة او اثناء هـذه العملية ، والدماء تسيل في الغبغب او يلطخ بها السادن رأس النصب [5].

---

(١) ص ٤١٦ ج ٤ - نفس المصدر

(٢) ص ٣٠٠ - اسواق العرب في الجاهلية والاسلام

(٣) ص ٣٢ اخبار مكة

(٤) ص ٣١٤ ج ١ - تاريخ ابن واضح اليعقوبي

(٥) ص ٣٤٠ Religion of the Semites « الغبغب - المنحر ومهراق الدماء : ص ٥٥ السيرة . « والغبغب - حجر ينصب بين يدي الصنم : ص ٧٧٢ ج ٣ - معجم البلدان

ويقارن Houtsma الوقوف بعرفات بوقوف اليهود على جبل سيناء ، حيث كان يتجلى معبودهم بالبرق والرعد [١] ، وان كنا لا ندري شيئاً عن إله عرفات ، ولربما كان نفسه إله المزدلفة « قزح » - إله البرق والعواصف والرعد والغيث - الذي عبده الادوميون من قبل ولم يبق من ظواهر عبادته بين الجاهليين إلا اشعال نيرانه بمزدلفة .

ولتسمية المكان الذي يقفون عليه « عرفة » وجوه ، منها انه سمي بذلك لقول ابراهيم مخاطباً جبريل ، وهو يدور به في المشاعر يعلمه اياها : قد عرفت . او لان آدم وحواء التقيا بعد الهبوط فتعارفا هناك ، او لان الناس يتعارفون فيه [٢] . ويزيد ياقوت على الزمخشري فيقول : وسمي بالصبر على ما يكابدون بالوصول اليه . والعرف هو الصبر ، او لان الناس يعترفون بذنوبهم في ذلك الموقف [٣] .

على أن هذا لا يعيقنا عن سير الحجيج ، فالناس بعد ان يقضوا يومهم بعرفات يفيضون الى المزدلفة قبل ان تغرب الشمس عن عيونهم مسرعين جهدهم . وقد دام هذا الاسراع بالنفور الى مزدلفة حتى الاسلام حيث أمرهم النبي ان يسيروا ببطء . يروى عن ابن عباس انه دفع مع النبي يوم عرفة فسمع النبي وراءه زجراً شديداً وضرباً وصوتاً للأبل ، فاشار بسوطه اليهم وقال : ايها الناس عليكم بالسكينة فان البرّ ليس بالايضاع [٤] اي الاسراع .

يصلون المزدلفة ، وهو موضع قريب من عرفة . قيل انه سمي بذلك - في بعض الروايات - لانهم يزدلفون الى الله اي يتقربون [٥]. وفيه يقضون ليلتهم متعبدين بينا تكون نيران « قزح » ملتهبة هناك ،

---

(١) ص ٢٠٠ ج ٢ Enc. of Islam
(٢) ص ٨٤ ج ١ - الكشاف عن حقائق غوامض التنزيل
(٣) ص ٦٤٦ ج ٣ معجم البلدان
(٤) ص ٢٠١ ج ٢ - صحيح البخاري
(٥) ص ٨٤ ج ١ - الكشاف... للزمخشري

ينتظرين شروق « الألهة » .. حيث كانوا لا يفيضون من « جمع » حتى تشرق الشمس على « ثبير » [1] ويقولون : « اشرق ثبير كيما نغير » [2] وثبير جبل بمكة ، يقولون له ادخل يا ثبير في الشروق حتى نسرع للنحر [3].

فمع طلوع الشمس اذاً كانوا ينفرون الى وادي « منى » حيث يرمون الحجارة في اماكن معينة هناك [4] . إما رجماً للشيطان – او كما يظن البعض – تغطية لذاك المكان بالحصباء خوفاً من زوع المكيّين له [5]. ويظهر ان اول ما يصلون منى يباشرون في الذبح ، فقيل ان منى سمي بذلك لما يمنى به من الدماء التي تراق فيه [6] . ولما كان الذبح من اهم واقدم الشعائر التي كانوا يتقربون بها الى آلهتهم ، لذلك نرى من الفائدة ان نسهب شيئاً في الكلام عن هذه العادة .

الذبـــح : وهي عادة لم تخلق اعتباطاً بين الجاهليين ، بل يجب ان يكون للذبح عند الساميين ، والعرب خاصة ، فلسفة غير مجرد هـــذا العمل الوحشي ، ولا نشك في ان الاطعام سبب من اسبابها المباشرة . اما ان يقدموا على سفك دم الحيوان المسكين ، تاركين قسماً كبيراً من ضحاياه للوحش والطير والجوارح ، ويكون السبب وحشياً محضاً ، فلا ارضاه لهؤلاء الاقوام ، مهما كانوا عليه من البداوة والفطرة . وهم إن قدموا القرابين لآلهتهم فلا يكون ذلك ضريبة جبرية ، وانما حباً باشراكهم لهم واتحادهم معهم ، ولهذا رووا ان الجاهليين كانوا يعينون شيئاً من حرث ونتاج لله يصرفونه للضيفان والمساكين ، (وكثيراً ما حسب هؤلاء وغيرهم ، حتى بعض الحيوانات ضيوفاً على الالهة) ، وشيئاً

---

(١) وقد خالفهم النبي فافاض قبل ان تطلع الشمس – ص ٥٣ ج ٥ – صحيح البخاري

(٢) ص ٩١٧ ج ١ – معجم البلدان

(٣) يراجع ص ٣١٠ ج ١ – الامثال للميداني

(٤) اطلب المحصب ، والجمر في معجم البلدان .

(٥) ص ٢٠٠ ج ٢ Enc. of Islam

(٦) ص ٦٤٢ ج ٤ معجم البلدان

منها لآلهتهم ينفقونه على سدنتها [1] . وبهذا نزلت الآية : « وجعلوا لله مما ذرأ من الحرّث والانعام نصيباً فقالوا هذا لله بزعمهم ، وهذا لشركائنا »[2].

وكانوا يرون في التضحية عاملين رئيسيين : الاول انتقال دم الضحية الحار الى المعبود الذي يكتفي به ، ولهذا نراهم يصبون الدماء على رؤوس الانصاب والاصنام تسكينا لغضب الأله وطلباً لرضائه . والثاني انحلال لحمها ودمها في لحوم العباد ودمائها .. ولربما كان اقدم وصف لعملية الذبح ما جاء به نيلوس سنة ٤١٠ للميلاد . وقد عرّب الاب شيخو ما وصف هذا الكاتب مما كان دارجاً عند عرب الشمال – وخصوصاً عرب بطرا ودومة الجندل – في مثل هذه المناسك ، نثبته فيما يلي :

« وليس لهؤلاء الهمج دين إلا انهم يكرمون كوكب الصبح (العزى) ويخرون له ساجدين ، ويضحون له اجود اسراهم الذين اخذوهم في الغزوات ، وهم يفضلون لذلك الشبان اذا كانوا في عز الشباب ، وصبيحي الوجوه . ويعدون لهذه الغاية مذبحاً من الحجارة والصخور التي يكوّمونها وينتظرون الفجر حتى اذا لاح كوكب الصبح يضربون الضحية بالسيوف ويشربون دمها .. وعادتهم اذا لم يقع في يدهم احد من الاسرى ان يضحوا ناقة من العيس خالصة البياض ، فينيخونها ويدورون حولها ثلاثاً ، ثم يتقدم كاهنهم او زعيمهم بكل رونق ، وهم يتغنون باغانيهم ، فيضرب بسيف اوداج الناقة ، ويتلقى دمها فيشربه ثم يركض الباقون ، ويقطع كل منهم قطعة من الذبيحة فيأكلونها نيّئة ، ويسرعون في ذلك لئلا يبقى شيء من الجزور حتى الجلد والعظام عند طلوع الشمس »[3] .

فاذا صدق نيلوس ، كان هذا الذبح العربي القديم من اخشن اعمال

---

(١) ص ٣١٠ ج ١ البيضاوي

(٢) القرآن الكريم : س ٦ آية ١٣٧

(٣) ص ١٦ – النصرانية وآدابها .

الانسان في تقديم القربان ، وتكون بذلك الآلهة القديمة اخشن قلوباً من عبادها لتطلبها غير النذور من الحيوان مرضاة لها ، فتقدموا لها بالانسان نفسه .

وكنا اشرنا الى قتل المنذر أسيره ابن ملك غسان ، وعدداً كبيراً من رواهب العراق ارضاء لقاسية القلب ، الآلهة العزى .

ومن المحتمل ان تكون هذه الهمجية الدينية المتأتية عن الخوف من الآلهة سبباً من الاسباب التي دفعت افراداً من العرب في بعض القبائل الى وأد بناتهم ، فقيل بعد ان طال الزمن وعفّى على الاسباب البعيدة للوأد انهم فعلوا ذلك خشية العار والاملاق ، ومن ثم نزلت الآية : « ولا تقتلوا اولادكم خشية املاق » [1] .

كما وأن قصة اقدام ابراهيم على ذبح احد ابنائه ، لا بد وان تكون معروفة بينهم ، يلخصها القرآن بما يلي : « رب هب لي من الصالحين ، فبشرناه بغلام حليم ، فلما بلغ معه السعي ، قال يا بني اني ارى في المنام اني اذبحك فانظر ماذا ترى . قال يا أبت افعل ما تؤمر ستجدني إن شاء الله من الصابرين . فلما اسلما ، وتله للجبين ، وناديناه ان يا ابراهيم قد صدقت الرؤيا انا كذلك نجزي المحسنين ، ان هذا لهو البلاء المبين . وفديناه بذبح عظيم » [2] ... وكذلك نذر عبد المطلب ذبح ولده عبد الله ، وقد مر حديث ذلك .

والظاهر ان مثل هذه النذور العرضية لم تكف لارضاء الآلهة القديمة ، فقد حدثوا ان في بعض الاماكن من كان يثابر على تقديم الضحية البشرية كل سنة . وممن شهد على ذلك برفيروس الفيلسوف الوثني في القرن الثاني للمسيح قال : « ان اهل دومة الجندل كانوا كل سنة يضحون لآلهتهم رجلاً ثم يدفنونه بقرب المذبح » [3] . كما ان البعض في اماكن اخرى

---

(١) القرآن الكريم : س ١٧ آية ٣٣ .

(٢) القرآن الكريم س ٣٧ آية ٩٨-١٠٨ . ويراجع قصص الانبياء ص ١٥٠-١٥٣

(٣) ص ١٦ — النصرانية وآدابها .

كانوا يعلقون الفريسة ما بين السماء والارض امام الصنم [1] .

هـذا ، ولعل اقدم المذابح عند الساميين في الشمال ، وعند العرب انفسهم في بلاد العرب كان – كما يرى سمث – حجراً ضخماً من الحجارة او ركاماً تسفك عليه دماء العتيرة . وهذا السفك البسيط على هذا الركام ، او ذاك الحجر يقدس الذبح ويجعل العتيرة قرباناً شرعياً . وبهـذا لا يكون فرق بين المذبح العبراني البسيط وبين النصب او الغري العربي [2] .

ولقد امتدت عادة الذبح في منى ايام الحج الى ما بعـد الاسلام . لذلك نرى في القرآن اشارة الى ما ذكرنا من مشاركة الآلهة عبادها في الفريسة حيث يقول تعالى : « لن ينال الله لحومها ولا دماؤها ولكن يناله التقوى منكم » [3] .

تقصير الشعور : في منى بعد الذبح ، وفي العاشر من ذي الحجـة ينتهي الحج وتنتهي مظاهره الكبرى . فالحج الحقيقي ، على ما يظهر ، هو ما وصفنا من سير الحج بعد انتهاء الاسواق الى عرفة ووقوفهم هناك . ثم إفاضتهم الى المزدلفة وبقـاؤهم ليلة موقدين النيران ، ثم نفورهم الى وادي منى حيث يذبحون ، ويحلق البعض رؤوسهم وينتهي الاحرام .

اما لماذا يحلقون في الحج شعورهم ، فلانه كان من غريب عاداتهم ان يلبدوا شعورهم قبل حجهم حتى وصولهم الى منى . والتلبيد – كما ذكر الجاحظ – هو اخذهم شيئاً من خطمي وآس وسرو ، وشيئاً من صمغ . يجعلونـه في اصول شعورهم وعلى رؤوسهم كي يتلبد الشعر فلا يفرق ، ويدخله الغبار ويخم فيقمل [4] . ولعل فيما جاء في تاج العروس شيئاً من ايضاح الاسباب العميقة التي توصل بها البعض – ولعلهم الفقراء من سدنة منى نفسها – الى جعل العرب يقومون بهذه العادة الغريبة لغرض مادي ايضاً .

---

(١) ص ٣٧٠ Smith : Religion of the Semites

(٢) ص ٢٠٢–٢٠٣ نفس المصدر .

(٣) القرآن الكريم : س ٢٢ آية ٢٨

(٤) ص ١١٤ ج ٥ – البيان والتبين للجاحظ

ذكر صاحب التاج قول ابن الكلبي ان اهل اليمن كانوا اذا حلقوا رؤوسهم بمنى : وضع كل رجل على رأسه قبضة دقيق ، فاذا حلقوا رؤوسهم سقط الشعر مع ذلك الدقيق . ويجعلون ذلك الدقيق صدقة . فكان اناس من اسد وقيس يأخذون ذلك الشعر بدقيقه ، يرمون الشعر وينتفعون بالدقيق [1] . ولا ارى بعيداً ان اولئك الاقوام وغيرهم انما كانوا ينتفعون بالشعر ايضاً . وبغير ما ذكرنا لا نفسر التلبيد والحلق ، ولا نقبل مطلقاً سبباً دينياً محضاً .

ولم تكن عملية التقصير والحلق تحصل في منى فقط ، اذ كان هنالك بينهم من لا يرى تماماً لحجه الا اذا جاء صنمه وحلق عنده . ذكر ابن الكلبي حديث رجل من قريش قال : « كانت الاوس والخزرج ومن يأخذ بأخذهم من عرب اهل يثرب وغيرها ... يحجون فيقفون مع الناس المواقف كلها ولا يحلقون رؤوسهم . فاذا نفروا اتوه (يعني صنم مناة) فحلقوا رؤوسهم عنده واقاموا عنده . لا يرون لحجهم تماماً الا بذلك» [2] .

وقد جاء بيت لزهير بن ابي سلمى في قصيدته الجميلة : « صحا القلب عن سلمى وقد كان لا يسلو » يشير الى هذه العادة وهو قوله :

فاقسمت جهداً بالمنازل من منى وما سحقت فيه المقادم والقمل [3]

وفي رواية ابن الكلبي : « حلفت بانصاب الاقيصر جاهداً » [4] وهي رواية تفيد ايضاً انهم كانوا يحلقون عند اصنامهم .

وامتدت هذه العادة حتى دخلت الاسلام . وامر النبي بالحلق او التقصير ، وكان يقول : اللهم ارحم المحلقين والمقصرين [5] .

العمرة والسعي : اما ما يسمونه « العمرة » - وفيها ايضاً يحرمون ،

---

(١) ص ٤٨٦ ج ٣ - تاج العروس

(٢) ص ١٤ كتاب الاصنام

(٣) ص ٨٩ - العقد الثمين في دواوين الشعراء الجاهليين

(٤) ص ٣٨ كتاب الاصنام . راجع ص ٣٤٠ ج ١ : معجم البلدان

(٥) ص ٢١٣ ج ٢ صحيح البخاري

ومن اخص اعمالهـــا الطواف بالبيت - فهي على ما نرى حج اصغر لا يجوز ان يقوموا به في اشهر الحج . حتى انهم « كانوا يرون ان العمرة في اشهر الحج من افجر الفجور في الارض »[١] .

ولعل غالب اعتمارهم في رجب - وان جاز الاعتمار طوال السنة - والسبب ، كما اراه واضحاً ، هو حرمة هذا الشهر . والاشهر الحرم كما هو معلوم اربعة : ذو القعدة ، وذو الحجة ، والمحرم ورجب . فلمـــا حرموا العمرة في الثلاثة الاولى ، وكان الرابع « رجب » شهراً حراماً ، رأوا ان يفدوا الى مكة به حتى يكونوا آمنين على نفوسهم واموالهم عند الاعتمار.

والاعتمار او العمرة لغةً ، القصد ، كالحج . وتسمى بالحج الاصغر[٢] وعملا ، كما قال الزجاج : الطواف بالبيت والسعي بين الصفا والمروة[٣] . كما انها تفترق عن الحج كونهـــا للانسان في السنة كلها ، والحج وقت واحد في السنة ، وذلك في اشهر معلومات : شوال وذي القعدة ، وعشرة من ذي الحجة[٤] .

واما السعي بين الصفا والمروة ، فعادة وثنية قديمة . وكنا ذكرنا انه كان على الصفا والمروة اساف ونائلة ، يسعون بينهما ويتمسحون بهما . ولربما ارجعو هذه العادة الى هاجر نفسها ، وذلك حينما عطش طفلهـــا اسماعيل ، واخذ يتلوى من شدة العطش في مكان زمزم « قبل ان يكون ماء في زعمهم » يوم اخذت تصعد تارة الى الصفا وتنحدر طوراً الى المروة تسعى سعي الانسان المجهود . ولقد نسبوا تعليق السعي بفعل هاجر الى النبي قائلا : فلذلك سعى الناس بينهما[٥] .

واستمرت هذه العادة ايضاً حتى اصبحت شعيرة من شعائر الحج في

---

(١) ص ١٧٥ ج ٢ صحيح البخاري

(٢) ص ١٤٧٠ ج ٢ محيط المحيط لبطرس البستاني

(٣) ص ٤٢٢ ج ٣ - تاج العروس

(٤) راجع ص ٢٨٢ ج ٦ لسان العرب

(٥) ص ١٠٦ ج ١ تاريخ الخميس .

الاسلام . ولما كان السعي عملا دينياً في الجاهلية ، لذلك تهيب الناس القيام به في الاسلام ، فجاءتهم الآية : « ان الصفا والمروة من شعائر الله فمن حج البيت او اعتمر فلا جناح عليه ان يطوف بهما ومن تطوع خيراً فان الله شاكر عليم »[1] .

الطواف والتلبية : ولعل الطواف عند الذبح بالصنم او الحجر المؤله هو اصل الطواف الذي كانت تقوم به قريش والعرب قبل الاسلام حول الكعبة . كما ان التهليلات التي كانوا يرددونها لا يستبعد ان تكون تطوراً لصراخهم الذي كان يصطحب قتل الضحية ، والذي يمكن ان يكون في شكله الاول ندباً على موتها ، بل ان « سمث » يرى ان هـذا الندب الذي اتخذ شكل مديح مرتل – كما وصف نيلوس – قد انحط الى ترديد الكلمة : « لبيك » لا معنى له[2] . وهو يرى ايضاً ان التهليل كان يصطحب الرقص حول المذبح حيث ان الرقص – في نظره – والغناء ما كانا لينفصلا في العصور الأولى[3] .

ومن هذا القبيل قولهم : « سميت مكة لان العرب في الجاهلية كانت تقول لا يتم حجنا حتى نأتي مكان الكعبة فنمك فيه ، اي نصفر صفير المكاء حول الكعبة ، وكانوا يصفرون ويصفقون بايديهم اذا طافوا بها »[4] وقد جاء في الكتاب : « وما كان صلاتهم عند البيت إلا مكاء وتصدية »[5] وهما لا يختلفان كثيراً عن نغم الذين كانوا يطوفون بالاقيصر وغيره . قال ربيع بن ضبع الفزاري :

فانني والذي نغـم الاله له حول الاقيصر تسبيح وتهليل[6]

---

(١) القرآن الكريم س ٢ آية ١٥٣

(٢) ص ٤٣١ – ٤٣٢ : Smith : Rel. of the Semites

(٣) ص ٣٤٠ نفس المصدر .

(٤) ص ٦١٦ ج ٤ معجم البلدان .

(٥) القرآن الكريم س ٨ آية ٣٥ .

(٦) ص ٣٩ كتاب الاصنام .

واما تلبياتهم فكانت تختلف باختلاف القبائل حتي كاد ان يكون لكل قبيلة كبيرة تلبية خاصة بها . قال اليعقوبي : « كانت العرب اذا ارادت حج البيت الحرام ، وقفت كل قبيلة عند صنمها وصلوا عنده ثم تلبوا حتى تقدموا مكة فكانت تلبياتهم مختلفة »[1] فلتراجع في مكانها من تاريخه ، على اننا نثبت منها تلبيات ثلاث قبائل : تلبية قريش :

لبيك اللهم لبيك   لبيك لا شريك لك
تملكه وما ملك

وتلبية تميم :

لبيك اللهـم لبيك   لبيك لبيك عن تميم
قد تراها أخلقت اثوابها   واثواب من وراءها
وأخلصت لربها دعاءها

وتلبية ثقيف : لبيك اللهم ... ان ثقيفاً قد أتوك واخلفوا المال وقد رجوك .

وقد ذكر ابن الكلبي في كتابه الاصنام : تلبية نزار :

لبيك اللهم لبيك ، لبيك لا شريك ، إلا شريك هو لك تملكه وما ملك .

وتلبية عك . وكانت اذا خرجت للحج ، قدمت امامها غلامين أسودين من غلمانها يقولان .

نحن غرابا عك !

فتقول عك من بعدهما .

عك اليك عانية   عبادك اليمانية
كيما نحج الثانية[2]

هذا ، ولم تختلف التلبية في الاسلام عما كانت عليه من صيغها والفاظها.

---

(١) ص ٢٩٦ ج ١ تاريخ ابن واضح اليعقوبي .

(٢) ص ٧ كتاب الاصنام .

رووا عن عائشة قالت : « اني لاعلم كيف كان النبي ﷺ يلبي : لبيك اللهم لبيك ؛ لبيك لا شريك لبيك ، ان الحمد والنعمة لك » [١] .

النسيء والحمس : ذكرنا في السابق ما كان عليه العرب من تعظيم لامكنة خاصة وشهور معينة يتحرجون فيها القتال ، لا يسفكون دماً ولا يقترفون مظلمة .. ولما كان الاخذ والعطاء يحتاجان امناً وسكينة ، لذلك وجدناهم يقيمون اعظم اسواقهم في الاشهر الحرم ، حتى ان الرجل كان يلقى فيها قاتل ابيه او اخيه فلا يهيجه [٢] . على ان منهم من شذ عن هذه القاعدة فاستحلوا المظالم في هذه الاسواق ، ولهذا سموا « بالمحلّين » فأنكر عليهم البعض ذلك ، ونصبوا انفسهم لنصرة المظلوم ، والمنع من سفك الدماء ، وارتكاب المنكر فسموا « بالذادة المحرّمين » . ولبسوا السلاح لدفعهم عن الناس ، والعرب بين اولئك وهؤلاء يضعون اسلحتهم في الاشهر الحرم [٣] .

وليس بعجيب ان يشذ اناس ويستحلوا حرمة هذه الاسواق ، فقد كان يحدث ما ينتهك حرمة الحج نفسه في الاشهر الحرم ، وهذا الشنفرى - كما يروى - يقدم منى وبها حرام بن جابر فيقال له : هذا قاتل ابيك ، فيشد عليه ويقتله ، ثم يسبق الناس على رجليه وهو يقول :

قتلت حراماً مهدياً بملبد ببطن منى وسط الحجيج المصوت

وهذا البيت في قصيدته التائية الرائعة التي يقول في مطلعها :

أرى ام عمرو أزمعت فاستقلت وما ودعت جيرانها إذ تولت [٤]

ولا بأس .. فالبدوي مهما قوي دينه - وهو ضعيفه عادة - لا يصده عن طلب ثأره ، فكيف يسكت هذا الصعلوك المتشرد عن قاتل أبيه ؟ لا أظنه فاعلا حتى ولو كان في جوار البيت . وكيف لا يقدم

---

(١) ص ١٧٠ ج ٢ صحيح البخاري .
(٢) ص ٩٦ ج ٣ بلوغ الارب .
(٣) راجع ص ٣١٤-٣١٥ ج ١ - تاريخ اليعقوبي .
(٤) راجع اخبار الشنفرى في ص ١٣٤-١٤٣ ج ٢١ من كتاب الاغاني

على الأخذ بثأر ابيه وهناك ، حتى اوائل هذا القرن ، أعراب كانت في الحجاز تنتهك حرمة الحجاج او تقدم على قتلهم ،. احياناً ، اذا لم يستسلموا لنهب أموالهم . ولعلّ الفقر المدقع وضعف اليد المسيطرة هما سبب القدوم على سلب الحجيج ونهبه ، فكيف بالشنفرى والقضية قضية ثأر ؟؟

هذا ، ولما كانت وطأة الاشهرَ الحرم ثقيلة عليهم يضجرهم تتابع اشهر ثلاثة متواصلة منها ، لذلك رأوا في النسيء مذهباً يحلهم من هذا القيد .

والنسيء يعطي في اللغة معنى التأخير . وأصله من نسأت الشيء اذا أخرته[1] يقول جران العود :

فتقضيني مواعـد منسآت   واقضي ما علي من النذور[2]

وجاء في ابن هشام : « كانوا ينسئون الشهور على العرب في الجاهلية فيحلون الشهر من اشهر الحرم ، ويحرمون مكانه الشهر من اشهر الحل ، ويؤخرون ذلك الشهر »[3] وفي الامالي : « كانوا اذا صدروا عن منى قام رجل من بني كنانة يقال له نعيم بن ثعلبة فقال : انا الذي لا اعاب ولا يرد لي قضاء . فيقولون له انسئنا شهراً اي أخر عنا حرمة المحرم فاجعلها في صفر . وذلك لانهم كانوا يكرهون ان تتوالى عليهم ثلاثة اشهر لا تمكنهم الاغارة فيها لان معاشهم كان من الاغارة . فيحل لهم المحرم ، ويحرم عليهم صفرا ، فاذا كانت السنة المقبلة حرّم عليهم المحرم وأحل لهم صفراً »[4]. ولهذا نزلت تحرم عليهم النسيء الآية : « انما النسيء زيادة في الكفر يضل به الذين كفروا يحلونه عاماً ويحرمونه عاماً »[5].

ومن العرب من كان لهم ثمانية اشهر حرم وهي البسل فيما يزعمون . كانت لبني لؤي من بين العرب كل سنة ، قد عرفت لهم العرب ذلك ،

(١) راجع المعاجم .
(٢) ص ٢٦ – ديوان جران العود .
(٣) ص ٢٩ – ٣٠ السيرة .
(٤) ص ٥ – ٦ ج ١ كتاب الامالي لابي علي القالي .
(٥) القرآن الكريم س ٩ آية ٣٧ . راجع تفسير الطبري والزمخشري .

لا ينكرونه ولا يدفعونه ، يسيرون بها الى اي بلاد العرب شاءوا لا يخافون فيها شيئاً [١] .

وكانت قريش قد ابتدعت امر الحمس ، ولا ندري متى ؟ والاحمس في اللغـة من حمس . وهو المتشدد بالدين ، والحمس لقب لقريش ومن ولدت [٢] . ولعلهم استغلوا نفوذهم في قبائل العرب ، وسذاجة من حولهم ، ولم يكتفوا بالزعامة التجارية التي كانت تتجلى في الاسواق ، بل آلوا على انفسهم ان يصطبغوا بصبغة دينية – ولعلها وسيـلة للسيطرة التجارية ايضاً – لينفردوا بالحرمـة والتقديس ، وليتمكنوا من التمويه على الناس محافظة على تلك الزعامة .

ومما كانوا يقولون فيما بينهم : « نحن بنو ابراهيم ، واهل الحرمة ، وولاة البيت ، وقاطن مكة وساكنها فليس لاحد من العرب مثـل حقنا ، ولا مثل منزلنا ، ولا تعرف له العرب مثل ما تعرف لنا ، فلا تعظموا شيئاً من الحـل كما تعظمون الحرم ، فانكم ان فعلتم ذلك استخفت العرب بحرمتكم ، وقالوا قـد عظموا من الحل مثل ما عظموا من الحرم » [٣] .

والكتاب بقوله : « وافيضوا من حيث افاض الناس » [٤] يشير الى تركهم الوقوف على عرفة والافاضة منهـا . وهم يرون لسائر العرب ان يقفوا عليها وان يفيضوا منها . إلا انهم قالوا : نحن اهل الحرم فليس ينبغي لنا ان نخرج من الحرمة . وهذا يدل على مقدار تمسكهم بتلك المكانة التي كانت لهم .

ثم ابتدعوا اموراً لم تكن ، فرضوها على انفسهم . فاذا نسكوا لم يدخلوا البيوت من ابوابها ، ولا استظلوا إلا قبـاب الأدم ، ولم يمسوا

---

(١) ص ٦٦ – السيرة .

(٢) ص ١٣٢ ج ٤ – تاج العروس .

(٣) ١٢٦ السيرة

(٤) القرآن الكريم س ٢ آية ١٩٩

النساء ولا الطيب ولم يسلؤا سمناً ، ولا ادخروا لبناً ، ولا اكلو لحماً[1].

واحبوا ان يعمموا شيئاً على أهل الحل ، فقالوا لا ينبغي لهم ان يأكلوا طعاماً جاءوا به معهم من الحل الى الحرم .. كما يجب على اهل الحل ان لا يطوفوا إلا في ثياب الحمس ، فان لم يجدوا طافوا في البيت عراة . اما الرجال فكما خلقهم الله .. واما النساء فتضع الواحدة درعاً مفرجاً عليها[2] . وجاء في البخاري ما يفيد ذلك[3] .

وليس بعيداً ان يكون وراء اشتراطهم هذا ، واعني تحريمهم على الناس اكل ما جاءوا به من طعام من الحل الى الحرم ، وطوافهم الا في ثياب أحمس ، سبب آخر غير التحريم والتحليل .. الا وهو رواج ما عندهم في مواسم الحج من مأكول وملبوس ، وفي ذلك ما فيه من الاستفادة التجارية .. وهل معايشهم - كما قال عمر - الا من التجارة في الحج ؟

وقد حرم النبي على العرب فيما حرم طوافهم بالبيت عراة ، وذلك حينما أمر قبل حجة الوداع ان يؤذن في الناس الا يحج بعد العام مشرك ولا يطوف بالبيت عريان[4] .. كما نزلت الآية تقول : « خذوا زينتكم عند كل مسجد »[5] .

---

(١) ص ٢٩٨ ج ١ تاريخ اليعقوبي .

(٢) ص ١٢٨ السيرة

(٣) ص ٢٠٠ ج ٢ صحيح البخاري .

(٤) ص ١٨٨ ج ٢ نفس المصدر

(٥) القرآن الكريم س ٧ آية ٣٠ .

الباب السادس

أساطير الأولين

الفصل الاول : قحطان وعدنان

تمهيد ـ القحطانيون والعدنانيون ـ الاختلاف بين الشعبين

تمهيد : لا يمكن لباحث ان يضع تاريخاً كاملاً لحياة فرد او شعب الا بعد ان يقف على جميع ما له صلة بعيدة او مباشرة بهذا او ذاك . ولهذا نرى ان من اسقم التواريخ تاريخ العرب قبل الاسلام . وكلما اوغلنا فيما وراء الهجرة زاد هذا التاريخ غموضاً على غموض . ولو لم يكتشف المنقبون شيئاً من النقوش لظل الكثير من هذا التاريخ في سدفة من الابهام . فغني عن البيان اذاً ان مثل هذه النقوش المكتشفة في بلاد العرب قد اوضحت نواحي لم تتخللها مشاعل المؤرخين اليونان ولا العرب انفسهم وإن كانت لا تزال اقل من ان تمكننا من رسم الحدود المطلوبة لهذا التاريخ .

هذا ، وتعتبر التوراة من اقدم المصادر التي تعرضت لتاريخ الجاهلية فذكرت اشياء عن العرب القدماء . ولقد ذكر العرب ايضاً في الآداب اليونانية حيث مر بهم ايسخلس Aeschylus (٥٢٥ – ٤٥٦ ق. م).وتبعه ابو التاريخ هيرودتس (٤٨٤ – ٤٢٥ ق. م.) ثم ديودورس الصقلي ،

ويلي هؤلاء جغرافيان نبغ الاول في فجر التاريخ الميلادي وهو الرحالة استرابون اليوناني ، والثاني في اواسط القرن الثاني للميلاد وهو

بطليموس . وقد خصصا في مؤلفيهما قسماً وافراً للعرب فذكرا الكثير عن احوال قبائلهم واماكنهم .

وبين ما ذكرنا ، وبعدهم نبغ آخرون نتركهم لمن يشاء ان يستقصي تاريخ العرب القدماء ، فلقد قيل انهم اوردوا نتفاً ههنا وهناك لا تخلو من فائدة للباحث في هذا الموضوع الشائك الشائق .

ومما لا ريب فيه ان اهم المصادر – بعد النقوش والآثار – واوسعها كتابة هي التواريخ العامة التي وضعها مؤلفو العرب . ولا بأس من ذكر بعضها في هذا السياق امثال السيرة لابن اسحاق (١٥١ هـ.) وهي رواية ابن هشام (٢١٨) وكتاب المعارف لابن قتيبة (٢٧٦) وتاريخ ابن واضح اليعقوبي (٢٧٧) وتاريخ الرسل والملوك للطبري (٣١٠) ومروج الذهب للمسعودي (٣٤٦) ثم ابن الاثير وابو الفدا وابن كثير وابن خلدون .

ويجب ان لا ننسى الكتب الجغرافية كصفة جزيرة العرب والاكليل (٨) للهمذاني (٣٣٤) ومعجم ما استعجم للبكري (٤٨٧) ومعجم البلدان لياقوت (٦٢٦)

وهنالك اخبار وامثال واشعار كثيرة في الكتب الادبية كالعقد لابن عبد ربه (٣٢٨) والاغاني لابي الفرج الاصبهاني (٣٥٦) والدواوين الجاهلية المعروفة ، والحماستين والجمهرة والمفضليات والشعر والشعراء ، وطبقات الشعراء ، ومجمع الامثال وكلها مآخذ هامة يحتاج اليها المؤرخ والاديب على السواء . ولا يسعنا هنا الا ان نشير الى الكتب التاريخية والادبية الاخرى التي لا بد للمؤرخ والاديب من الاطلاع عليها .

ومن دواعي الاسف ان تمتلىء الروايات الكثيرة التباساً وخلطاً لا يفوتان الباحث المحقق . ولقد اشار ثتشر Thatcher الى ذلك فقال : ان من عادة المؤرخين العرب ان يبدأوا تواريخهم بنشأة الخليقة ثم ينحدرون بها الى الزمان الذي يعيشون فيه . وبالنتيجة يكون حتى أحكم التواريخ محشواً بخزعبلات السنين الأولى [١] .

---

(١) ص ٢٦٣ ج ٢ Enc. Brit. .

ولعل اهم الاسباب التي جعلت سبيلاً الي تخلل الالتباس والخلط هو عدم التدوين وتناقل الاخبار اجيالاً دون ضابط حتى ظهر ذلك جلياً في الانساب وهي التي اهتمّ بها الرواة جد الاهتمام . ولا سبيل الى الاستشهاد في هذا الموضع فهي اوضح من ان يشار اليها لمطالع تلك الكتب . ولقد كان ابن خلدون على حق حينما أشار الى قول ابن حزم بعد ذكره انساب التبابعة مثلاً : « وفي انسابهم اختلاط وتخليط وتقديم وتأخير ونقصان وزيادة . ولا يصح من كتب اخبار التبابعة وانسابهم الا طرف يسير لاختلاف رواياتهم وبعد العهد »[1] . ولا مرى هذا القول الا صادقاً في انساب القبائل الاخرى . وفي التالي يصدق ايضاً على بقية اخبارهم التي يروونها عنهم في حوادث ما قبل الاسلام .

القحطانيون والعدنانيون : لا شك في ان جزيرة العرب من اقدم البلاد التي دب عليها الانسان الاول واسس فيها على مر العصور حضارات ترجع الى ما قبل المسيح باجيال واجيال .

هذه الجزيرة التي يحفها شاطىء الفرات الاعلى وسيف حضرموت وساحلا الاحمر والفارسي من جهاتها الاربع ، تعد من اكبر صحاري الارض المعروفة ، وهي ارض الساميين ، والبعض يظن انها وطنهم الاصلي . وبالرغم من ان ذلك لا يمكن ان يكون القول الفصل ، فان دراسات المختصين بالشؤون السامية ، اللغوية منها والاثرية قد اظهرت احتمال ذلك ، فالرحيل من الجزيرة سهل التصور ، والهجرة الى اطرافها الشمالية الخصبة كانت ولا تزال طبيعية ، وان لم يعرف التاريخ شيئاً واضحاً عن تلك الهجرات الاولى[2] . اما النظرية الافريقية التي يأخذ بها من يعتبر ان هنالك صلات نسب بين الساميين والحاميين ، والتي تقول ان موطن الساميين الاول هو افريقية الشرقية ، فانها ترزح تحت الكثير من الأسئلة

(١) ص ٥٨ ج ٢ تاريخ ابن خلدون .

(٢) ص ٢٦٣ ج ٢ .Enc. Brit

التي لا تجيب عليها ، وكذلك النظرية العراقية التي تقول بان Mesopotamia هي الموطن الاصلي ، وبذلك تصطدم بنظام التطور الاجتماعي ، وتنقل شعباً على ضفاف نهر خصب من عهد زراعي زاهر الى عهد بداوة . وعليه تظل النظرية التي تقول ان بلاد العرب موطن الساميين الاصلي اكثر قبولاً من غيرها [1] .

وكانت هذه الجزيرة منذ البدء تنقسم ، او اعتادوا ان يقسموها الى قسمين رئيسيين : جنوبي وشمالي . ليس فقط لانهما منفصلان بما يسمونه بالربع الخالي وانما لان الكثيرين من مؤرخي العرب ومن تبعهم ايضاً ميزوا بين شعبين كبيرين ينتسب اليهما كافة العرب . وهما الشعب القحطاني وفروعه في اليمن وغيرها ، والشعب العدناني وفروعه في الحجاز وما يليها .

حتى ان بدوي اليوم إذا قال عن اناس « ما لهم اصل » ، فلربما فهم من كلامه انهم لا ينتسبون الى قحطان او عدنان ، فهم ليسوا بعرب [2] . فاذا ما قلنا قحطانيون فانما نعني بذلك القبائل اليمنية التي تنتسب الى قحطان « وقحطان ابو اليمن كلها » [3] . وعلى ذلك اجمع المؤرخون . وهو اول من ملك اليمن على رأي الطبري [4] الا انه ، وان اجمع المؤرخون على نسبة القحطانيين له ، وعلى انه ابو القبائل اليمنية ، فانهم اختلفوا في نسبه نفسه . فالبعض يصله باسماعيل بسلسلة هما طرفاها ، وبينهما حلقات ثلاث . والبعض ، وهو الاشهر ، يلحقه بنوح في قولهم : هو قحطان بن فالغ بن عابر بن شالخ بن ارفخشد بن نوح [5] . وهذه الاسماء هي ، كما يرى البعض ، تعريب بسيط لما جاء منها بالعهد القديم [6]

---

(١) ص ١٠ Ph . Hitti : History of the Arabs .

(٢) ص ٢٨٢ ج ١ Ch. M. Doughty : Travels in Arabia Deserta

(٣) ص ٤ – السيرة

(٤) ص ٢١٧ ج ١ – تاريخ الطبري

(٥) ص ٢٤٠٠ ج ٣ نفس المصدر

(٧) ص ٦٢٩ ج ٢ Enc. of Islam

ولقد ذكر المسعودي : « ان قحطان هو (يقطن) وانما عُرّب فقيل له قحطان »[1] .

ومن قحطان يتفرع اكبر قبيلتين ينتسب اليهما فيما بعد بطون اليمن ، ونعني بهما حمير وكهلان. وهما كما يقول المسعودي ايضاً ، ابنا سبأ بن يشجب بن يعرب بن قحطان[2] .

ورجوعاً الى ما مر معنا تكون السلسلة كما يلي :

نوح
•
•
•
•
قحطان
يعرب
يشجب
سبأ

حمير　　　　كهلان

ولقد برهنت النقوش التي ترجع الى القرن التاسع ق. م. (ومنهم من يرجعها الى القرن السادس عشر ق. م) على وجود اربع ممالك متحضرة على الاقل في خلال تلك العصور القديمة وهي : المعينية ، والسبأية ، والقتبانية ، والحضرمية[3]. ويشير زيدان الى ذكر استربون لها مع عواصمها على التوالي : قرنا ، مأرب ، تمناء ، شبوة[4].

على ان قليلاً جداً ما هو معروف عن المملكتين الاخيرتين ، ولهذا

---

(١) ص ١٤٣ ج ٣ مروج الذهب

(٢) ص ٧٠ التنبيه والاشراف

(٣) ص ٢٦٤ ج ٢ Enc. Brit

(٤) ص ١١١ العرب قبل الاسلام

كانت اهم الدول التي بلغنا خبرها هي المعينية ، والسبأيه ، والحميرية . ولم يعرف العرب على مـــا يظهر سوى الدولة الحميرية التي تنتسب الى حمير وارث ابيه سبأ . حتى ان بعضهم قصروا تاريخ العرب الى ثلاثة اقسام اولها السبأي والحميري مبتدئاً باوائل القرن الثامن ق. م (وهو في رأيهم تاريخ اقدم نقش يمني) وممتداً حتى اواخر القرن الخامس للميلاد حيث يبتدىء الدور الثاني او الجاهلي او ما قبيل الاسلام ، واما الثالث فمن الهجرة حتى يومنا هذا [١] .

هذا ، وكما تفرقت قبائل قحطان من قحطان ، كذلك من عدنان – كما يقول ابن اسحاق – تفرقت القبائل من ولد اسماعيل بن ابراهيم [٢] واليه ينتهي نسب النبي الذي – كما يرى الطبري – لا يختلف النسابون فيـه [٣] . ومن هذا يفهم ان عدنان وان اختلف في نسبه الذي يوصله الى اسماعيل ، فانه لا يوجد اختلاف في النسب الذي يوصله بمحمد . ولا بأس من ايراد نسب الرسول كما جاء في السيرة . فهو : محمد – عبدالله – عبد المطلب – هاشم – عبد مناف – قصي – كلاب – مرة – كعب – لؤي – غالب – فهر – مالك – النضر – كنانة – خزيمة – مدركة – الياس – مضر – نزار – معد – عدنان – [٤]. واننا لنذكر حلقات هذه السلسلة لانها اساس القبائل التي تفرعت وكونت الشعب الاسماعيلي او العدناني او المعدي او النزاري تمييزاً له عن الشعب الاول وهو القحطاني.

وكما كان لسبأ حمير وكهلان – او كما يقول « سمث » كهلان وقضاعة التي تنتسب الى قحطان عن طريق حمير [٥] – ، كذلك كان لنزار ربيعة ومضر اللذان تفرعت منهما اشهر القبائل الاسماعيلية فيما بعد. ولا بأس من رسم سلسلة تشير الى اهم هذه القبائل :

---

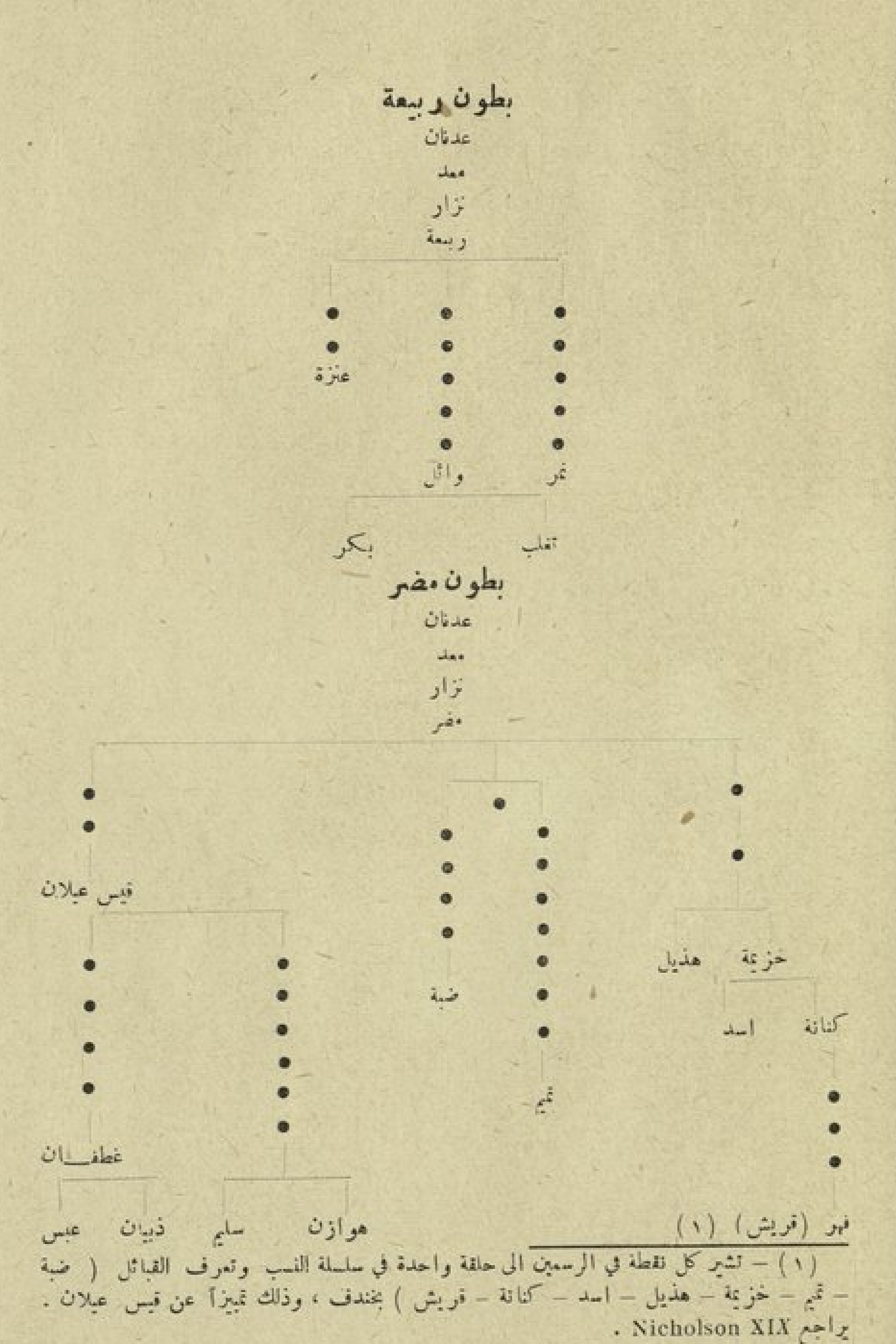
(١) ص R. A. Nicholson: A Literary History of the Arabs—XXVI

(٢) ص ٥ – ٦ السيرة

(٣) ص ٣ نفس المصدر

(٤) ص ١١١٢ ج ١ – تاريخ الطبري

(٥) ص ٨ R. Smith : Kinship and Marriage in Early Arabia



(١) – تشير كل نقطة في الرسمين الى حلقة واحدة في سلسلة النسب وتعرف القبائل (ضبة – تميم – خزيمة – هذيل – اسد – كنانة – قريش) بخندف ، وذلك تميزاً عن قيس عيلان . راجع Nicholson XIX .

الاختلاف بين الشعبين : ولا يصعب على الباحث ان يستنتج من الروايات التي تتعلق باحوال هذين الشعبين القحطاني والعدناني استنتاجاً عاماً شاملاً ، فيلاحظ ان اهل الجنوب كانوا يتمتعون بنظام اجتماعي أرقى بكثير من نظام عرب الشمال . فقد كان في اليمن استقرار أدى بهم الى بناء قصور وقلاع . وبالتالي الى حضارة ثابتة ، بينما سادت البداوة بين جيرانهم الشماليين فغلب عليهم الرحيل وعدم القرار ، ولهذا لم يتركوا ، كما ترك اهل الجنوب آثاراً كلما اكتشف منها شيء دل على عظمتهم ومضارهم في الرقي والحضارة .

وقد كان الشعبان في نزاع حتى الى زمن النبي . ولربما كان هذا النزاع قائماً في الاصل على ما بين البداوة والحضارة من نزاع مستمر[1] . وكان هذا النزاع يتجلى في اشتباك القبائل اليمنية والنزارية قبل الاسلام وفي المفاخرات التي كان يتنافس بها شعراء الفريقين كقولهم مثلاً :

اذا افتخرت قحطان يوماً بسؤدد

أتى فخرنا أعلى عليها وأسودا[2]

وتجلت هذه العداوة ايضاً بين الانصار اليمنيين وقريش . وقد بلغت حدتها بعد وفاة النبي . ومن ثم أثرت تأثيراً ظاهراً في القرنين الاولين من تاريخ الاسلام . ومما يروى في مروج الذهب : « وكان السفاح يعجبه المحادثة ومفاخرات العرب من نزار واليمن والمذاكرة بذلك »[3] .

والظاهر ان الاديان والمعتقدات والعادات واساليب المعيشة كانت ايضاً مختلفة عند الشعبين ، حتى ان هنالك اختلافاً بالاسماء الشائعة بينهما . ولعل اشهر وجوه الاختلاف بينهما اللغة[4] . فلقد كان لليمنيين لغة تختلف كل الاختلاف عن لغتنا العربية ، ولم يكن يعرفها من العرب

---

(١) راجع ص ٦٢٩ ج ٢ Enc. of Islam

(٢) ص ١٤٢ ج ٢ – مروج الذهب .

(٣) ص ١٣٦ ج٦ نفس المصدر .

(٤) ص ٦٢٩ ج ٢ Enc. of Islam

الشماليين (ان كان بينهم من يعرفها) إلا القليل القليل .

اما الشعراء اليمنيون الذين نبغوا في الجاهلية والاسلام فانهم من تلك القبائل اليمنية التي نزحت عن اليمن وسكنت بطن الجزيرة ، وشمال الحجاز والشام والعراق وغيرها من الاماكن في بلاد العرب ، والتي اصبحت لا تختلف عن غيرها من قبائل مضر وربيعة في العادات والمعتقدات واللغة . ولهذا نرى الكتب الأدبية تتكلم عنهم وعن شعرائهم كما تتكلم عن غيرهم من العرب الشماليين دون غيرهم . وعليهم معاً قصرت الآداب العربية بحوثها ومآثرها واشعارها . ولا عجب في ذلك فان ادب القوم لا يكون الا بلغة ذلك القوم . ولهذا نرى كل من عني بدرس الآداب العربية او اي فرع منها ، قديماً وحديثاً انما يتناول في حديثه شيئاً من اعمال عرب الحجاز ومن يليهم وان كان يتطرق الى احاديث اخرى تدور في جوهرها على ما له من صلة مباشرة او بعيدة بهم [1] .

الفصل الثاني : اساطير العرب البائدة

ولم تقتصر اساطير العرب على ذكر القريب من حوادث هذين الشعبين ، وانما قد تجاوزت حتى قحطان وعدنان . ولقد اشرنا في صفحات سابقة الى قصصهم عن بناء مكة والكعبة ، والى رواياتهم التي ترجع الى عهد اسماعيل وابراهيم منذ ان وفدا الى الحجاز في زمن لا نعرفه تماماً .

ومن المعلوم ان هنالك اساطير خاصة اخرى تناولت اقواماً قد سبقت عدنان في القدم عفى عليها الزمن وأبادها الدهر . وهم من اعتدنا ان نطلق عليهم اسم العرب البائدة . وأشهر قبائلهم عاد وثمود وطسم وجديس وجرهم والعمالقة .

اما عاد وثمود فشقيقتان في النسب ، او هما بالأحرى بنات اعمام اشير الى مصيرهما في القرآن وعيداً وموعظة للذين كفروا . وهما من طغى

---

(١) يراجع كتاب في « الأدب الجاهلي » للدكتور طه حسين ص ٨٤ — ٨٧ .

بعد ان اهلك الله الناس بطوفان نوح الذي تنتسبان اليه عن طريق إرم وسام . فالنسب كما جاء في الطبري [1] يوضحه الرسم الآتي :

نوح
سام
إرم

عوص	جاثر
عاد	ثمود

عاد : وكانت منازل عاد ، كما يذكر ياقوت ، الاحقاف [2]. ويقول ابن قتيبة : « وكانت عاد ثلاث عشرة قبيلة ينزلون الرمل ، وبلادهم أخصب بلاد الله ، وكثرتهم وديارهم بالدو والدهناء وعالج ويبرين ووبار الى عمان الى حضرموت الى اليمن [3] » . ولا ندري كيف نوفق بين نزولهم الاحقاف ، تلك المنطقة العقيمة الجرداء ، او الرمل على رأي ابن قتيبة ، وبين قوله : وبلادهم اخصب بلاد الله ؟

ولعل الآية : « واذكروا اذ جعلكم خلفاء من بعد قوم نوح ، وزادكم في الخلق بسطة » [4] هي التي جعلت المؤرخين العرب والمفسرين يوقنون بان هؤلاء الاقوام عاشوا بعد نوح وانهم كانوا عمالقة جبارين حتى قيل : « كان اقصرهم ستين ذراعاً واطولهم مائة ذراع ! » [5] .

هؤلاء الذين قيل فيهم : « واذا بطشتم بطشتم جبارين » [6] كانوا اهل

---

(١) ص ٢٣١ ج ١ - تاريخ الطبري .
(٢) ص ١٠٢٧ ج ٤ معجم البلدان .
(٣) ص ١٥ كتاب المعارف .
(٤) القرآن الكريم س ٧ آية ٦٧ .
(٥) ص ٢٦٧ ج ١ الكشاف للزمخشري
(٦) القرآن الكريم س ٢٦ آية ١٣٠

اوثان يعبدونها . وهي على رأي الطبري صدا ، وصمودا ، وهبا[١] . ثم ظلموا في الارض وجحدوا « واتبعوا امر كل جبار عنيد »[٢] . فأرسل الله اليهم اخاهم هودا فعصوه وكذبوه الا قليلاً منهم[٣] فاصابهم القحط الشديد فجهزوا منهم وفداً الى مكة يستسقون لهم فنزل الوفد بظاهر مكة في خارج الحرم ضيوفاً على سيد المكان معاوية بن بكر ، واقاموا عنده شهراً يشربون ويقصفون وتغنيهم « الجرادتان » — قينتان لمعاوية — حتى نسوا الغاية التي وفدوا من اجلها . فاوعز معاوية الى قينتيه فذكرتاهم، غناءً ، بالامر الذي جاءوا من اجله فخرجوا الى مكة يستسقون لعاد . وهنالك ظهرت لهم سحائب ثلاث : بيضاء وحمراء وسوداء . ثم نادى من السحب مناد : ياقيل (احد رؤساء الوفد . وكان بينهم لقمان صاحب ابد) اختر لنفسك وقومك من هذا السحاب . فاختار السوداء طمعاً بكثرة مائها . فقال المنادي :

اخترت رمـــادا رمدداً   لا تبقي من عاد أحدا

وطارت السحابة الى مغيث ، وادي عاد ، فاستبشروا ، وقالوا هذا عارض ممطرنا ، فقيل لهم : « بل هو ما استعجلتم به ريح فيها عذاب اليم تدمر كل شيء بامر ربها »[٤] . فصمدوا للسحابة يصدونها ، واخذوا يرمونها بالسهام ويقولون : بأسنا أشد من بأسك يا رب هود !! غير انها كانت تحمل الواحد منهم فتدق عنقه ، وهكذا حتى قيل بهـــم : « فاهلكوا بريح صرصر عاتية ، سخرها عليهم سبع ليال وثمانية ايام حسوماً فترى القوم فيها صرعى كأنهم أعجاز نخل خاوية »[٥] . ولم يهلكوا فحسب ، وانما ارسلت عليهم طيور سود فنقلتهم الى البحر ،

---

(١) ص ٢٣١ ج ١ تاريخ الطبري راجع ص ٦٠ ج ١ — الكامل في التاريخ

(٢) القرآن الكريم س ١١ آية ٦٢.

(٣) راجع القرآن الكريم س ٢٦ آية ١٢٣—١٤٠

(٤) القرآن الكريم س ٢٦ آيــة ٢٤

(٥) القرآن الكريم س ٦٩ آية ٦ — ٨

وبهذا يفسرون « فأصبحوا لا ترى الا مساكنهم »[١] .

ثم ارتحل هود ومن آمن معه الى مكة - على رأي ابن قتيبة -[٢] فلم يزالوا بها حتى ماتوا . وفي رواية اخرى الى بلاد اليمن حيث نزلوا هناك ، واقاموا حولين كاملين . وادركت هوداً الوفاة ودفن في ارض حضرموت[٣] . وقد اشارت الآية الى نجاة هود وصحبه فقالت : « ولما جاء امرنا نجينا هوداً والذين آمنوا معه برحمة منا »[٤] .

ارم ذات العماد : ولم تكن الاساطير التي حيكت حول مدينتهم باقل طلاوة من اساطير القبيلة نفسها . ولقد ذكر القرآن هذه المدينة في سورة الفجر فقال : « ألم ترَ كيف فعل ربك بعاد ارم ذات العماد التي لم يخلق مثلها في البلاد »[٥] .

وكان لعاد ولدان شداد وشديد ، ملكا زمناً وقهرا . ولما مات شديد انفرد شداد بالحكم ، وملك الدنيا ودانت له ملوكها . وقد سمع بذكر الجنة فاراد ان يضاهيها ببنائه « ارم » في بعض صحاري عدن . وكيف لا يبني شداد مثل هذه المدينة العظيمة ، وعنده من الرجال ما يبلغ الواحد منهم ، ليس فقط ستين ذراعاً او مائة ذراع - كما نقلنا - وانما اربعمائة ذراع ، اذا اتى الصخرة العظيمة ، حملها والقاها على الحي بكامله فأهلكه ![٦] .

يقول الهمذاني : « ان ارم ذات العماد في تيه (أبين) وهو غائط بين حضرموت وبين (ابين) . وما سمعنا احداً قال انه عاينها

---

(١) القرآن الكريم س ٤٦ آية ٢٤ .

(٢) ص ١٥ كتاب المعارف

(٣) يراجع للقصة تاريخ الطبري ج ١ ص ٢٣١-٢٤٤ وقصص الانبياء ص ١٠٣ - ١١٠ والكامل في التاريخ ج ١ ص ٦٠-٦٣

(٤) القرآن الكريم س ١١ آية ٤١

(٥) القرآن الكريم ٦٩ آية ٥ - ٨

(٦) ص ٤٧٠ ج ٢ الكشاف الزمخشري

الا ما يذكر من خبر الرجل الذي اضل ابله في تيه (ابين) فالتقطها ووصف بناءها وعجائبها في زمن معاوية . »[1] . ولقد اسهب ياقوت في وصفها[2] ولهذا نلخص ما جاء عنها في معجمه .

رووا ان شداد بن عاد ، لما سمع بالجنة قال لكبرائه اني متخذ في الارض مدينة على صفتها ، ثم وجه لعملائه في الارض ان يجمعوا ما في البلاد من اموال واحجار كريمة ، واختار فضاء فلاة من ارض اليمن . فجعل طول المدينة اثني عشر فرسخاً وعرضها كذلك ، واحاطها بسور عال مشرف . وبنى فيها ثلاثمائة الف قصر ، وجعل لها غرفاً فوقها غرف معمدة باساطين الزبرجد والجزع والياقوت . ثم أجرى تحت المدينة وادياً ساق اليها تحت الارض اربعين فرسخاً ، ثم أمر فأجرى في شوارعها المتضوعة بالمسك والزعفوان سواقي مطلية بالذهب وجعل حصاها انواع الجواهر وهي تجري بالماء الصافي .

وكان قصره وسط المدينة مشرفاً على القصور الضاربة في السماء ثلاثمائة ذراع ، وبنى خارج المدينة وسورها الشاهق اكماً محدقة ينزلها جنوده .

ومكث في بناء المدينة خمسمائة عام ... ولم يستجب لدعوة هود ... فلما وافاه الموكلون ببناء المدينة واخبروه بالفراغ منها عزم على الخروج اليها في جنوده ، فخرج في ثلاثمائة الف من حرسه وشاكريته ومواليه . وخلّف على ملكه بحضرموت ابنه « مرثد » . ولم يقتربوا منها حتى اخذتهم صيحة من السماء ! ومات بالصيحة جميع من كان في المدينة من الوكلاء والعمال ... وبقيت خلاء لا انيس بها ... وساخت المدينة في الارض ، فلم يدخلها بعد ذلك احد إلا رجل واحد في ايام معاوية يقال له عبد الله بن قلابة .

ثمود : وكذلك افسدت ثمود في الأرض فألحقها بعاد ، ولهذا جاء

---

(١) ص ٤٠ ج ٨ الاكليل للهمذاني .

(٢) ص ٢١٢ — ٢١٤ ج ١ معجم البلدان .

في النجم : « وانه اهلك عاداً الاولى ، وثمود فما ابقى »[1] . وكما انذر هود قومه عاداً كذلك ارسل صالح من بعده الى ثمود التي كانت تنحت الجبال بيوتاً لها [2] ، فكان يدعوهم الى عبادة الله وينهاهم عن عباداتهم ، فشكُوا في دعوته وكذبوه وعصوه [3] .

« وكانت ثمود بالحجر بين الحجاز والشام الى وادي القرى ومـا حوله »[4] لا يلتفتون الى دعوات هذا النبي الجديد . ولما ألح صالح في دعوته طلبوا منه ان يأتي لهم بمعجزة شأن كل الذين ارسلت لهم انبياء.. واخيراً استقر رأيهم على ان تكون آيته ناقة بيضاء تحلب لهم لبناً صافياً ، ويتبعها فصيلها وتنطق لصالح بالرسالة ، ولله بالوحدانية . واشترط هو بدوره عليهم ان لا يركبها احد ، ولا يرميها بحجر ولا سهم ، ولا يمنع شربها ولا مرعاها .. ثم اخرجهم الى صخرة ، فاذا هي تئن كما تئن المرأة عنـد الطلق ، وتتمخض كما تتمخض الحامل !! والناقة تدور في جوانبها كما يدور الولد في بطن امه . ثم تفرجت عن ناقة « كأنها قطعة جبل . ووقفت بين يدي صالح وبعينها شعاع ونور ، وعليها زمام من اللؤلؤ ومن سنامها الى ذنبها سبعمائة ذراع وعرضها سبعون ذراعاً ولها اربعة اضرع ، لكل ضرع اثنتا عشرة حلمة ، وما بين الحلمة الى الاخرى عشرة اذرع وطول كل قائمة من قوائمهـا مائة وخمسون ذراعاً » .. ثم وضعت فصيلها على صفتها .. وكانت ترعى في رؤوس الجبال تاركة مراعي ثمود الى مواشيهم .. ثم تدخل المدينـة بلسان فصيح : من أراد اللبن فليخرج !!

وكان في القوم امرأتان ذواتا مواش كثيرة .. عرضت الاولى، ذات الجمال البارع نفسها على من يعقر الناقة ، والاخرى عرضت احـدى

(١) القرآن الكريم س ٥٣ آية ٥١-٥٢
(٢) القرآن الكريم - تراجع الآيات ٧١-٨٣ من س ٧
(٣) القرآن الكريم - تراجع س ١١ آية ٦٥
(٤) ص ٢١٥،٢٤٥ ج ١ - تاريخ الطبري

بناتها الاربع الجميلات على آخر لهذا الغرض .. وهكذا كان عقر ناقة صالح او ناقة الله [١] . التي أمروا أن لا يمسوها بسوء [٢] فكان ذلك شؤماً عليهم ، حتى قيل : « أشأم من احمر عاد » ـ قدار بن قديرة ـ الذي اهلك الله بفعله قبيلة ثمود [٣] .

ولقد صعد الفصيل بعد عقر امه جبلا ثم رغا ، فأتاهم العذاب ولهذا تقول العرب : « رغا فوقهم سقب السماء » [٤] اذا هلكوا .. وكانوا قد انذروا ثلاثة ايام حيث اصفرت وجوههم في اليوم الاول كأنها طليت بالخلوق . واحمرت في اليوم الثاني كأنها خضبت بالدماء . واسودت في اليوم الثالث كأنها طليت بالقار . ولما اصبحوا في اليوم الرابع اتتهم الصيحة من السماء [٥] ... وهكذا « اخذ الذين ظلموا الصيحة فاصبحوا في ديارهم جاثمين » [٦] . وارتحل صالح ومن آمن معه فسار الى الشام ونزل فلسطين ... ثم انتقل الى مكة [٧] .

على ان ثمود ، خلاف عاد ، قد اوجدت لها مكاناً في التاريخ ، فلم تفن بالكلية ، حتى ان بطليموس وديودورس الصقلي يذكرانها على انها كانت موجودة في زمنهما ، لا بل يرى البعض براهين تثبت على بقاء ثمود في عالم الوجود حتى القرن الخامس للميلاد [٨] .

الحجر : بلد ثمود . ذكرها الاصطخري فقال : « والحجر قرية صغيرة قليلة السكان ، وهي من وادي القرى على يوم بين الجبال . وبها كانت ديار ثمود الذين قال الله فيهم : (وثمود الذين جابوا الصخر بالواد) .

---

(١) يراجع قصص الانبياء ص ١١٥ – ١١٨ .
(٢) يراجع القرآن الكريم س ١١ آية ٦٧
(٣) ص ٣٢١ ج ١ الامثال للميداني
(٤) ص ١٦ كتاب المعارف
(٥) ص ٢٤٩ – ٢٥٠ ج ١ – تاريخ الطبري
(٦) القرآن الكريم س ١١ آية ٧٠
(٧) ص ٦٧ ج ١ الكامل في التاريخ
(٨) ص ٣ Nicholson

ورأيت تلك الجبال ونحتهم الذي قال الله : (وتنحتون من الجبال بيوتا فارهين) . ورأيتها بيوتاً مثل بيوتنا في اضعاف جبال ، وتسمى تلك الجبال الاثالب . وهي جبال في العيان متصلة حتى اذا توسطتها رأيت كل قطعة منها قائمة بنفسها يطوف بكل قطعة منها الطائف ، وحواليها رمل لا يكاد يرتقي الى ذروة كل قطعة منها احد الا بمشقة شديدة . وبها بئر ثمود التي قال الله في الناقة : (لها شرب ولكم شرب يوم معلوم) »[1] .

وقول الاصطخري : « ورأيتها بيوتاً مثل بيوتنا » ينفي ما يروى من المبالغات في اجسام تلك الاقوام . وعلى ذلك يعلق Sale فيقول : ان مساكن الثموديين ذوات النسبة العادية لحجة على هؤلاء المخطئين الذين يدعون انه كان للثموديين اجسام المردة[2] .

اما البلدة ، فلا توجد اليوم[3] وان بقيت بعض الصخور المنحوتة والآثار التي تدل عليها .

والظاهر ان اسطورة عاد وثمود ، والاشارة الى نبييها هود وصالح لا ذكر لها في التوراة ، وان كان امرهم مشهوراً عند العرب في الجاهلية والاسلام . وبهذا يلمح الطبري[4] ويوافقه قول كندر Conder انه يستثنى من الاساطير العربية الواردة في القرآن اسطورتان لم يوجد لهما اثر في غير البلاد العربية ، وهما حديث ناقة صالح ، ورسالة هود الى عاد في ارم[5] .

طسم وجديس : ان لم تكن هاتان القبيلتان شقيقتين[6] فهما تقريباً أبناء أعمام[7] . وعلى كل فهما تنتسبان الى « نوح » مثل « عاد » و « ثمود »

---

(١) ص ١٩ - ٢٠ ، مسالك الممالك للاصطخري

(٢) ص ٧ G. Sale : The Koran,

(٣) ص ٣٠١ ج ٢ Enc. of Islam

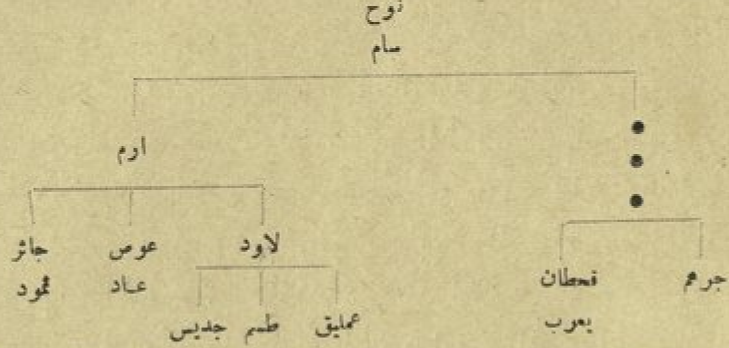
(٤) يراجع تاريخ الطبري ص ٢٥١ ج ١ ، والكامل في التاريخ ص ٦٧ ج ١

(٥) ص ٣٣٩ C. R. Conder : Syrian Stone-Lore

(٦) ص ١٤ - كتاب المعارف .

(٧) ص ٥ - السيرة .

عن طريق « ارم » و « سام » . ولا بأس من وضع سلسلة توضح حلقاتها نسب هذه القبائل التي تكتنفها الخرافات من كل جانب ، نستمدها من ابن قتيبة [1] ونرسمها على الوجه الآتي :



وكما اعتاد المؤرخون ربط عاد وثمود وحوادثهما متفقين ذكر القرآن لهما معاً ، كذلك اعتادوا أن يربطوا بين « طسم » و « جديس » اللتين لا تكادان ان تذكرا إلا معاً ، لا بل انهما بخلاف عاد وثمود قد عاشا في زمن واحد ، ومكان واحد ، واقتسما اسباب الحياة ، فتاريخهما او بالحقيقة أساطيرهما لا تكاد تنفصل لوثيق العلاقات بينهما .

ولقد ورد لطسم وجديس ذكر في جغرافية بطليموس ، فلا سبيل الى القول بانهما لم يكن لهما وجود وكيان . ويقال ان حوادثهما ، كما يرى Caussin de Perseval قد امتدت حتى اواسط القرن الثالث للميلاد [2]

وتتلخص الروايات عن طسم وجديس بانهما كانتا قبيلتين تسكنان اليمامة « جو » وما حولها الى البحرين . وحدث ان تملكت طسم حتى حكم رجل منهم يقـــال له « عمليق » . وقد تمادى في الظلم الى ان تنازعت امرأة من جديس يقال لها « هزيلة » وزوجها على غلام لهما . فخاصمته الى زعيم طسم الذي ما كان منه ، بعـد استماعه الى اقوالهما ، إلا ان امر

(١) ص ١٣ – ١٥ : كتاب المعارف

(٢) ص ٩٩٢ م ١ : Enc. of Islam .

بان تباع هي وزوجها فتعطى عشر ثمنه ، ويعطى خمس ثمنهـــا ، وأمر بالغلام ان ينزع منها ويجعل في غلمانه وهكذا استرقوا جميعاً ، فغضبت المرأة وأنشأت ابياتاً سمعهـــا عمليق فأثارت غضبه . وعندئذ امر ان لا تزف بكر من جديس حتى تساق اليه فيفترعها قبل زوجها .

وذلت جديس زمنـاً حتى تزوجت اخت سيد جديس « الاسود بن غفار » وكانت تسمى « عفيرة » ويقال لها « الشموس » . فلما دخلت على عمليق امتنعت ، إلا انها خرجت اخيراً من عنده بدماء العار شاقة ثوبهـــا ، ومارّة بأخيها وهو في جمع من قومه تندب وتنتحب وتنشد الاشعار حتى نكست رؤسهم خجلاً وذلة ، وألهبت نفوسهم غضباً وحمية.

وتفتقت الحيلة لاخيها « الاسود » بعد ان سارعت جديس الى طاعته ، فقال لهم : قد رأيت ان اصنع للملك طعاماً ثم ادعوه وقومه فاذا جاءوا يرفلون في الحلل قمت الى الملك وقتلته ، وقام كل واحد منكم الى رئيس من رؤسائهم ، حتى اذا فرغنا من الاعيان ، لم يبق للآخرين قوة .

ونهتهم الشموس عن الغدر رغم الحادث الجلل ، فلم يأبه الأسود ، وصنع الطعام في ظاهر البلد ، ودفنوا السيوف مشهورة تحت الرمال . وجاء الملك وأعيانه ، فلما جلسوا للأكل وثب الاسود على عمليق فقتله ، ووثب كل رجل على جليسه من رجال طسم حتى ابادوهم .

وهرب رجل من طسم يقال له رباح بن مرة حتى لحق مع بقية ضئيلة من طسم بـ « حسان بن تبّع » الحميري ، فاستغاثه على جديس ، فأجابه الى طلبه ، وبعث بجيوشه - ويقال سار بنفسه - الى اليمامة .

ولما كان على ليلة من منازل جديس استوقفه « رباح » وقال له ان له اختـــاً متزوجة في « جديس » يقال لهـا « يمامة » ترى الشخص على مسيرة يوم وليلة ، وهي ابصر خلق الله على بعد . فخشوا ان تراهم وتنذر بهم القوم ، فأمر الملك رجـلاً ان يصعد الجبل فيكشف امرهم ، فأبصرته « زرقاء اليمامة » - وهي زرقاء العينين - وانذرت به قومهـا

بعد ان اخبرتهم بماذا يصنع فوق الجبل ، فكذبوها .

وطلب رباح من الملك ان يأمر اصحابه فيقطع كل رجل شجرة ويسير بها امامه ، وهكذا كان حتى اذا دنوا من اليمامة ليلاً ، نظرت زرقاء اليمامة فأبصرت القوم ، وانذرت بهم جديساً فكذبوها ثانية ... وصابحهم « حسان » بحمير فأبادهم وخرب بلادهم ودك حصونهم وقصورهم ، وقبض على زرقاء اليمامة وقلع عينيها فرأى عروقها محشوة بالاثمد ... وهو حجر اسود كانت تدقه وتكتحل بـــه ، فهي أول من اكتحل بالاثمد من العرب .

وفر الاسود بن غفار واخته الشموس ومعه نفر من قومه ولحق بجبلي « طيء » قبل ان تنزلها « طيء » – وكانت تنزل الجوف من اليمن – فنزل هناك . ورجع حسان الى بلاده بعد ان اطلق على « جو » اليمامة تسمية لها بالتي كانت ابصر خلق الله على بعد ، والتي ضرب بحدة نظرها المثل فقيل : « أبصر من زرقاء اليمامة » [1] .

جرهم والعماليق : ومن بين الشعوب العربية البائدة يذكرون « جرهم » التي سكنت ، كما يقول ياقوت [2] تهائم اليمن ثم لحقت بمكة ، ونزلت على اسماعيل الذي نشأ فيها وتزوج منها . وقد مر حديث نزولها حوالي مكة ، فلا مجال لاعادته .

ومن بينهـــا ايضاً « العماليق » الذين كانت منـازلهم موضع « صنعـاء » ثم خرجوا فنزلوا ايضـــاً حول مكة ، ولحقت طائفة منهم بالشام ومصر وتفرقت طائفـــة منهم في جزيرة العرب الى العراق والبحرين الى عمـــان [3] . ولا يكتفي « ابن قتيبة » بمصر والشام ،

(١) يراجع للقصة : تاريخ الطبري ص ٧٧١ – ٧٧٥ ج ١ والأغاني ص ٤٨ – ٥٠ ج ١٠ وكتاب المعارف ص ٣٠٨ والميداني ص ٩٣–٩٤ ج ١ والكامل في التاريخ ص ٢٥١– ٢٥٤ ج ١ وغيرها .

(٢) ص ١٠٢٨ ج ٤ معجم البلدان

(٣) نفس المصدر .

وانما ينسب اليهم قسماً من ملوك فارس وخراسان[1]. وكذلك ينسبون لهم شعوباً قديمة جداً كالكنعانيين والفلسطينيين[2]. ولهذا يطلقون على من سكن ديار الشام في ذلك الزمن «الجبارين». قال ابن عباس ذاكراً أريحا في غور فلسطين: «اريحا قرية الجبارين. كان فيها قوم من بقية عاد يقال لهم العمالقة ورأسهم عوج بن عنق»[3].

عوج بن عناق: وجميل ما يروونه عن عوج وامه عنق او «عناق»:

لقد كانت امه احدى بنات آدم لصلبه.. هائلة مخيفة.. كل اصبع من اصابعها ثلاثة أذرع في عرض ذراعين.. وفي رأس كل اصبع منها ظفران حديدان مثل المنجلين.. وكان موضع جلوسها جريبا من الارض.. وهي اول من بغى على وجه الارض.. وعمل الفجور والسحر، وجاهر بالمعاصي.. ولهذا ارسل الله عليها اسوداً كالفيلة، وذئاباً كالأبل ونسوراً كالحمر فقتلوها.. واراحوا الارض من شرها!!

ولدت عوجا - رحم الله أباه - فكان يحتجز السحاب فيشرب منه، ويتناول الحوت من قرار البحر فيشويه بعين الشمس، ثم يأكله! وعمر حتى ادرك الطوفان الذي طبق الارض وعلا رؤوس الجبال، فما جاوز ركبتيه! لا بل انه طلب السفينة ليغرقها!!

وامتد به العمر حتى أدرك موسى الذي لما استقر لقومه الأمر بمصر امر ان يرحلوا الى اريحا، قرية الجبارين الذين سموا بذلك لامتناعهم وطول قاماتهم وقوة اجسادهم، وهم كما ذكرنا من العمالقة وبقية قوم عاد.

واختار موسى اثنى عشر نقيباً من كل سبط من اسباطهم نقيباً، وبعثهم لما قربوا من المدينة يتجسسون اخبار قومها فلقيهم عوج وعلى رأسه حزمة من الحطب فوضعهم فوقها - او في كمه! - وسار الى امرأته، ونثرهم امامها يريد طحنهم، فقالت امرأته، بل خل عنهم حتى

---

(١) ص ١٤ كتاب المعارف.

(٢) ص ٣ Nicholson

(٣) ص ٧٠ ج ١ - تاريخ الخميس.

يخبروا قومهم فتركهم كما طلبت منه .

ثم ذهب عوج الى الجبل وقوّر صخرة على قدر معسكر موسى ، وحملها ليطبقها عليهم ، فبعث الله هدهداً فنقر الصخرة ونزلت من رأسه الى عنقه فمنعته الحركة .. ووثب موسى وقومه فجهزوا عليه ! ! [1]

الفصل الثالث : اساطير العرب الباقية

وللعرب الباقية من قحطان وعدنان اساطير وخرافات غير التي اعتدناها من احداث العهد القديم ، وهي تتعلق بازمـــان ليست جد بعيدة من العصر الجاهلي المعروف ، او المدة التي نعبر عنها احياناً بما قبل الاسلام. وليس لنا في هذا المقام الا ان نختار من بين هذه الاساطير بعضاً ممـا كثر ذكره في الجاهلية . ولا بأس هنـا من الكلام عن سد مأرب ، والقصور المشهورة في الادب العربي ، وحادثة الفيل ، واخيراً ايام العرب.

مأرب : قبل ان نتحدث عن سد هذه البلدة وخرابه ، نحب ان نشير الى مـادة مأرب لـ« ادولف جروهمن » في الموسوعة الاسلامية [2]. فهي بحث شيق وخصوصاً مـــا تناول الكلام عمن زار هذه المدينة . كآرنود ١٨٤٣ Th. J. Arnaud ، وهاليفي ١٨٦٩ F. Halévy وغلازر ١٨٨٨ E. Glaser وعن اقوال هؤلاء واحكامهم . ولقد احـاط جروهمن باطراف البحث ، واستوفى الاطلاع على مآخذه القديمة والحديثة .

اما نحن بكلمتنا هذه ، فلا نطرق الا ناحية واحدة نفتش عنهـــا في ذخائر الادب والتاريخ وغيرها من الكتب العربية .

« لقد كان لسبأ في مسكنهم آية جنتان عن يمين وشمال ، كلوا من رزق ربكم واشكروا له ، بلدة طيبة ورب غفور . فاعرضوا فارسلنا عليهم سيل العرم وبدلنـاهم بجنتيهم جنتين ذواتي اكل خمط وأثل وشيء

---

(١) ٧١ - ٧٢ نفس المصدر .

(٢) ص ٢٨٠ جـ ٣ Enc. of Islam

من سدر قليل ، وذلك جزيناهم بما كفروا وهل نجازي الا الكفور . وجعلنا بينهم وبين القرى التي باركنا فيها قرى ظاهرة وقدرنا فيها السير سيروا فيها ليالي واياماً آمنين . فقالوا ربنا باعد بين اسفارنا ، وظلموا انفسهم فجعلناهم احاديث ومزقناهم كل ممزق ان في ذلك لآيات لكل صبار شكور » [1] .

والجنتان ، كما يقول الهمذاني ، عن يمين السد ويساره [2] ولا شك في ان ما جاء في القرآن ، وما قاله الهمذاني الذي وقف على حقيقة مأرب في زيارته لتلك الاماكن هما اوثق الاخبار القديمة عن هذا السد، واكثر مطابقة لوصف من ذكرنا من النقابين وغيرهم ممن اكتشفوا آثار الخزان المشهور .

ولقد حدّث من شاهد مأرب – على ذمة ياقوت – فقال عن السد: « هو بين ثلاثة جبال ، يصب ماء السيل الى موضع واحد ، وليس لذلك الماء مخرج الا من جهة واحدة ، فكان الاوايل قد سدوا ذلك الموضع بالحجارة الصلبة والرصاص فيجتمع فيه ماء عيون هناك مع ما يختص من مياه السيول فيصير خلف السد كالبحر ، فكانوا اذا ارادوا سقي زروعهم فتحوا من ذلك بقدر حاجتهم بابواب محكمة وحركات مهندسة فيسقون حسب حاجتهم ثم يسدونه اذا ارادوا » [3] .

ومما يلاحظ ان هنالك اختلافاً في الكتب التاريخية على باني السد ، غير اننا لا يهمنا ما إذا كان بانيه « لقمان بن عاد » او « سبأ بن يشجب » او « بلقيس » او غيرها بقدر ما يهمنا خبر خرابه وقصة سيل العرم .

القصة : كان ما كان في قديم الزمان ملك كاهن يقال له « عمران » .. وكان بيده علم من بقايا دعاة « سليمان »

وفي اواخر ايامه اخذ ينذر قومه بخراب بلادهم وتشتيتهم في البلدان

---

(١) القرآن الكريم س ٣٤ آية ١٤ – ١٩

(٢) ص ٥٢ ج ٨ – الاكليل

(٣) ص ٣٨٣ ج ٤ – معجم البلدان .

فيقولون : شيخ كبر ! ولما حضرته الوفاة ، وقد بلغ ارذل العمر ، طاوياً اربعة قرون ، دعا اخاه « عمراً بن عامر »[1] – الذي كان قد بلغ ثلاثمائة عام – وقال له : ان امرأة من قومه يقال لها « ظريفة » – بنت الخير الحجورية – سترث علمه .. ثم انذره ثانية بخراب البلاد ومات .. فولي « عمرو » الملك وتزوج ظريفة .

وكان عمرو هذا ملكاً عظيماً بمأرب . وكان له تحت السد من الجنان ما لا يحاط به ، حتى ان المرأة كانت تمشي من بيتها وعلى رأسها اناء ، فلا تصل الى بيت جارتها إلا وهو ملآن بالفواكه دون ان تمس منها شيئاً ! وكان الرجل يمشي تحت ظلال الشجر شهرين فلا تصل اليه الشمس!

وحدث ان كانت ظريفة نائمة ذات ليلة فرأت كأن آتياً جاءها وقال لها : ما تحبين يا ظريفة ؟ علماً تطيب به نفسك ، او مولوداً تقر به عينك ؟ فاختارت العلم .. فجر بيده على صدرها ، ومسح بظاهر كفه بطنها فعقمت ولكنها اتسعت في العلم !!

وكانت مرة نائمة الى جانب عمرو ، فهبت مذعورة اذ رأت كأن سحابة غشيت اليمن وهي تبرق وترعد ... فسألها : مالك يا ظريفة ؟!

فقالت : ازف بكم الغرق ، واتاكم من الامر ما قدّر وسبق ..

ولم يلبث عمرو اياماً حتى خرج ومعه قينتان الى بعض حدائقه ، فطلبته ظريفة ومعها وصائفها ... فاعترضها في طريقها ثلاث مناجذ[2] منتصبات على ارجلهن ... ثم غبن ، فتابعت سيرها ، فوثبت امامها من خليج ماء سلحفاة ووقعت على التراب ، واستلقت على ظهرها ، ثم عادت الى الماء . فعلمت ظريفة من المناجذ والسلحفاة اشياء ... وتابعت سيرها ، حتى دخلت الحديقة نصف النهار ، فرأت شجرها يتمايل من غير ريح !

وظن عمرو ان غيرتها حملتها على القدوم ، فاخرج الجاريتين ، وقال

(١) في ص ٣٨٤ « نفس المصدر » عكس في الترتيب ، حيث يجعل يافوت الاول وارث الثاني والمسعودي (في مروج الذهب ج ٣ ص ٣٧٨و٣٨٦ فما بعد) يوافق الهمذاني إلا انه يبطيء في موت عمران فيجعله يشاهد بيع الملك ، ويصف لمن يود الرحيل عن اليمن البلدان ليختاروا منها ما يشاءون

(٢) « وهي دواب تشبه اليرابيع – مروج الذهب : ص ٣٨٠ ج ٣ »

لها مرحباً يا ظريفة ، هلمي الى فراشك ...

فقالت : هيهات ! والنور والظلماء ، والارض والسماء ، ليهلكن الشجر بالماء . وعلم انها كرهت اخباره وعنده القينتان فابعدهما .. وعندئذ انذرته بالخطب ... وكان لا يزال متكئاً على الارائك فاستوى جالساً ، وقال لها : صدقت ، فما وجه ما تذكرين ؟

فقالت : انطلقوا الى ظهر الوادي ، فسترون الجرذ العادي ، يجر كل صخرة صيخاد بانياب حداد ، واظافر شداد ...

فانطلق حتى اشرف على السد ، فاذا بجرذان حمر تحفر السد وتبحث برجليها ، فتقلع الصخرة التي لا يستقلها ماية رجل .. ثم تدفعها بمخالب رجليها .. فاغتم وصدق قول ظريفة ، ثم رجع مهموماً فسألته : ما وراءك ؟ فاجابها بما رأى « شعراً » ..

فقالت : يا عمرو ، إذا ظهر الجرذ الحفار ، فاستبدل لنفسك داراً من دار وجاراً من جار ، فعندها تنزل الاقدار ...

وطلبت منه النجاة .. فرتب حيلة لكي يترك ملكه ، ونفذها ، ثم باع ملكه كما باع ذووه ضياعهم ، وارتحلوا عن ارض اليمن .. وكان ذاك الجرذ قد خرّب السد ، فطغى الماء وأغرق البلاد حتى لم يبق من جميع الزروع والعمار إلا ما كان في رؤوس الجبال ، والامكنة البعيدة .

وكان اكثر ما خرب بلاد كهلان وعامة بلاد حمير ! اما القبائل اليمنية التي ارتحلت عن اليمن فقد سكنت الحجاز والشام والعراق وعمان وغيرها من بلاد العرب .

والقصة [1] تمتد فتذكر حروب هذه القبائل مع سكان المنازل الجديدة

---

(١) ا – يعدد الهمذاني في الاكليل « ج ٨ ص ١٣٥–١٣٧ » نحواً من ٧٠ سدا في بلاد اليمن ، ويذكر ان بعضهم حدثه بانه يوجد في « يحصب العلو » – مكان في اليمن – ٨٠ سدا ، ولهذا يقول احدهم : « وفي الربوة البيضاء من ارض يحصب ثمانون سداً تقلس الماء سائلا » صفة جزيرة العرب : ص ١٠١

ب – تراجع القصة في : الاكليل ص ٢٦٣ – ٢٨٧ ج ٨ ومروج الذهب ص ٣٧٨–٣٩٤ ج ٣ ومعجم البلدان ص ٣٨٤–٣٨٨ ج ٤ والكشاف ص ٢٠٣ ج ٢

مما يطول ذكره .. ولنكتف اذاً بخبر النكبة التي حلت باليمن على اثر انفجار السد [1] .

القصور : والقصور التي ذكرها الادب العربي كثيرة نكتفي هنا بالاشارة الى اثنين منها وهما غمدان والخورنق .

غمدان : اول قصور اليمن وأعجبها ذكراً ، وأبعدها صيتاً [2] . يرجعون بناءه الى « سام بن نوح » فهو اول من أسسه [3] .. ومنهم من ينسب بناءه الى « ابي شرح بن يحصب » [4] . وقال قوم انه احد القصور الثلاثة التي امر سليمان الجن ببنائها لبلقيس [5] . وقيل وجد حجر فيه مكتوب بالمسند : « بناه غمدان » ... وعلى كل فإن صاحبه الذي بناه حينما اراد ان يتخذ قصراً باليمن ، احضر البنائين والمقدرين ، فمدوا الخيط ليقدروه ، فانقض على الخيط طير وخطفه ... فتبعوه حتى القاه في موضع غمدان فبناه صاحبه هناك على اربعة اوجه : وجه بحجارة سوداء ، ووجه بحجارة بيض ، ووجه بحجارة حمر ، ووجه بحجارة خضر [6] .

ويزعمون انه بني ساعة طلوع « الثور » وفيه « الزهرة » و « المريخ » ... ومن خاصية هذا البرج ثبات الاشياء وقلة تغيرها .. ولقد بلغ القصر في بعض الروايات سبعة سقوف ، بين كل سقف وسقف اربعون ذراعاً [7] . والثبت عند الهمداني انه عشرون

---

(١) ص ٥ ج ٨ الاكليل

(٢) ص ٦ نفس المصدر

(٣) ص ٢٤ من المصدر نفسه . « وفي معجم البلدان ص ٨١١ ج ٣ لشرح بن يحصب »

(٤) ص ٨١٢ ج ٣ معجم البلدان

(٥) ص ٢٦ ج ٨ : الاكليل

(٦) ص ٦-٧ ، ٢٤-٢٥ ج ٨ : الاكليل . وفي معجم البلدان ص ٨١١ ج ٣ يستعيض ياقوت باللون الأسود لونا اصفر

(٧) ص ٢٣ ج ٨ : الاكليل و ص ٨١١ ج ٣ : معجم البلدان

سقفا ، كل سقف عشرة اذرع ، وبهـــذا يكون مائتي ذراع ، ولا يتعذر - في رأيه - ذلك عليهم لقدرتهم على كل معجز من البناء [1] .

ولما بلغ صاحب غمدان غرفته العليا التي يبلغ ارتفاعها اثـــني عشر ذراعاً - وهي مجلس الملك - اطبق سقفها برخامة واحدة ، فكان يستلقي على فراشه في الغرفة ، فيمر بها الطائر فيعرف به الغراب من الحدأة .. وكان للغرفة اربعة ابواب قبالة الصبا والدبور والشمال والجنوب.. وفي زوايا القصر الاربع تماثيل اربعة اسود من نحاس مجوفة .. اذا هبت الريح زأرت كما تزأر الأسود [2] .

وكان صاحب القصر يأمر بالمصابيح احياناً ، فتسرج فيه ليلا ، فكان سائر القصر يلمع من ظاهره ، حتى اذا اشرف على الانسان من بعض الطرق ظنه برقاً ولا يعلم ان ذلك من ضوء المصابيح [3] . وفيه يقول علقمة:

مصابيح الصليت يلحن فيه اذا يمسي كتوماض البروق [4]

ويروى انه كان في الغرفة العليا منه ستور فيها اجراس ، اذا ضربت الريح تلك الستور ، سمعت اصوات من الاجراس من مكان بعيد [5] .
وكانت الى جنب القصر نخلة يانعة سحوق تطرح بعسبانها الى بعض ابهائه [6] .

وقد طاول هذا القصر الزمن حتى قيل ان فيه نزلت الآية : لا يزال بنيانهم الذي بنوا ريبة في قلوبهم » [7] . فارسل النبي احدهم ليهدمه فلم يقدر على هدمه ، وعندئذ احرقه . ولم يهدم إلا بعد وفاة النبي [8] ،

---

(١) ص ٢٣-٢٤ ج ٨ الاكليل
(٢) ص ٢٠-٢٤ ج ٨ : الاكليل ، ص ٨١١ ج ٣ : معجم البلدان
(٣) ص ٨١١ ج ٣ معجم البلدان
(٤) ص ٢٥ ج ٨ الاكليل .
(٥) ص ٢٥-٢٦ ج ٨ الاكليل
(٦) ص ١٧ نفس المصدر .
(٧) القرآن الكريم س ٩ آية ١١١
(٨) ص ٢٦-٢٧ ج ٨ : الاكليل .

حيث لم تزل « حمير » تنزله وتزيد فيه حتى أخرب في ايام عثمان [١] .

وذكر ان قيل لعثمان ان كهان اليمن يزعمون ان الذي يهدمه يقتل ، فأمر باعادة بنائه ، فقيل له لو انفقت عليه خرج الارض ما اعدته كما كان ، فتركه ... فلما خرب ، وجد على خشبة مكتوب عليها برصاص مصبوب : « اسلم غمدان هادمك مقتول » ، فهدمه عثمان فقتل [٢] .

فاذا صح ، كما يرى زيدان ، قول الهمذاني وياقوت ان بانيه هو « اليشرح بن يحصب » كان بناؤه في القرن الاول للميلاد . ويكون قد عاش نحواً من ٦٢٠ عاماً [٣] .

الخورنق : ولعله اشهر القصور التي كانت في نواحي العراق ، والتي كان طالما يذكر بعضها معه في احاديث العرب واشعارهم ولقد مر معنا قول بعضهم :

اهل الخورنق والسدير وبارق والقصر ذي الشرفات من سنداد

واذا ما اختلفوا في باني الخورنق فانهم لا يختلفون في بنائه « سنمار » فابن الاثير يذكر ان بانيه « يزدجرد الاثيم » ، حيث سأل عن منزل صحي ، فدل على ظاهر الحيرة ، فدفع ابنه « بهرام جور » الى « النعمان » يأمره ببناء الخورنق مسكناً له في بوادي العرب [٤] .

وقال « الهيثم بن عدي » ان الذي امر ببنائه هو « النعمان بن امرىء القيس » . وكان قد ملك ثمانين سنة ، وبنى الخورنق في ستين سنة . بناه رجل له من الروم يقال له سنمار فكان يبني السنتين والثلاث ويغيب الخمس سنين ، واكثر من ذلك واقل ، فيطلب فلا يوجد ثم يأتي فيحتجب ... ولم يزل هكذا ستين عاماً حتى فرغ من بنائه .

---

(١) ص ١٩ نفس المصدر .

(٢) ص ٢١٢ ج ٣ معجم البلدان

(٣) ص ١٤٥ : العرب قبل الاسلام

(٤) ص ٢٨٧ ج ١ – الكامل في التاريخ

وصعد النعمان على راس القصر ونظر الى البحر تجاهه والبر خلفه فرأى الحوت والظبي والنخل ، فقال ما رأيت مثل هذا البناء قط .

وتشاء المنية لسنمار ان يتفلسف فقال : اني اعلم موضع آجرة لو زالت لسقط القصر كله ، فقال النعمان : ايعرفها احد غيرك ؟ فقال : لا ، قال : لا جرم لادعنها وما يعرفها احد . ثم امر به فقذف من أعلى القصر الى اسفله فتقطع [1] . فضربت العرب فيه المثل فقالوا : « جزاء سنمار » للذي يصنع خيراً فيجازى شراً [2] .

عام الفيل : كنا ذكرنا ما كان من امر ابرهة وبنائه « القليس » بصنعاء ، وكتابه الى « النجاشي » بانه سيصرف اليها حج العرب . وكيف ان احد النسأة ارسل من احدث فيها ، فغضب ابرهة وحلف ليسيرن الى الكعبة ليهدمها .

ويكمل ابن اسحاق حديثه فيقول : ان ابرهة امر الحبشة فتهيأت ، وساروا بالفيل الذي ما سمع بقدومه العرب حتى استعظموه

وفي طريقه الى مكة خرج اليه رجل من اشراف اليمن برجاله يقال له « ذو نفر » ليصده فاسره ابرهة .. ولما كان هذا في ارض « خثعم » عرض له « نفيل بن حبيب » الخثعمي بقبيلتي خثعم « شهران وناهس » ومن تبعهم ، فكان نصيبه ما اصاب « ذا نفر » .

وتابع ابرهة سيره حتي مر بالطائف ، فخرجت له ثقيف يقدمون الطاعة ليصرفوه عن بيتهم « اللات » .. وارسلوا معه « ابا رغال » يدله على طريق مكة ، إلا انه مات عند « المغمس » فرجمت العرب قبره

ولما نزل ابرهة هناك ، بعث بحبشي (الاسود بن مفصود) فاستاق اموال تهامة – وكان اهلها قتلوا رجلا أمره «ابرهة» ان ينادي بحجيج القليس – واصاب فيها مائتي بعير لعبد المطلب كبير قريش وسيدها .. وهمت

---

(١) ص ٤٩١ ج ٢ : معجم البلدان

(٢) ص ١٣٤ ج ١ : الميداني

قريش وكنانة وهذيل ومن كان بالحرم بقتاله ، إلا انهم عرفوا ان لا طاقة لهم به .

وطلب ابرهة سيد قريش بعد ان اخبره انه لم يجيء إلا لهدم البيت ، ولا حاجة له بحربهم .. فانطلق عبد المطلب اليه فقابله ابرهة بالترحاب ، وكان بينهما ما ذكرناه سابقاً ، من طلب ابن هاشم ابله فقط لانه ربها ولان للبيت رباً يحميه .

وخرج عبد المطلب بابله ، وأمر قريشاً ان يتحرزوا في شعاف الجبال ، واخذ مع نفر من قومه يستنصرون رب البيت على ابرهة ، ثم انطلقوا من مكة الى الجبال ينتظرون ما ابرهة فاعل .

واصبح ابرهة مجتمعاً على هدم البيت فعبأ جيشه وهيأ فيله ، وكان اسم الفيل محموداً ، وعندئذ اقبل نفيل بن حبيب واخذ بأذن الفيل وقال: « ابرك محموداً وارجع راشداً من حيث جئت فانك في بلد الله الحرام » . ثم ارسل أذنه فبرك الفيل ، ونفر ابن حبيب حتى صعد الجبل .

وضربوا الفيل ليقوم فأبى ، وفعلوا به الكثير عبثاً ، فوجهوه الى اليمن فقام يهرول ، وكذلك الى كل الجهات إلا جهة مكة ان وجهوه اليهـا برك .

وارسل الله عليهم طيراً من البحر امثال الخطاطيف مع كل طير منها ثلاثة احجار بمنقاره ورجليه ، كالحمص والعدس ، لا يصيب الحجر منها احداً إلا هلك ، لأنها كانت تخترق جسد الرجل من رأسه .

وطلبوا النجاة ولكن اين المفر ؟ وخرجوا يتساقطون بكل طريق ، واصيب ابرهة في جسده ، فكان يتساقط انملة انملة ، حتى ما وصلوا به صنعاء إلا وهو مثل فرخ الطير ومات هنالك [1] .

وفي هذه الحادثة يقول تعالى [2] « ألم تر كيف فعل ربك باصحاب

---

(١) يراجع : ص ٢٩ – ٣٨ السيرة .

(٢) القرآن الكريم – سورة الفيل .

الفيل ، الم يجعل كيدهم في تضليل ، وارسل عليهم طيراً ابابيل ، ترميهم بحجارة من سجيل ، فجعلهم كعصف مأكول » [1]

ايام العرب : يقول تتشر Thatcher انه لا يوجد بين القصص المتداولة في زمن محمد ذات قيمة الا « ايام العرب » او تلك المعارك الداخلية التي كانت تقع في البلاد العربية بين القبائل [2] .

وبدهي ان لا نتحدث هنا عن كل هذه الايام فهي كثيرة ، والحديث عنها ، وحدها ، يحتاج الى كتب ، ولهذا نقف على بعضها كحرب « البسوس » و « يوم ذي قار » !

البسوس : تجاور « جساساً بن مرة » خالته « البسوس » التميمية ، وكان لها ناقة – وفي رواية اخرى ناقة لجار لها من « جرم » اسمه « سعد » – يقال لها « سراب » .

وتمر لكليب ابل بالناقة ، فتنازع عقالها حتى تقطعه ، وتتبع الابل .

وكليب وائل حامي مواقع السحاب ومجير الوحش ، فكيف تود سراب مع ابله ؟

ولهذا انكرها حينما رآها واشتد عليها بسهم فرمى ضرعها .

وتنفر الناقة المسكينة وهي ترغو حتى تجيء البسوس فتصيح هذه واذلاه واجاراه !

وتنشد اشعاراً يلتهب لها جساس .

فيهب ومعه صديقه « عمرو بن الحارث » حتى يدخلا على كليب . ويعاتبه جساس فيجيبه : اتراك مانعي ان اذبّ عن حماي ؟

فيطعنه جساس وعمرو .. وبهذا يجران على «بكر» الحرب .

وترتحل بنو شيبان .

---

(١) يراجع تفسيرها وقصتها في تفسير الطبري ص ١٦٤–١٨٩ ج ٣٠ وفي الكشاف ص ٤٨٦ ج ٢ ويطالع الكامل لابن الاثير ص ٣٢٠ – ٣٢٤ ج ١

(٢) ص ٢٦٣ ج ٢ Enc. Brit

ويتشمر أخو اللهو « عدي بن زيد » شقيق القتيل ثم يهل ، وهو المهلهل الشاعر المعروف ، ويستعد لحرب بكر ... فيقصر شعره ... ويترك النساء والغزل ... ويحرم القمار والشراب طلباً للثأر الرهيب .

وتشتعل نار حرب شعواء بين « بكر » و « تغلب » وتتجلى البطولة في اروع مظاهرها ، وتنتظم الحرب ملحمة على أجمل ما تكون الملاحم ، لا ينقصها إلا عنصر الآلهة حتى ترتقي الى ذروات القصص البطولي الخالد .

ولا يبالي المهلهل بأي قبيلة من قبائل بكر أوقع ، وتطول هذه الحرب التي أثارها قتل ناقة وتستمر اربعين عاماً حتى يصلح بين الفريقين « عمرو ابن هند » ويردهم عن القتال ...

هذا القتال الذي كان شؤماً على « بكر » و « تغلب » بالسواء ، فضرب بالبسوس وناقتها المثل فقيل : « أشأم من البسوس » و « أشأم من سراب » .

وليس لنا ، كما قلنا ، ان نعدد ايام العرب حتى ولا أيام حرب البسوس نفسها ، فنصف وقائعها بالتفصيل وخير ما هنالك الرجوع الى مواضعها في خزائن الادب والتاريخ [1] حيث تستلهم أروع المواضيع الشيقة لشعراء اليوم وادبائه .

وكما اشرنا الى كثرة ايام العرب ، لا بد وان نشير ايضاً الى الطلاوة الممتعة التي يشعر بها القارىء احياناً ، والحقيقة ان ايام العرب تمثل نواحي من حياتهم في الجاهلية اجمل تمثيل . وختاماً لا يسعنا إلا ان نشير الى حرب الفجار [2] بين « هوازن » و « كنانة » ثم الى حرب « داحس » و « الغبراء » [3] بين « عبس » و « ذبيان » ، قبل ان نذكر شيئاً

---

(١) راجع : العقد الفريد : ص ٣٥٥-٣٦١ ج ٣ والميداني : ص ٣١٩-٣٢٠ ج ١ ، الكامل : ص ٣٨٤-٣٩٧ ج ١ .. وغيرها

(٢) انظر اسواق العرب في الجاهلية والاسلام ص ١٤٥-١٦٢

(٣) انظر الكامل لابن الاثير ص ٤٢٠-٤٣٥ ج ١

عن ذي قار ، اول يوم انتصفت فيه العرب على العجم .

ذوقار : ماء لبكر بن وائل قريب من الكوفة .

وبطل هذه الوقيعة ، على ما هو مشهور ، هانىء بن مسعود الذي استودعه النعمان سلاحه ، فامتنع عن تسليمها الى كسرى ، غير ان « ابن عبد ربه » يقول : « لم يكن هانيء بن مسعود المستودع حلقة النعمان ، وانما هو ابن ابنه واسمه (هانيء بن قبيصة) بن (هانيء بن مسعود) لأن وقعة ذي قار كانت وقد بعث النبي ﷺ وخبر أصحابه بها » .[1]

وهكذا تتضارب الآراء فيما اذا كان هانيء بن مسعود بطل ذي قار او حفيده هانيء بن قبيصة[2] ولعل هـــذا التضارب راجع الى مشابهة الاسمين ...

وعلى كل فالبطل هو هانيء .

يقتل النعمان « عدي بن زيد » لاسبـاب .. فيسعى ابنه « زيد بن عديّ » عند كسرى حتى يهيجه عليه ويستثمر غضبه .. فيخرج النعمان يطوف بالقبائل محتمياً من كسرى ، فلا تجيره حتى يصل الى بني شيبان فيلتقي بهانيء ، ويقيم عنده في ذي قار .

ويرد كتاب من كسرى الى النعمان يستدعيه على الامان ، فاستودع هانئاً سلاحه وماله وأهله ...

وسار الى كسرى .. فما كان من هذا الملك إلا ان سجنه - وقيل قتله - حتى مات ... وولّى مكانه طائياً على العرب . ثم يطلب مـــن هانيء ودائع النعمان ... ولكن هيهات ! أيسلمها بطل شيبان ويخون عهداً اخذه على نفسه ؟

---

(١) ص ٣٨٣ ج ٣ العقد الفريد

(٢) تراجع ص ١٠٢٨-١٠٢٩ ج ١ تاريخ الطبري

عندئذ يرسل ملك الفرس جيوشه لحرب العرب .

والتقت الأعاجم والعرب في ذي قار ..

وتفتك نبال الفرس اولاً بالعرب ... فيحملون حملة المستميت دفعة واحدة على الفرس .

ويفتك العطش بالفرس فيميلون الى الشرب، فيشتد العرب عليهم فيشتتون شملهم . وتبلي « بنو عجل » في ذلك اليوم بلاء حسناً ، وتفتخر « بكر بن وائل » كلها بهذا الظفر ، وينتشر صيت البطل هانيء بالآفاق ، وترجّع العرب أشعار الانتصار في كل صقع [1] .

---

(١) يراجع تاريخ الطبري ، ج ١ ص ١٠٢٨ – ١٠٣٧ والعقد الفريد ، ج ٣ ص ٣٨٣ – ٣٨٧ .

الباب السابع

ما وراء الطبيعة

الفصل الاول : الله والملائكة

لا نعني بقولنا : « ما وراء الطبيعة » هنا ، ما يقصدونه عادة من علم الـ Metaphysics الذي يرمي الى النظر في اسطقسات (Principles) الوجود الاولى وما يتصل بها من اسرار المادة والجوهر والزمن والحيز والعلة والذات وغيرها ، او ما أراد به أرسطو من مباحث العقل التي وضعها في كتبه بعد مباحث الطبيعة حيث كان يسمي علم ما وراء الطبيعة بالفلسفة الاولية First Philosophy التي كان يعالج فيها دقائق الكون ... كما اننا لا نعني بـ « ما وراء الطبيعة » علم اللاهوت او علم الكلام ، وانما نقصد به عالم الروح ، ان صح تعبيرنا هذا ، او كل ما بعد عن عالم الحسيات والمعقولات . وبكلمة اخرى : ما خالف المادة ومركباتها ، او ما جاوز الموجودات الطبيعية ، واختفى وراء الطبيعة .

ولما كان الموجود الاول هو منبثق الكليات والجزئيات في الفلسفة والدين ، فلنبدأ بذكر شيء مما كان يعرف عنه العرب الجاهليون ... عن الله عز وجل ... خالق الطبيعة وما وراءها .

الله : غير الحنيفية ، واليهودية ، والمسيحية ، ضئيل الاثر جداً — هذا ان وجد — في اعطاء العربي الجاهلي فكرة « الله » ، وما تحمله هذه اللفظة من معان لا تختلف كثيراً في الجوهر عما نعرفه نحن حتى اليوم.

ومن الواضح ان تلك الفكرة لم تكن واضحة إلا لجماعات وافراد

قلائل ، اما الاكثرية ، وان سمعت بالله ، فانها كانت وثنية عبـدة اصنام واحجار وظواهر وموجودات اخرى ، كما بيّنا ذلك واسهبنا في فصول سابقة .

ولا يشك في وجود كلمة « الله » في الجاهلية ، ففي القرآن والسيرة والشعر شواهد كثيرة وبراهين لا تقبل الرد على وجودها بمعانيها قبل الاسلام . ويكفي دلالة عليها « اسم عبد الله » . على انه يجب ان يلاحظ اننا لا ندري ما اذا كان هنالك — او لم يكن — معبود آخر بين مؤلّهاتهم الكثيرة اسمه « الله » ، فيكون عندئذ « عبدالله » « كعبد قيس » و « عبد مناف » و « عبد شمس » .. ضاعت اخباره اما مع ضياع الكثير من الروايات ، لعدم التدوين ، وموقف الاسلام السلبي من الوثنية ، واما لعدم تمكن الروايات ذاتهـا منه . ومعلوم انهم كانوا يطلقون على اللات « الربة » ، وان كلمة « الاله » كانت تطلق ايضاً على الصنم ، كما ان المؤنث منها « الهة » كان يطلق على الشمس . وقد سبق معنا ان « الالهة » اسم من اسماء الشمس .

هذا ، ولربما كان مثل قول « مرجوليوث » من ان النبي اراد مرة ان يترك اسم الله الى غيره [1] حجة في ايدي من يظن انه كان هنالك معبود جاهلي بهذا الاسم .

و « الرب » ، كما هو معلوم ، من اسماء الله ، غير ان جمعه « ارباب » كان يطلق ايضا على اصنام العرب وآلهتهم . و « الربة » إلهة ثقيف .

وبدهيّ القول ان القرآن والسيرة هما اوثق المصادر التي يمكن ان يرجع اليها الانسان لتكوين فكرة عن الله في العصر الجـاهلي ، او بالاحرى عن معرفـة العرب الجاهليين بالله . ولكن القرآن والسيرة في نفس الوقت لا يحددان فكرة واضحة عن هذه المعرفة . فالقرآن ، مثلاً ، يعطينا فكرة الله كما يعرفها الاسلام ، اكثر مما يصور لنا هذه الفكرة

---

(١) ص ٢٤٨ مجلد ٦ Encyclopaedia of Religion and Ethics

عند الجاهليين الذين نخصهم بالذكر في هذا البحث .

ولنقرأ قول امية بن الصلت :

الى الله اهدي مدحتي وثنائيا ... وقولا رضيا لا يني الدهر باقيا

الى قوله :

حنانيك ان الجن كانت رجاءهم ... وانت الهي ربنا ورجائيا

رضيت بك اللهم ربا فلن ارى ... ادين الها غيرك الله ثانيا [١]

ثم قول زيد بن عمرو بن نفيل :

اسلمت وجهي للذي اسلمت ... له الارض طرّاً صخورا ثقالا

دحاها فلما رآها استوت ... على الماء أرسى عليها الجبالا

واسلمت وجهي لمن اسلمت ... له المزن تحمل عذبا زلالا

اذا هي سيقت الى بلدة ... أطاعت فصبت عليها سجالا [٢]

وكلا الرجلين كما تفيد الاخبار قد تألّه ، وترك عبادة الاصنام ، فلا بد وان يكونا متشربين بالتعاليم التي بثها اليهود والنصارى في بلاد العرب قبل الاسلام ، وما تبقى من تعاليم الحنيفية قبلها . ولا عجب ان يذكرا ، وغيرهما من الشعراء ، شيئاً عن الله ، واليوم الاخر ، والجنة ، والحساب ، والعذاب ، ويشيرا الى الكثير من احداث العهدين القديم والجديد .

والحقيقة انه ليس لدينا ما يؤيد ان فكرة الله كانت في البدء غريبة بالكلية عن الوسط الجاهلي ، ثم دخلته ، وانتشرت به عن طريق ممثلي الاديان في بلاد العرب . امـا الكلمة « اله » ففي الاصل — كما يرى البعض — ساميـة من ايل « IL » التي تعطي نفس المعنى . وكذلك « رب » فهي — كما يقولون — متخذة من العبرية [٣] وتعطي في التوراة معنى العربية حيث تأتي Rab بمعنى العظيم ، و Rabbi بمعنى سيدي ، كما

---

(١) ص ٣٦ — ٣٧ ج ١ : البداية والنهاية

(٢) ص ١٤٨ السيرة لابن هشام

(٣) Enc. of Rel. & Eth. مجلد ٦ ص ٢٤٨

تأتي كالعربية تماماً بمعنى النقيض لكلمة عبد [١] . وفي العبرية ايضاً توجد « El » و Eloah و Elohim مرادفة لكلمة « اله » العربية و « God » الانجليزية [٢] .

وليس بعيداً ان تكون الكلمة في الاصل غريبة عن العربية ، فالكلمة « يهوه » – YHWH – نفسها ، كما يظن ، لم تكن معروفة بين العبرانيين قبل موسى ، ولهذا يؤكد البعض ان الاسم على الاقل – ان لم يكن المعبود نفسه – كان من اصل اجنبي [٣] .

اما العرب فتقول ان « الله » اصله إلاه على وزن فعال بمعنى مفعول (كامام) لانه مألوه ، اي معبود – هكذا يشاء اللغويون – فلما ادخلت عليه الالف واللام حذفت الهمزة تخفيفاً لكثرته في الكلام . وجوّز سيبويه ان يكون اصله « لاها » . ثم انهم يستخرجون له جذراً ، كعادتهم في الاسماء ، فيقولون ان اصله من أله يأله الهاً بمعنى تحيّر ، لان العقول تأله في عظمته او بمعنى اشتد جزعه عليه مثل وله ، او بمعنى لجأ اليه لان الله هو المفزع الذي يلجأ اليه . ويذكرون لذلك قول الشاعر :

ألهتَ الينا والحوادث جمة

او قول الآخر :

ألهت اليها والركائب وُقّف [٤]

هذا ، وليس بغريب على العربية ان تكون اللفظة من اساسها اجنبية عنها ، وانها ربما كانت هي نفسها أصلاً للجذر « أله » خلافاً لما يدعون من انها مشتقة من هذا الجذر .

ولعل اهم المعاني التي كانت تحمله فكرة الله وقتئذ السيادة ووجوب

---

(١) The Jewish Encyclopaedia مجلد ١٠ ص ٢٩٤
(٢) » » مجلد ٦ ص ١
(٣) » » مجد ٦ ص ١٣
(٤) راجع لسان العرب ج ١٧ ص ٣٦١ .

تقديم العبادة اليه . ولقد جاء في القرآن الكريم على لسان فرعون : « يا أيها الملأ ما علمت لكم من اله غيري ، فاوقد لي يا هامان على الطين فاجعل لي صرحاً لعلي اطلع الى اله موسى واني لاظنه من الكاذبين »[1]. والآية هذه تعطي ما كان يقصد بالاله الذي كان يطلق على موجودات حية وغير حية تقدس فتعبد. وبهذا ترقى الى مرتبة الالوهية، كما يطلق على خالق الوجود ومسبب الحياة الدنيا والعليا ، وان كان بعض الجاهلين لا يعتقد – كما بينا سابقاً – بالبعث والنشور وبدء حياة جديدة بعد الموت . وقد جاء في اللسان بهذا المعنى ان « الاله الله عز وجل ، وكل ما اتخذ من دونه معبوداً اله عند متخذه . والجمع آلهة . والآلهة الاصنام سموا بذلك لاعتقادهم ان العبادة تحق لها واسماؤها تتبع اعتقاداتهم لا ما عليه الشيء في نفسه »[2] .

وبعد هذه الكلمة الموجزة نتقدم الى عرض الكلام عن اقرب المخلوقات الى الله ، وهم سكان السماوات او الملائكة :

الملائكة : هم الملأ الأعلى او سكان السماوات . ان تُحدّث عنهم في الأرض فانما هم نازلون من اعلى عليين . ولهذا طلب قوم من قريش الى النبي في أوائل دعوته ان يكون الرسول ملكاً او ينزل عليه ملك من السماء يأخذ بيده ، كما جاء في الكتاب : « ما لهذا الرسول يأكل الطعام ويمشي في الاسواق لولا انزل عليه ملك فيكون معه نذيراً »[3] .

والآية هذه تدل دلالة واضحة على وجود الملك في عقلية الجاهليين ، ولا اظن انه اختلف عما عرفه الاسلام فيما بعد ، لان المصدر الذي استمدوا منه معلوماتهم عن الملك يكاد يكون واحداً .

والملك ، مجموعاً ، ورد في قول امية بن ابي الصلت :

---

(١) القرآن الكريم س ٢٨ آية ٣٨ .

(٢) لسان العرب ج ١٧ ص ٣٥٨ .

(٣) القرآن الكريم س ٢٥ آية ٨ .

وكأن برقــع والملائك حوله [1]

لا بل كان يعرف من صفات الملائكة ما عرف النبي نفسه فيما بعد. ومما يروى ان النبي قد تعجب من بيت لأمية جمع بين صور حملة العرش من الملائكة فقال :

رجل وثور تحت يمنى رجله   والنسر لليسرى وليث ملبد [2]

وعن ابن عباس ان النبي قال : صدق امية في قوله [3]

هذا ولا يوجد في القرآن وصف او اشارة الى المــادة التي نشأ أو خلق منها الملك ، لا بل ورد قوله تعالى : « وما يعلم جنود ربك إلا هو » [4] ، وذلك بخلاف الانسان والجان حيث جاء في القرآن الكريم: « خلق الانسان من صلصال كالفخار ، وخلق الجــان من مارج من نار » [5] . والمارج هي النار الصافية الخالصة من الدخان [6] .

ويؤثر عن عائشة ان النبي قال : خلقت الملائكـة من النور وخلق الجن من مارج من نار [7] . وكذلك ابن عباس يرى ان الملائكة خلقت من نور واسكنت السماء ، والجان خلقت من النار عينها واسكنت الارض . وهو يقول ايضاً : « ان الله خلق الفلك وخلق تحته بحراً من نار لا دخان لها ، وخلق نوعين من الملائكة : خلق من لهبها نوعــاً ومن جمرها نوعاً فالذين خلقهم من لهبها (ويقصد نورها) سماهم الملائكة والذين خلقهم من جمرها سماهم جاناً » [8] .

---

(١) لسان العرب ج ١٢ ص ٣٨٦

(٢) عجائب المخلوقات للقزويني : ص ٥٦ .

(٣) الاغاني ج ٣ ص ١٩٠

(٤) القرآن الكريم س ٧٤ آية ٣٤ .

(٥) القرآن الكريم س ٥٥ آية ١٣ – ١٥ .

(٦) تاريخ الخميس للديار بكري ج ١ ص ٣٧ .

(٧) انوار التنزيل للبيضاوي ج ١ ص ٥٢ .

(٨) تاريخ الخميس ج ١ ص ٣٦ .

وينقل القاسمي عن المضنون الكبير للغزالي قوله : « الملائكة والجن والشياطين جواهر قائمة بانفسها مختلفة بالحقائق اختلافاً يكون بين الانواع » وعن الاحياء : « والملك عبارة عن خلق خلقه الله تعالى شأنه افاضة الخير ، وافادة العلم ، وكشف الحق ، والوعد بالخير ، والامر بالمعروف ، وقد خلقه وسخره لذلك . والشيطان عبارة عن خلق شأنه ضد ذلك وهو الوعد بالشر ، والامر بالفحشاء والتخويف عند الهم بالخير ، وبالفقر »[1].

واذا ما اختلف المفسرون في حقيقة الملائكة ، فانهم اتفقوا بالاكثرية على انها اجسام لطيفة قادرة على التشكل بصور مختلفة . ولقد لخص القزويني النظر في الملائكة فقال : « زعموا ان الملك جوهر بسيط ذو حياة ونطق وعقل . والاختلاف بين الملائكة والجن والشياطين بالحقائق كالاختلاف بين الانواع . وذهب بعضهم الى ان الاختلاف بينهم كالاختلاف بين الكامل والناقص وبين الخير والشر . واعلم ان الملائكة جواهر مقدسة عن ظلمة الشهوة وكدورة الغضب لا يعصون الله ما أمرهم ، ويفعلون ما يؤمرون ، طعامهم التسبيح وشرابهم التقديس ، وأنسهم بذكر الله تعالى ، وفرحهم بعبادته . خلقهم الله تعالى على صور مختلفة واقدار متفاوتة لاصلاح مصنوعاته واسكان سماواته . »[2]

وقد يستدل من القرآن الكريم ان الملائكة خلق مجنحة . والاية : « الحمد لله فاطر السموات والارض جاعل الملائكة رسلاً اولي اجنحة مثنى وثلاث ورباع »[3] تدل دلالة واضحة على ذلك . والكثير منهم جميل الصورة جداً حتى لا يستطيع الانسان او الملائكة الاخرى ان تنظر الى نور حسنه الاخاذ ، فيضع برقعاً او يخفي وجهه باحد الاجنحة لهذا الغرض . والفن الفارسي لم يجرؤ على اظهار ملامح الامام علي « وبقية الائمة » ،

---

(١) مجلة المقتبس (١٩١٠) ص ١٧٩ ، ١٨٠ .

(٢) عجائب المخلوقات ص ٥٥ .

(٣) القرآن الكريم : س ٣٥ آية ١ .

فكان وجهه ، مغطى بقناع وذلك للاعتقاد الناشيء في فارس خاصة بانه لا يمكن للحضور ان يتحملوا تألق نوره ... اما إذا تمكنوا فانهم غير جديرين بهذه النعمة [1] .

وضرب المثل بجمال الملك . وافضل بيّنة على ذلك ما جاء على لسان النسوة اللواتي لمن امرأة العزيز على مراودتها يوسف عن نفسه . فقد جمعتهن الاميرة واطلعت يوسف عليهن فقلن : « حاش لله ما هذا بشراً ان هذا الا ملك كريم » [2] .

على ان هذا النوع من الملائكة لا يمكن ان يكون كجبريل ذي الستمائة جناح . روي عن النبي انه سأل جبريل ان يتراءى له في صورته فقال انك لن تطيق ذلك ، قال اني احب ان تفعل ... فخرج الرسول في ليلة قمراء فأتاه جبريل في صورته فغشي عليه ... ثم افاق فقال ما كنت ارى ان شيئاً من الخلق هكذا ، فقال جبريل : فكيف لو رأيت اسرافيل ؟ له اثنا عشر جناحاً ، جناح في المشرق وجناح في المغرب وان العرش على كاهله .. وانه ليتضاءل احيانا لعظمة الله حتى يعود مثل الوضع [3] . اما الوضع فهو العصفور الصغير .

والملائكة تتمثل بصور مختلفة . ومما يدل على هذا الاعتقاد ما جاء في السيرة : « ومر الرسول (ﷺ) بنفر من اصحابه بالصُّورين قبل ان يصل الى بني قريظة ، فقال : هل مر بكم احد ؟ قالوا يا رسول الله قد مر بنا دحية بن خليفة الكلبي على بغلة بيضاء عليها رحالة عليها قطيفة ديباج . فقال رسول الله ﷺ : ذلك جبريل ! بعث الى بني قريظة يزلزل بهم حصونهم ويقذف الرعب في قلوبهم » [4] .

---

(١) Asiatic Mythology ص ٤٩ .

(٢) القرآن الكريم : س ١٢ آية ٣١ .

(٣) الكشاف للزمخشري ج ٢ ص ٢١١

(٤) السيرة ٦٨٤–٦٨٥

وقيل ان جبريل تمثل لابي جهل بفحل من الابل [١] . ويقول ابن كثير ان جبريل كان يأتي النبي في صفات متعددة ، فتارة في صورة دحية بن خليفة الكلبي وتارة في صورة اعرابي وتارة في صورته التي خلق عليها [٢] .

وفي حنين وبدر ظهرت الملائكة في صور مختلفة تحارب مع المسلمين ضد الكفار [٣] .

وكما تمثل جبريل لمحمد بصورة دحية الكلبي ، كذلك كان قد اتى مريم من قبله في صورة آدمي شاب وضيء الوجه جعد الشعر سوي الخلق ، لم ينتقص من الصورة الآدمية شيئاً [٤] . ولقد جاء حديث ذلك في سورة مريم : « واذكر في الكتاب مريم اذ انتبذت من اهلها مكاناً شرقياً ، فاتخذت من دونهم حجاباً ، فأرسلنا اليها روحنا فتمثل لها بشراً سوياً » [٥] .

اما الآية : « والملك على ارجائها » [٦] — أي على ارجاء السماء — فتدل على كثرة عدد الملائكة الذي لا يحصى ، كما تدل الاخبار والاحاديث . روي عن (ابن ذر) قول النبي : « اني ارى ما لا ترون واسمع ما لا تسمعون . اطت السماء وحق لها ان تئط ، ما فيها موضع اربع اصابع إلا عليه ملك ساجد ... » [٧] .

ولقد اشرنا الى القول ان الملائكة لا يعرفهم غير خالقهم ، إلا ان صاحب الشريعة — كما يقول القزويني — أخبر بعضهم وهم

---

(١) السيرة لابن هشام ١٩١ ، ٢٥٨

(٢) البداية والنهاية ج ١ ص ٤٠-٤١

(٣) السيرة ٤٥٠ ، ٤٦١ ، ٥١٦ ، ٥١٧ ، ٨٤٩

(٤) الكشاف ج ٢ ص ٤

(٥) القرآن الكريم س ١٩ آية ١٦-١٨

(٦) القرآن الكريم س ٦٩ آية ١٧

(٧) مسند ابن حنبل : ج ٥ ص ١٧٣ وقد جاء في عجائب المخلوقات ص ٥٥ : قال صلعم : « أطت السماء وحق لها ان تئط ما فيها قدر شبر إلا وعليه ملك راكع او ساجد »

الملائكة المقربون . ولهذا نرى ان من المفيد تلخيص ما جاء في « عجائب المخلوقات » عن هذه المخلوقات لتصوير فكرة قديمة عن الملائكة . فمنهم :

١ – حملة العرش : – اعز الملائكة . وهم ، كما ذكرنا ، على صور مختلفة . وقد قال تعالى فيهم : « والملك على ارجائها ، ويحمل عرش ربك فوقهم يومئذ ثمانية » [١] . وقال ابن عباس : وهم اليوم اربعة فأذا كان يوم القيامة ايدهم الله تعالى بأربعة .

٢ – الروح : – كل نفس من انفاسه تصبح روحا لحيوان وهو موكل بادارة الافلاك وحركات الكواكب .

٣ – اسرافيل : – قدماه تحت الارض السابعة ورأسه عند قوائم العرش !. فكيف لا يكون اهول من جبريل ؟ وهو نافخ الارواح ، ومدبر الاوامر .

٤ – جبريل : – امين الوحي ، والروح الامين وافضل الملائكة . وهو وان كان ، كما يظهر ، اضعف من اسرافيل ، واقل حجما ، الا انه كما قال فيه تعالى : « ذي قوة عند ذي العرش مكين » [٢] . ويكفيه قوة انه رفع قرى قوم لوط بجناحيه ، وصعد بها حتى سمع اهل السماء صياح ديكهم ، ثم قلبها !!

٥ – ميكائيل – موكل بالارزاق للاجساد ، والحكمة والمعرفة للنفوس ... وهو ان فتح فاه لم تكن السماوات في فيه الا كخردلة في بحر ! وهو لو اشرف على اهل السماوات والارضين لاحترقوا من نوره .

٦ – عزرائيل : – مسكن الحركات وفاصل الارواح عن الاجساد ، له اعوان بعدد من يموت . وهو رفيق بأهل التوحيد يقبضهم بيمينه في حريرة بيضاء مغموسة في المسك . واما اهل الكفر فبشماله في سربال من قطران . وهنالك قصة صداقته لسليمان نغض النظر عنها لضيق المقام .

---

(١) القرآن الكريم س ٦٩ آية ١٧

(٢) القرآن الكريم س ٨١ آية ٢٠

٧ — الكروبيون : — تنبىء احاديث النبي عنهم انهم خلـــق لا يعرفون الا العكوف في حضرة القدس ، والاستغراق في التسبيح ليلاً نهاراً لا يفترون .

٨ — ملائكة السماوات السبع : — يسبحون حتى قيام الساعة ، فاذا قامت ، يقولون سبحانك ما عبدناك حق عبادتك . وهم في السماء الدنيا على صور البقر ، وفي الثانية على صور العقبان ، وفي الثالثة نسور ، والرابعة خيل ، والخامسة حور عين ، والسادسة ولدان ، والسابعة بنو آدم !! موكل بهم على الترتيب ، الملائكة : اسماعيل ، ميخائيل ، صاعديائيل ، صلصائيل ، كلكائيل ، سمحائيل ، روبائيل . وفوق السماوات السبع ملائكة اخر لا يعرفون بعضهم لكثرتهم ، يسبحون الله بلغات مختلفة كالرعد الصاعق !

٩ — الحفظة : — وهم الكرام الكاتبون ، الموكلون بتسطير افعال الانسان . قال الله تعالى : « كلا بل تكذبون بالدين ، وان عليكم لحافظين ، كراماً كاتبين ، يعلمون ما تفعلون » [١] .

١٠ — المعقبات : — ينزلون بالبركات ويصعدون بارواح البشر واعمالهم ليل نهار .

١١ — منكر ونكير : — الملكان اللذان ، يحاسبان المرء في قبره بسؤاله عن ربه ونبيه ...

١٢ — السياحون : — يسيحون في الارض ويغشون مجالس الذكر ، ويرفعون ما يشهدون الى الله ، وهم غير الحفظة .

١٣ — هاروت وماروت : — وقد مر عنهما الحديث في كلامنا عن العزى او كوكب الحسن التي اغرت حتى الملائكة كما شاهدنا بذلك ، الاعتقاد بتركيب شهوة الجسد حتى في صلب الملائكة .

١٤ — الموكلون بالكائنات : — وهؤلاء شأنهم اصلاح الكائنات ودفع

---

(١) القرآن الكريم س ٨٢ آية ٩ — ١٢

الفساد عنها . يقوم بعضهم بهندسة جسم الانسان اثناء نموه بالتغذي [1] ..

وليلاحظ ان القزويني في هذا الوصف العام ، انما وافق بين ما جاء في القرآن والسنة وما عرف عن ارسطو والافلاطونية الحديثة .. مستهدفاً ما يرمي اليه في كتابه من رسم صورة للعالم المخلوق في دقائقه واعاجيبه . ولا بدع ان الكثير من هذه المعلومات الاسلامية عن الملائكة وغيرها ، إنما هي دخيلة ومستمدة من الفِكَرِ غير الاسلامية كالفلسفية والمسيحية والثنوية والوثنية [2] . وبها الكثير من الاسرائيليات حتى ان ابن كثير يرى ان حديث هاروت وماروت بالجملة خبر اسرائيلي مرجعه الى كعب الاحبار . ويقول ايضاً : « وقد ورد في قصتها وما كان من امرهما آثار كثيرة غالبها اسرائيليات » [3] .

وليس غريباً ان يؤخذ ممن ذكرنا بعض المعلومات ، وقد احتك بهم الجاهليون منذ عصور خلت . وكيف لا تكون هذه الاخبار وامثالها غريبة في البدء عن الوسط الجاهلي ، والكلمة « ملائكة » الاصلية انما هي جمع تكسير – كما يقول مكدونلد – للكلمة السامية القديمة « ملأك » بمعنى رسول [4] . وليس بعيداً ان نكون اخذناها عن العبرية . والتخفيف في العربية معروف . وهل اسهل من نقل « ملأك » الى « ملك » ؟ ، والجميل انك اذا استشرت اللسان وجدت ان ابا عبيدة انشد قول رجل من عبد القيس ، جاهلي ، يمدح ملكاً فيقول :

فلست لأنسي ولكن لملأك تنزَّل من جو السماء يصوب [5]

---

(١) عجائب المخلوقات ص ٥٥ – ٦٣ وبراجع البداية والنهاية ج ١ ص ٤٠ – ٥٠ وهنالك في القزويني (على هامش الدميري) فصل زائد عما في نسخة وستنفلد تتعلق بصور من ذكرنا من الملائكة وملابسهم .

(٢) يراجع Enc. of Islam : مجلد ٣ ص ١٩٢ .

(٣) البداية والنهاية ج ١ ص ٤٨ .

(٤) Enc. of Islam مجلد ٣ ص ١٨٩ .

(٥) لسان العرب ج ١٢ ص ٣٨٦ .

فاللام في « ملك » كانت ساكنة فحركوها بنقلهم اليها حركة الهمز . فاذا جمعوه ردوا في الجمع الهمز الاصلي ، فقالوا ملائك وملائكة .

واقرب من ذلك ما جاء في تفسير الطبري من ان اصل الملك « الرسالة » كما قال الشاعر الجاهلي عدي بن زيد :

أبلغ النعمان عني ملأكاً انه قد طال حبسي وانتظاري[1]

وهذا ما يوافق تماماً قول مكدونلد ان كلمة « ملك » العربية سامية قديمة « بمعنى رسول » اتخذناها عن اللغة العبرية .

الفصل الثاني : الجن

قدم الاعتقاد بالجن : أن الجن بحث طلي ممتع . والاعتقاد بالجن قديم جداً ، ولربما شأى بالقدم الاعتقاد بالآلهة . وتكاد الميثولوجيا العالمية لا تخلو من هذا الاعتقاد الذي حافظ على بقائه منذ ان خشي الانسان خوافي الطبيعة ، او الارواح المحتجبة عن عيوننا حتى يومنا هذا .

ولكل أمة قديمة جن وشياطين تلعب دوراً هاماً في حياتها ، لا يقل احياناً كثيرة عن دور الآلهة . وهي تختلف بالاسماء والافعال بحسب عقلية الشعب وما ورثه من معتقدات ومؤثرات وقصص .

ومن بين تلك الشعوب القديمة امم الساميين[2] الذين بزغت في اراضيهم الديانات الثلاث الكبرى ... ونخص بالذكر هنا الشعب العربي الذي سكن بلاد العرب ، وحافظ في وجوده الخالد وحياة لغته على تراث الساميين اكثر من غيره .

والبحث يطول ويتسع مهما أسهبنا فيه ، فلا نستطيع هنا الا ان نحيط بمختصر مفيد يشمل حديث هذا الباب . .

لقد عم الاعتقاد في الجن الخاصة والعامة ، « فلم يخالف احد —

---

(١) تفسير الطبري ج ١ ص ١٥٢ .

(٢) راجع ص ٣٥٢ The Mythology of All the World V. 5 (Semetic)

كما يقول ابن تيمية - من طوائف المسلمين في وجود الجن ، وجمهور طوائف الكفار على اثبات الجن . أما اهل الكتاب من اليهود والنصارى فهم مقرون بهم كأقرار المسلمين ، وان وجد فيهم من ينكر ذلك ، كما يوجد بعض طوائف المسلمين ، كالجهمية والمعتزلة . » [١] . وبهذا يقول الدميري : « فاعلم ان الاحاديث في وجود الجن والشياطين لا تحصى ، وكذلك أشعار العرب واخبارها ، فالنزاع في ذلك مكابرة فيما هو معلوم بالتواتر » [٢] .

ما هي الجن ؟ : ومن الصعب تحديد الجن بتعريف خاص ؛ ولا اظن ان تعريفاً محدوداً يعطينا ما تعطينا هذه اللفظة وحدها : « الجن » .

قال القزويني : - والكلام ، كما يقول القاسمي ، لابن سينا في كتاب الحدود [٣] - « زعموا ان الجن حيوان هوائي مشف الجرم من شأنه ان يتشكل باشكال مختلفة » [٤] . وفي حياة الحيوان ، قال الدميري في تعريف الجن انها « اجسام هوائية قادرة على التشكل باشكال مختلفة ، لها عقول وافهام وقدرة على الاعمال الشاقة » [٥] .

وما هذان التحديدان إلا عبارة عن محاولة لتعريف الجن بحسب ما وصلت للمؤلفين الاخبار منذ الجاهلية . والتعريفان يكادان يجمعان أهم النقاط التي وردت في غيرهما من تعاريف العلماء والمفسرين والفلاسفة [٦] . وخير ما يتحصل من كلامهم انها مخلوقات مجردة عن الجسمية قادرة على التشكل !

وهم مخطئون في تحديدهم للجن ، لانهم لا يفرقون بين نوع وآخر ،

---

(١) ص ٥ : آكام المرجان في احكام الجان لبدر الدين الشبلي .

(٢) ص١٨٨ ج ١ : حياة الحيوان الكبرى للدميري وراجع ص١٠٤٦ ج١ Enc. of Islam

(٣) راجع ص ١١٧ - مجلة المقتبس ١٩١٠ .

(٤) ص ٣٦٨ : عجائب المخلوقات للقزويني .

(٥) ص ١٨٥ ج ١ الدميري .

(٦) راجع اقوالهم مختصرة في المقتبس ص ١٧٧ - ١٩٤ .

فهي ، كما نستدل من اعتقاد القوم الذي تحمله لنا الاخبار ، أصناف مختلفة : منها ما يقدر على التشكل ويملأ حيزاً ، ومنها ما يتشكل وهو جرم خيالي .

والسائد ان الله خلق الملائكة – كما ذكرنا – من نور ، وخلق الجن والشياطين من اللهب والدخان . وقد ورد في الكتاب آيات تخبر ان النار عنصر الجن . قال تعالى : « والجانّ خلقناه من قبل من نار السموم » [1] . وفي مكان آخر : « وخلق الجان من مارج من نار » [2] وعلى لسان ابليس حينما عصى ربه ولم يمتثل بالسجود لآدم : « خلقتني من نار وخلقته من طين » [3] .

جن سليمان : والجن ، كما جاء في الاخبار ، هم سكان الارض قبل النوع البشري : اربعون فرقة كل فرقة ستمائة الف ... اكثروا في الأرض فساداً وثاروا على الآلهة ، فلاحقتهم الملائكة وحاربتهم ، ثم شتتتهم وطردتهم الى اطراف الجزائر في البحور بعد ان أسرت منهم الكثير . كل ذلك وآدم لم يخلق بعد ، ولم يسكن الارض [4] .

ولعلهم لم يجشدوا ثانية إلا لسليمان ، حيث نادى جبريل : ايتها الجن والشياطين ، أجيبوا باذن الله تعالى نبيّه سليمان بن داود ، فخرجت الجن والشياطين من المغارات ومن الجبال والآكام والاودية والفلوات والآجام وهي تقول : لبيك لبيك ... والملائكة تسوقها سوق الراعي غنمه حتى حُشرت لسليمان طائعة ذليلة . ثم وقفوا بين يديه فجعل ينظر الى خلقها وعجائب صورها وهم بيض وسود وصفر وشقر وبلق ، على صور الخيل والبغال والسباع ... ولها خراطيم واذناب وحوافر وقرون .. ثم قام

(١) القرآن الكريم س ١٥ آية ٢٧ .
(٢) القرآن الكريم س ٥٥ آية ١٥ .
(٣) القرآن الكريم س ٧ آية ١١ .
(٤) راجع تفسير الطبري ص ١٥٣ ج ١ ، والقزويني ص ٣٦٨ والشبلي ص ٩ – ١٠ ، ثم Langdon ص ٣٥٢ .

سليمان وبيده الخاتم ، فخرّت الجن والشياطين ساجدة ، فأخذ يسألهم عن أديانهم وقبائلهم ومساكنهم وطعامهم وشرابهم ... ورأى المردة منهم يهمون بالفساد ، ففرقهم على الاعمال الشاقة ليدعم قوة ملكه .

ولقد خرّف وهب بن مُنبّه فقال : لما حشدت الريح الصرصر الجن لسليمان ، وجدهم على صور عجيبة . منهم من كان وجهه على قفاه يخرج من فيه النار ، ومنهم من كان يمشي على اربع ، ومنهم من كان له رأسان ، والبعض له رؤوس الاسد وابدان الفيلة . ورأى سليمان شيطاناً نصفه صورة كلب ، والنصف الآخر صورة سِنَّور ، وله خرطوم طويل ، فسأله عن نفسه فذكر اسمه وقال صنعتي الغناء وعصر الخمر وشربه ، وتزيين ذلك للبشر . فصفده وسأل آخر قبيح الشكل يقطر الدم من كل شعرة على بدنه ، فأجابه ان عمله سفك الدماء ، فامر بتصفيده ، ولكنه قدم عهداً بأن لا يفسد ، فختم على عنقه واطلقه . ومر به ثالث في صورة قرد له اظافر كالمناجل ، وهو قابض على بربط ، فسأله عن اسمه وعمله ، فقال انا مرة بن الحارس ، اول من وضع هذا البربط وحركه ، فلا يجد احد لذة الملاهي الا بي ، فأمر بتصفيده [1].

مواطن الجن في بلاد العرب : ولعل للوهم والخوف اكبر الاثر في تحديد اماكن الجن ومساكنها عند الاعراب ، والا فلماذا لا تكثر معارضات الجن للاعراب الا في البوادي الجرداء ، وبطون الاودية ؟ والا لماذا لا تعبث وتحوم الا في الخرائب والاماكن المهجورة ، حيث تحاك من حولها الخرافات المخيفة والاساطير التي تحذر الناس من الاقتراب من هذه المواضع ؟ ينقل الجاحظ عن بعض اصحاب التفاسير : « ان جماعة من العرب كانوا اذا صاروا في تيه من الارض وتوسطوا بلاد الحوش ، خافوا عبث الجنّان والسعالي والغيلان والشياطين ، فيقوم احدهم فيرفع صوته : انا عائذون بسيد هذا الوادي ، فلا يؤذيهم احد ، وتصير

(١) راجع القزويني ص ٣٧٢ - ٣٧٤

لهم بذلك حفاوة »[1] .

وليلاحظ ان الجن ، التي قالوا عنها انها حشدت لسليمان ، خرجت من المغاور والجبال والآكام والاودية والفلوات . . . وكلها اماكن رهيبة تلقي الرعب - وخاصة في هدأة الليل - في قلوب الناس .

ويقول الجاحظ ايضاً : « وتزعم الاعراب ان الله تعالى حين اهلك الامة التي كانت تسمى (وبار) كما اهلك طسماً وجديساً وعملاق وثموداً وعاداً ، سكنت الجن في منازلهم وحمتها من كل من ارادها ، وانها اخصب بلاد الله واكثرها شجراً واطيبها ثمراً واكثرها حباً وعنباً واكثرها نخلا وموزاً ، فان دنا اليوم انسان من تلك البلاد متعمداً او او غالطاً حثوا في وجهه التراب ، فان ابى الرجوع خبلوه وربما قتلوه »[2] .

وقد ضرب المثل في بعد الاهتداء لوبّار ، وكثرت في ذلك الاشعار. وهم يتحدثون عن (وبار) كما يتحدثون عما يجدونه بالدوّ ، والصمان ، والدهناء ، ورمل يبرين . يقول الجاحظ : « قالوا فليس اليوم في تلك البلاد الا الجن والابل الوحشية . والحوش من الابل عندهم هي التي قد ضربت فيها فحول ابل الجن ... فالحوشية من نسل إبل الجن ، والعبدية والمهرية والعسجدية والعمانية قد ضربت فيها الحوش »[3] .

وكثيراً ما تذكر الشعراء مواضع للجن يضرب بها المثل ، وهي في اماكن شتى في بلاد العرب ، كأن يقولوا : جن البديّ وجن البقّار ، وجيهم ، وابرق الحنّان الذي يسمع فيه عزيف الجن ، وذو سمار ، وعبقر[4] وغيرها .

والهمداني حينما يشير الى الاماكن التي ذكرها لبيد في قصيدته

---

(١) البيان والتبين للجاحظ ص ٦٧ ج ٦

(٢) المصدر نفسه ص ٦٦

(٣) المصدر نفسه ص ٦٦ .

(٤) ص ١٢٨ ، ١٥٤ : صفة جزيرة العرب .

الكبرى ويأتي على البيت :

غلب تشذر بالذحول كأنها جن البديّ رواسياً اقدامها

يقول : « البدي موضع ينسب اليه كثرة الجن . ولا يكاد يعرف ، كما يقال جن عبقر وجن ذي سمار . وذو سمـــار موضع معروف . ويقولون غول الربضات : موضع معروف بنجد ، وجن وبار ، وهي ارض كانت أمم من العرب العاربـــة تسكنها ، ولم الق من يعرفها » [١] .

« وقالوا شيطان الحماطة ، وغول القفر وجان العشر ، وشيطان عبقر . ونسب كل شيء في الجودة الى عبقر حتى قيل لم ار عبقرياً مثله » [٢] .

عبقر : ولعل عبقر اشهر ما يلفت النظر من هذه الاماكن . فهي مجنة كثر الاختلاف في تعيين موقعها . يقولون انها في ارض اليمن ، ويقولون انها موضع بنواحي اليمامة ، ويقولون ان عبقر اسم لجبل بالجزيرة كان يصنع به الوشي . ويعلق ياقوت بعد ذلك بقوله : ولعله كان بلداً قديماً وخرب ، كان ينسب اليه الوشي ، فلما لم يعرفوه نسبوه الى الجن ، ومن ثم نسب كل شيء جيد الى عبقر [٣] .

وخير ما في المعاجم اللغوية ان عبقر قرية يسكنها الجن فيما زعموا ، ينسبون اليها كل عمل دقيق وعظيم [٤] .

يقول امرؤ القيس في وصف جسرته الذلول :

كأن صليل المروحين تطيره صليل زيوف ينتقدن بعبقرا [٥]

ومما جاء في مقدمة « عبقر المعلوف » ان عبقر على رأي (ادي اشير) فارسية من كلمة (ابـــكار) بمعنى الرونق والعزة والكمال او على رأي الاستاذ انستاس الكرملي يونانية من كلمة Hyperkheir بمعـــنى (الذي

---

(١) ص ٢٢٣ : صفة جزيرة العرب .

(٢) ص ٢٨١ ج ٢ محاضرات الادباء للراغب الاصفهاني .

(٣) راجع ص ٦٠٦ - ٦٠٧ ج ٣ : معجم البلدان .

(٤) ص ٣٧٩ ج ٣ : لسان العرب .

(٥) ص ١٣٠ العقد الثمين في دواوين الشعراء الجاهليين .

تنال يده ما وراء مكنته) او كلمة Hyperkheiria بمعنى (المحامية القوية اليد والقديرة) وهذا لقب يونون او هـيرا اليونانية Héra التي كرمها القدماء ، وكل ذلك من معاني العبقرية أي الكمال من كل شيء او التفوق والقوة [1] .

انتقال قرى الجن : وكثيرة تلك الروايات التي من شأنها اثبات اعتقادهم بانتقال قرى الجن بكاملها من مكان الى مكان بسرعة مدهشة ، كأن يقولوا مثلاً : مررنا بقوم ونزلنا للراحة عندهم ، ثم غادرناهم ، وعدنا بعد قليل فلم نجد للقوم اثراً فعلمنا انهم الجن . والشبلي في كتابه : « آكام المرجان في احكام الجان » ينقل عن الزمخشري ، قال : « تقول الاعراب ربما نزلنا بجمع كثير ، ورأينا خياماً وناساً ثم فقدناهم من ساعتنا . يعتقدون انهم الجن وان تلك خيامهم وقبابهم . » [2] .

ولا يستبعد ان يكون هذا الاعتقاد ناتجاً عن سرعة انتقال البدو من منتجع الى منتجع ، حتى إذا مر بهم قافل لم يجد إلا آثارهم ، فيقول في نفسه كأنهم الجن . والبدوي لا يعوقه شيء في السفر ، وهل سفر البدوي غير هد ورحيل ؟

مطايا الجن : ومن لطيف ما يروى ان الجن تركب انواعاً كثيرة من الحيوانات والطيور والزواحف والحشرات . ذكر الراغب الاصفهاني قال : « ادعوا ان الجن يركب كل وحش من البهائم والطيور الا الارانب ... والضباع .. والقرد ... وقالوا يكثر ركوبها القنفذ والورل ... وقالوا من قتل من اول الليل بعض هذه المراكب لم يأمن على فحل ابله . ومتى اعتراه غم او مرض في ماله واهله حكموا بأن ذلك عقوبة من قتلهم » [3] .

وكثيراً ما يمتطون الظباء في البوادي . قال بعض الاعراب : « احلف

(١) ص ٥ : عبقر شفيق المعلوف
(٢) الشبلي ص ٢٣ .
(٣) الراغب الاصفهاني : ص ٢٨١ ج ٢

بالله لقد كنت اجد بالظباء التوقيع في ظهورها والسمة في الآذان »[١]
ولم تنج الذئاب من ركوب الجن . جاء في الاغـاني عن رجل روى فقال : « بينا نحن نسير بين انقاء من الارض تذاكرنا الشعر ، فـاذا راكب اطيلس يقول : اشعر الناس زياد بن معاوية ، ثم تملص فلم نره »[٢].

على ان اشهر مطايا الجن ، واحب المركوبات اليهـا ، النعـام ، كما يظهر من اخبارهم . وفي عجائب المخلوقات قصة طريفة جرى ذكرهـا ، كما يزعمون ، في مجلس عمر بن الخطاب ، نثبتها على سبيـل التفكيه والاستشهاد قال راويها : « خرجت عاشر عشرة نريد الشام ، فتأخرت عن اصحابي حتى اختلط الظلام ، فرفعت لي نار فقصدتها ، فاذا أنا بخيمـة أمامها جارية جميلة ، فقلت لها ما تصنعين في هذا المكان ؟ فقالت انـا جارية من فزارة اختطفني عفريت ، وهو يغيب عني بالليل ويأتيني بالنهار ، فقلت لها امضي معي ، فقالت اخاف على نفسي الهـلاك ، فالححت عليها ، فأركبتها ناقتي ، وجعلت أمشي حتى طلع القمر ، فالتفتت فاذا ظليم عظيم عليه راكب ، فقالت : ها هو قد أتانا ، فما نريد نصنع ؟ فأنخت الراحلة وانزلتها ، وخططت حولها ، وقرأت آيات من القرآن وتعوذت بالله ، فتقدم وانشأ يقول :

يأذا الذي للحـين يدعوه القدر
خـل عن الحسناء رسلا ثم سر
اني امرؤ مالـك حين فاصطبر

فأجبت وقلت :

يا ذا الذي للحـين يدعوه الحمق
خلّ عـن الحسناء رسلا وانطلق
فلست بالجن بأول مـن عشق

(١) البيان والتبين للجاحظ ص ٧٤ ج ٦
(٢) ص ١٦٣ ج ٩ الاغاني .

فبرز الي في صورة اسود فتصارعنا ، فلم يغلب احد منا صاحبه . فقال لي هل لك في خصلة من خصال ثلاث ؟ قلت ما هي ؟ قال : تجز ناصيتي وتعرض عن الجارية ، قلت ناصيتك اهون شيء علي . قال : فتأخذ ما تشاء من الابل . قلت : لا ابيع ديني بعرض من الدنيا . قال : فاخدمك ايام حياتك . قلت : مـا لي الى خدمتك حاجة . فأنشأ يقول :

بلى جسدي والحب يبلى جديده ولم يبل مني اذ بلى جسدي ، وجدي
عليك سلام الله يا دعد ما جرت رياح الصبا في الغور يوماً وفي نجد

فسرت بها الى اهلها ، فزوجونيها ولي منها اولاد » [١] .

وفي الاغاني روى حاج بصري قال : فاني لاسير في ليلة اضحيانة ، اذ نظرت الى رجل شاب راكب على ظليم ، قد زمه بخطامه ، وهو يذهب عليه ويجيء ويرتجز ... فعلمت انه ليس بانسي ، فاستوحشت منه ، فتردد علي ذاهباً وراجعاً حتى انست به فسألته عن اشعر الناس فأجاب... ثم ذهب [٢] .

ولم يكن المعتقد بركوب الجن للنعامة عند الاعراب فحسب ، فلقد كان للنعامة صلة بالجن في الميثولوجيا العربيـــة ، كما كان لها علاقة بالجن في الميثولوجيا البابلية ايضاً [٣] .

اصناف الجن : وتختلف الروايات التي تضع الجن في مراتب وتقسمها الى اصناف . وقد نقل الشبلي قول ابي عمرو ، بن عبد البر ، قال : « الجن عند اهل الكلام والعلم منزلون على مراتب ، فاذا ذكروا الجن خالصـاً قالوا جني ، فان ارادوا انه ممن يسكن مع النـــاس قالوا عامر ، والجمع عمّار . فان كان ممن يعرض للصبيان قالوا ارواح ، فان خبث وتعرّم فهو

(١) ص ٣٧٣ - ٣٧٤ القزويني
(٢) ص ٧٨-٧٩ جـ ٨ الاغاني .
(٣) ص ٦ Langdon ويراجع الدميري ص ١٨١ جـ ١

شيطان ، فان زاد على ذلك فهو مارد ، فان زاد على ذلك وقوي امره قالوا عفريت ، والجمع عفاريت »[١]. وهم في الجملة جني وخواف فاذا ظهر الجني ونطق واتقى وصار كله خيراً فهو ملك[٢] . وجاء في عيون الاخبار ان الشياطين مردة الجن ، والجان ضعفة الجن[٣] .

وقد سئل وهب بن منبه عن الجن فقال : « هم اجناس ، فاما الصميم الخالص من الجن ، فانهم ريح لا يأكلون ولا يشربون ولا ينامون في الدنيا ولا يتوالدون . ومنهم اجناس يأكلون ويشربون ويتناكحون وهم السعالي والغيلان والقطارب وأشباه ذلك »[٤] .

وفي عرض الحديث عن الجن يقول ابن كثير : « والمقصود ان الجان خلقوا من النار وهم كبني آدم يأكلون ويشربون ويتناسلون »[٥] . وينسبون الى النبي احاديث يؤخذ منها ان الجن اصناف : منها ما هو كالريح يطير في الهواء وبأجنحة ، ومنها حيوانات كالحيات والعقارب وخشاش الارض ، ومنها ما يحل ويظعن كالآدميين وعليهم الحساب والعقاب[٦] . وفي عجائب المخلوقات يأتي القزويني على فصل في ذكر بعض المتشيطنة واشهرها الغول والسعلاة . وقبل ان نذكر شيئاً عنها نود ان نسوق كلمة عن شيخ الشياطين ...

ابليس : في رواية للطبري ان ابليس كان على رأس الملائكة الذين ارسلهم الله الى محاربة الجن في الارض قبل آدم[٧]. وفي الاخبار ، كما نقل القزويني ، ان ابليس كان في الأرض صغيراً حينما هبطت جند الملائكة

---

(١) ص ٨ الشبلي

(٢) البيان والتبيين ص ٥٩،٥٨ ج ٦

(٣) ص ١٠٩ ج ٢ : عيون الاخبار لابن قتيبة

(٤) الدميري ص ١٩٢ ج ١

(٥) ص ٥٦ ج ١ البدايه والنهاية

(٦) الدميري ص ١٨٥ ج ١ وراجع الشبلي ص ١٧–١٨

(٧) ص ١٥٣ ج ١ تفسير الطبري .

وشتتت الجن وأسرت منهم الكثير . وكان نفسه بين الاسرى حيث نشأ مع الملائكة [1] حتى سادهم ... الى ان كانت قصة العصيان ...

ففي الاولى نجد ان ابليس ملك تقي ثم انقلب الى شيطان رجيم ، وفي الثانية نجده في الاصل شيطاناً ... وارتفع الى مصاف الملائكة ثم انحدر من علياء الجنان ملعوناً الى جحيم الأرض ، ولا بأس فقد مر معنا امكانية انتقال الجني الى ملك اذا اتقى وصار خيراً كله ، او بالعكس كما حدث لهاروت وماروت .

وفي الكتاب آيتان يستدل من الأولى ان ابليس ملك من الملائكة وهي « واذا قلنا للملائكة اسجدوا لآدم فسجدوا الا ابليس ابى واستكبر وكان من الكافرين » [2]. وفي الثانية نرى تصريحاً بان ابليس كان من الجن وهي « واذا قلنا للملائكة اسجدوا لآدم فسجدوا الا ابليس كان من الجن » [3] . ونترك الآيتين كما هما دون تأويل مشيرين الى ان اختلاف الآراء في ابليس انما راجع لهما . اما القائلين بان ابليس من اصل جني فاكثر واشهر . يقول البيضاوي « على ان الملك لا يعصى ، وانما عصى ابليس لانه جنياً في اصله » [4] . وذكر المسعودي ان الله تعالى خلق الجان من نار السموم وخلق منه زوجته كما خلق حواء من من آدم وان الجان غشيها فحملت منه » [5] .

وقال الدميري « واعلم ان المشهور ان جميع الجن من ذرية ابليس ، وبذلك يستدل على انه ليس من الملائكة ، لان الملائكة لا يتناسلون لانهم ليس فيهم اناث » [6] .

---

(١) ص ٣٦٨ القزويني .
(٢) القرآن الكريم س ٢ آية ٣٢ .
(٣) القرآن الكريم س ١٨ آية ٤٨ .
(٤) ص ٥٦٥ ج ١ : انوار التنزيل
(٥) ص ٣٢٠ ج ٣ : مروج الذهب .
(٦) ص ١٩١ ج ١ الدميري .

ثورته : وتتلخص غضبة الله على ابليس بكبريائه وترفعه بعنصره « النار » (وهذا ما يؤيد انه من مصاف الجن) على الصلصال والحمأ المسنون . ويبتديء النضال الروحي بين ذريته وذرية خصمه آدم . وقد طلب منذ البدء من الله ان ينظره الى يوم يبعثون ليضل الانسان عن سبيله . وقد جاء على لسانه : « قال رب بما أغويتني لازينن لهم في الارض ولاغوينهم اجمعين » [١] .

بعد هذا كله نرى ان ابليس : اسمه وقصة عصيانه ، انما هما من مستوردات العرب ، وليس لنا بهما شيء اصلي البتة . قال النووي « ابليس كنيته ابو مرة . واختلف العلماء في انه هل هو من الملائكة من طائفة يقال لهم الجن ام ليس من الملائكة ، وفي اسمه هل هو اسم اعجمي ام عربي » ؟ [٢] وجاء في الدميري ان اسمه كان بالعبرانية عزازيل [٣] .. وكلما تقرأ شيئاً عنه يتبين لك شعورهم باجنبية ابليس وما يتعلق به .

وقد عرض لذلك Langdon في كتابه « الميثولوجيا السامية » فرأى ان اسطورة عصيان ابليس الاسلامية على الخالق انما هي مستمدة من القصة المسيحية اليهودية المذكورة في « اسفار آدم وحواء » .

اصل الكلمة : ويرى كذلك ان الكلمة نفسها « ابليس » مستعارة في العربية من الكلمة اليونانية Diabolos بمعنى الشيطان Devil [٤]. ومن هذا القبيل يرى نلدكه ان كلمة جن نفسها ربما كانت متعلقة باصطلاحات دينية استعملت في بعض اللغات السامية ، وان كان يرى ان جمعها (جنان) ذو شبه كبير بالكلمة Ganen الحبشية التي تعطي نفس المعنى ، وكذلك يرى ان كلمة « شيطان » مستعارة في اللغة العربية فهي

---

(١) القرآن الكريم س ١٥ آية ٣٩

(٢) الدميري ص ١٩١ ج ١

(٣) نفس المصدر

(٤) ص ٣٥٤ – ٣٥٥ Langdon .

تتفق كل الاتفاق مع « شيطان » الحبشية المشتقة من Satan العبرية[1].

فتنة للبشر : هذا ، ويتخذ ابليس عرشه على المـــاء . ومن هناك يرسل الشياطين لفتنة البشر ، وتكون المكافأة نسبية مع مقدار هـــذه الفتنة . اعظمهم عنده منزلة اشدهم فتنة . والظاهر ان التفريق بين الرجل وزوجه شيء مستحب عنده[2]. وهو يجازي اولئك الذين يعجزون عن فتنة البشر مجازاة قاسية . جاء في « آكام المرجان في احكام الجان » : « ان أبليس اتخـذ عرشاً على الماء ووكل بكل رجل شيطانين واجلهما سنة ، فان فتناه ، وإلا قطـع ايديهما وارجلهما ، وصلبهما ثم بعث له شيطانين آخرين »[3].

اولاد ابليس : ومن الشياطين الابطال خمسة ، يزينون الصغائر والكبائر للناس ، وهم اولاد ابليس على رأي مجاهد ، قال : « لابليس خمسة من الاولاد ، وقد جعل كل واحـد منهم على شيء من امره ، فذكر ان اسماءهم : ثبر ، والاعور ، ومبسوط ، وداسم ، وزلنبور ! امـا ثبر فصاحب المصايب يأمر بالثبور وشق الجيوب ، واما الاعور فانه صاحب الزناء يأمر به ويزينه في اعينهم .. واما مبسوط فصاحب الكذب ، واما داسم فيدخل بين الزوجين ويوقع بينهما البغضاء .. واما زلنبور فهو صاحب السوق ، وبسببه لا يزال اهل السوق مخاصمين »[4].

مصايده : **النساء** ! ومن لطيف ما ينسبون الى النبي – عـــن ابي امامة – قوله : « ان ابليس لما نزل الى الارض قال : يا رب انزلتني وجعلتني رجيما فاجعل لي بيتاً ، قال : الحمام .. قال : فاجعل لي مجلساً ، قال : الاسواق ، ومجامع الطرق .. قال : فاجعل لي طعاماً ، قال : ما لم يذكر اسم الله عليه .. قال : فاجعل لي شراباً . قال : كل

(1) ٦٦٦ ج ١ Enc. of Religion and Ethicth .

(2) الشبلي ص ١٧٥ .

(3) نفس المصدر ص ١٧٦

(4) القزويني ص ٣٦٨

مسكر .. قال : فاجعل لي مؤذناً . قال : المزامير ، قال : فاجعل لي قرآناً ، قال : الشعر .. قال : فاجعل لي خطا ، قال : الوشم .. قال : فاجعل لي حديثاً ، قال : الكذب . قال : فاجعل لي مصايد ، قال : النساء .. » [1] .

الغيلان والسعالي : الغول اشهر المتشيطنة في رأي القزويني . وهو ، كما زعموا « حيوان مشوه لم تحكمه الطبيعة ، وانه لما خرج مفرداً لم يستأنس وتوحش ، وطلب القفار ، وهو يناسب الانسان والبهيمة ، وانه يتراءى لمن يسافر وحده في الليالي واوقات الفلوات ، فيتوهم انه انسان فيصد المسافر عن الطريق » [2]. وقد حدده الجاحظ قبل ذلك فقال : « الغول اسم لكل شيء من الجن يعرض للسفار ويتلون في ضروب الصور والثياب ذكراً كان ام انثى ، إلا ان الاكثر على انه انثى » [3]. والدميري يقول : « الغول بالضم احد الغيلان ، وهو جنس من الجن والشياطين ، وهم سحرتهم » . ونقل عن الجوهري قوله : « هو من السعالي والجمع اغوال وغيلان ، وكل ما اغتال الانسان فأهلكه فهو غول ، والتغول التلون .. ويقال تغولت المرأة إذا تلونت . ويقال غالته غول ، إذا وقع في مهلكة » [4] .

وقال المسعودي : « وللعرب في الغيلان والتغول اخبار طريفة لانهم يزعمون ان الغول يتلون لهم عند الخلوات ، وانها تظهر لخواصهم في انواع من الصور يخاطبونها ، وربما باضعوها ، وقد اكثروا من ذلك في اشعارهم » [5] . « ويزعمون ان رجليه رجلا عير ، فكانوا اذا اعترضتهم الغول في الفيافي يرتجزون فيقولون :

---

(١) القزويني ص ٣٦٨

(٢) نفس المصدر ص ٣٧٠

(٣) البيان والتبيين ص ٨٤ ج ٦ .

(٤) الدميري ص ١٦٧ ج ٢ .

(٥) مروج الذهب ص ٣١٤ ج ٣ .

يا رجل عير انهقي نهيقاً … لن نترك السبسب والطريقا

وذلك انها كانت تتراءى لهم في الليالي واوقات الخلوات ، فيتواهمون انها منهم ، فيتبعونها فتزيلهم عن الطريق الذي هم عليه ، وتتيههم[1]. وكان ذلك قد اشتهر عندهم وعرفوه ، فلم يكونوا يزولون عما هم عليه من القصد . فاذا صيح بها على ما وصفنا شردت عنهم في بطون الاودية ورؤوس الجبال »[2].

ومن غريب ما يروون عن الغول انها اذا ضُربت ضربة واحدة ماتت ، إلا ان يعيد عليها الضارب قبل ان تقضي ضربة اخرى ، فان فعل ذلك لم تمت . ولهذا اشار الشاعر بقوله :

فثنّيت والمقدار يحرس اهله … فليت يميني قبل ذلك شُلّت[3]

واما السعلاة فلا اراها تفترق عن الغول . قال الجاحظ « والسعلاة سم لواحدة من نساء الجن تتغول لتفتن السفار . قالوا وانما هذا على العبث او لعلها ان تفزع انساناً فيتغير عقله من اجله عند ذلك ، لأنهم لم يسلطوا على الصحيح العقل »[4]. ويرى الدميري انها اخبث الغيلان ، ونقل عن غيره ان السعالي سحرة الجن[5]. واخذ عن السهيلي قوله ان « السعلاة ما يتراءى للناس بالنهار والغول ما يتراءى للناس بالليل »[6]. واما القزويني فيرى ان السعلاة نوع من المتشيطنة متغايرة للغول . وانها اكثر ما توجد في الغياض ، وإذا ظفرت بانسان ترقصه وتلعب به كما يلعب الهرة بالفأرة .. ويذكر أن الذئب يفترسها فتستغيث ، إلا ان القوم يعلمون انها السعلاة فلا يغيثها احد فيأ كلها الذئب »[7]. ولا ادري كيف يتمكن الذئب

---

(١) راجع الدميري ص ١٦٧ ج ٢ .

(٢) مروج الذهب ص ٣١٥ الى ٣١٦ ج ٣

(٣) البيان والتبيين ص ٧٢ ج ٦

(٤) نفس المصدر ص ٤٨

(٥) الدميري ص ١٨ و ١٦٨ ج ٢

(٦) الدميري ص ٢٠ ج٢

(٧) القزويني ص ٣٧٠ الى ٣٧١

من افتراس من يلعب بالانسان كما يلعب القط بالفأر ؟ وكثيرون من الناس من يفترسون الذئب نفسه ! !

ومما ذكره ابن منظور ان السعلاة ساحرة الجن كما ذكر الدميري ، على انه اشار الى القول بانها هي الغول عينهـا التي تذكرها العرب في أشعارهـا [١] .

تشكل الغيلان والشياطين : وكما ان للملائكة القدرة على التشكل ، كذلك تتشكل الغيلان وغيرها من الجن في صور مختلفة . وقد ضرب ابن زهير تلون الغول مثلاً لتحول « سعاد » فقال :

وما تزال على حال تكون بها كما تلون في اثوابهـا الغول

وقد زعموا ان الجن والشياطين والغيلان يتحولون في اي صورة شاءوا إلا الغول فانها تتحول في جميع صور المرأة ولباسها إلا رجليها فلا بد ان يكونا رجلي حمـار [٢] . وقال الشبلي لا شك ان الجن يتطورون ويتشكلون في صور الانس والبهائم فيتصورون في صور الحيـات والعقارب ، وفي صور الابل والبقر والغنم والخيل والبغال والحمير ، وفي صور الطير ، وفي صور بنى آدم كما اتى الشيطـان قريشا في صورة سراقة بن مالك بن جعشم لما ارادوا الخروج الى بدر « وكما يروى انه تصور في صورة شيخ نجدي لمـا اجتمعوا بدار الندوة للتشاور في امر الرسول صلى الله عليه وسلم هل يقتلوه او يحبسوه او يخرجوه » [٣]

كذلك تمثل ابليس في صورة شيخ نجدي وجاء قريشاً لما اختلفت في امر الركن والتجأت الى محمد [٤] .

صياح الديكة : والجن كما تظهر (في اعتقادهم) للناس احياناً ، خفية ، على الاكثر ، عن العيون ، في حين أنها تظهر لبعض الحيوانات . رووا

(١) لسان العرب ص ٤١٨ ج ٧
(٢) البيان والتبيين ص ٦٨ ج ٦
(٣) الشبلي ص ١٨ الى ١٩
(٤) الشبلي ص ١٨٧

عن ابي هريرة ان النبي قال : « اذا سمعتم صياح الديكة ، فأسألوا الله من فضله ، فانها رأت ملكاً . وإذا سمعتم نهيق الحمـار ، فتعوذوا بالله من الشيطان ، فانها رأت شيطاناً . . » [١]

معارك الجن : وكنا ذكرنا في الكلام عن مراتب الجن ان منها من لا يأكل ولا ينام ولا يتوالد . ومنها مـا هو على عكس ذلك ، يعيش بأسباب الحياة كلها ، بل يتنازع البقاء ويحارب بعضه بعضاً . قال « سمث » ان الزوابع في كثير من الاساطير العربيـــة ، عبارة عن الظواهر المرئية لمعركة بين عشيرتين من الجن [٢] .

ابليس وجمعه بين الذكورة والانوثة : وذكرنا ايضاً ان لابليس نفسه خمسة اولاد ، على ان الشياطين كلها من ذريته كما ان البشر من ذرية آدم . وقد جاء في الكتاب : « افتتخذونه وذريته اوليـــاء من دوني » [٣] ... على اننا لا نعرف لابليس زوجة ، وان قيل انهـــا خلقت منه كما خلقت حواء من آدم ، بينما نعرف عن امنا حواء الاخبار الطوال .

على انهم يذكرون ان في الجن ذكوراً واناثاً (خلاف الملائكة) فيتوالدون من ذلك .. ومن الطريف قولهم ان في ابليس وحده اعضاء الذكورة والانوثة معاً وذلك في فخذيه .. وبذلك يتوالد فيخرج له كل يوم عشر بيضات في كل بيضة سبعون شيطاناً وشيطانة [٤] ..

زوجة ابليس : لكنهم لا يكتفون بذلك ، بل يروون ان الله قال لابليس : لا اخلق لآدم ذرية إلا ذرأت لك مثلها ، فليس من ولد آدم احد إلا وله شيطان قد قرن به .. كما يروون حديثاً عن النبي ان الله لما اراد ان يخلق لابليس نسلاً وزوجة ، ألقى عليه الغضب فطارت

---

(١) الشبلي ص ١٩٣ .

(٢) ص ١٣٤ Smith : Rel. of the Semites

(٣) القرآن الكريم س ١٨ آية ٤٨ ؛

(٤) الدميري ص ١٩٢ ج ١ .

منه شظية من نار فخلق منها امرأته [١] .

التوابع والقرناء : وخلاصة القول في الجن انها مخلوقات خفية سخروا لفتنة الناس .

وكما لكل انسان ملك موكل به ، كذلك له قرناء من الشياطين .

رووا في حديث لعائشة ان النبي خرج من عندها ليلاً ورجع فتوسم فيها الغيرة ، فقال : مالك يا عائشة ؟ أغرت ؟ فقالت : ومالي لا يغار مثلي على مثلك ؟ فقال الرسول : افأخذك شيطانك ؟ فقالت : يا رسول الله ، أوَ معي شيطان ؟ قال : نعم ، ومع كل انسان . قالت : ومعك يا رسول الله ؟ قال : نعم .. ولكن ربي عزّ وجل اعانني عليه [٢].

وكثيراً ما اجمعوا ان لكل انسان قريناً من الشيطان . ولقد مر معنا ان عمرو بن لحي كان كاهناً ، وله رئيّ ، وكذلك غيره من الكهان الذين يسخرون توابعهم في اغراضهم وحيلهم . كما ظن القرشيّون ان في محمد رئياً . فقالوا له انهم مستعدون ان يلتمسوا له الطب والتعاويذ ! ولعل اشهر هذه التوابع والقرناء اولئك الذين يلقون الشعر على السنة الفحول من الشعراء ، ويعرفون « بشياطين الشعراء » وسنأتي ، بعد ، على ذكرهم .

الخوف من الجن ، وعبادتها : وكانت العرب في خوف دائم من الجن ، فلذلك كانوا اذا احتوتهم هوجل ، يستجيرون منها رهبة لا رغبة . قال الراغب : « كانت العرب اذا سار احدهم في تيه من الارض ، وخاف الجن يقول رافعاً صوته : انا مستجير بسيد هذا الوادي . ويصير له بذلك خفارة » [٣] . وقد اشار الكتاب الى هذه الاستعاذة فقال : « وانه كان رجال من الأنس يعوذون برجال من الجن فزادوهم رهقا » [٤] .

(١) الدميري ص ١٩٢ ج ١ .
(٢) الشبلي ٢٦ .
(٣) الراغب الاصبهاني ، محاضرات الادباء ص ٢٨٠ ج ٢
(٤) القرآن الكريم س ٧٢ آية ٦

ولم يقفوا عند حد الاعاذة والاستجارة بهم ، فقد قدموا لهم الذبائح ، و « ذبائح الجن ان يشتري الرجل الدار أو يستخرج العين او ما اشبه ذلك فيذبح لها ذبيحة للطيرة . وكانوا في الجاهلية يقولون اذا فعل ذلك لم يضر اهلها الجن . » [١] ويستفاد من بعض الاخبار ان هذه العادة او هذا الخوف من الجن قد استمر حتى بعد ان نهى النبي عن ذبائح الجن ، وعن اكل ما ذبح لهم وعلى اسمهم . وقيل ان بعض الخلفاء قد ذبح للجن حينما استنبط عيناً ، وذلك خوفاً من ان يغوروا ماءها [٢] .

والعامة ، حتى في ايامنا هذه ، لم تخل من الاعتقاد بهذه الخزعبلات حيث يقولون ان هذه الدار مأهولة بالجن ، وذاك المكان عامر بالارواح !

هذا ، وقد غالوا في الجاهلية حتى عبدوا الجن ، كما مر سابقاً . ومنهم من روى ان الآية : « اولئك الذين يدعون يبتغون الى ربهم الوسيلة ايهم اقرب .. » [٣] الى آخر الآية .. انما نزلت في نفر من العرب كانوا يعبدون نفراً من الجن [٤] .

كل ذلك لان الجن تستهوي الأنس وتخطفهم [٥] . وقد سبت رجلاً من الأنصار وأبقته عندها أعواماً [٦] . وضرب بمن استهوته الشياطين المثل فقيل : « كالذي استهوته الشياطين في الأرض حيران له اصحاب يدعونه الى الهدى » [٧] . وتردد حديث « خرافة » الذي استهوته الجن حتى ضرب به المثل ايضاً . قالت عائشة : « حدّث رسول الله ﷺ ، نساءه ذات ليلة حديثاً ، فقالت امرأة ، يا رسول الله كان الحديث حديث

---

(١) الدميري ص ١٩٦ ج ١

(٢) الشبلي ٧٨

(٣) القرآن الكريم س ١٧ آية ٥٩

(٤) الشبلي ١٢٢

(٥) راجع من استهوته الجن في محاضرات الادباء ص ٢٨١ ج ٢

(٦) الدميري ص ١٨٧ ج ١ .

(٧) القرآن الكريم س ٦ آية ٧٠ .

خرافة فقال : أتدرون ما خرافة ؟ ان خرافة كان رجلاً من عـــذرة أسرته الجن في الجاهلية ، فمكث فيهن دهراً طويلاً ثم ردوه الى الانس . فكان يحدث الناس بما رأى فيهم من الأعاجيب فقـال الناس : حديث خرافة » [1] .

ولم تكتف الجن باستهواء الانس ، فقد كانوا يقتلونهم عنـد الاساءة اليهم . وهذان حرب بن أمية ، ومرداس بن ابي عامر السلمي – رجلان عاشا قبـــل محمد بجيل [2] – تقتلهما الجن لاحراقهما شجر القرية . قال ابو الفرج : « وهذا شيء قد ذكرته العرب في أشعارها ، وتواترت الروايات بذكره » [3] . وكذلك قتلت علقمة بن صفوان وسعد بن عبادة [4] .

وكثيراً ما يروون ان الانس يقتلون الجن ، وهذا تأبط شراً يحمل الى قومه رأس الغول ، وذاك عمر بن الخطاب يصرع جنياً [5] . وذلك عمار بن ياسر يقاتل مع النبي الانس والجن ، ويروي عن نفسه يقول : « أرسلني رسول الله ، ﷺ ، الى بئر أستقي منها ، فرأيت الشيطان في صورته ، فصارعني فصرعته ، ثم جعلت أدمي أنفـه بفهر كان معي او حجر » [6] .

الغرام بين الثقلين : على ان هذا الصراع الغريب المتواصل لم يمنع الثقلين من الوقوع في حب بعضهما البعض . وقد مرت معنـا قصة الجني عاشق الجارية الفزارية . ومن الجنيات من يقعن في رجال من الانس . ويستدل من قصة ذكرها الجاحظ ان الصرع نفسه (وهو لا يقـع إلا للأنس رجالاً كانوا ام نساء) إنما هو نتيجة لهـــذا الحب ، وهو ليس عندهم الا عـــلى جهة مـا يعرفون مـن الضجاع [7] . « وهم

(١) مسند ابن حنبل ص ١٥٧ ج ٦ .
(٢) ص ١٣٣ Smith : Rel. of the Semites
(٣) الاغاني ص ٩٢ ج ٦ . راجع الاغاني ص ١٣٥ ج ٢٠ .
(٤) البيان والتبيين ص ٦٤ ج ٦ .
(٥) محاضرات الادباء ص ٢٨٠ ج ٢ .
(٦) الدميري ص ١٨٩ ج ١ .
(٧) البيان والتبيين ص ٨١ ج ٦ .

يزعمون ان المجنون إذا صرعته الجنية ، وان المجنونة إذا صرعها الجني ، ان ذلك إنما هو على طريق العشق والهوى وشهوة النكاح ، وان الشيطان يعشق المرأة منا ، وان نظره اليها من طريق العجب بها أشد عليها من حمى ، وان عين الجان اشد من عين الانسان » [1] .

وتشير الآية : « .. لا يقومون إلا كما يقوم الذي يتخبطه الشيطان من المس » [2] . الى اعتقاد القوم بالصرع او مخالطة الجن للانس ، وامتلاكهم مدة عنيفة من الزمن . هذا الاعتقاد الذي يظنه « نلدكه » غريباً ، وإن كان معروفاً لدى العرب في عصورهم التاريخية ، او – كما يقول – زاده الاحتكاك مع الأجانب متانة على الأقل [3] .

وتتردد مثل هذه الصلات بين الجن والانس ، بما دعا الشبلي في كتابه « آكام المرجان في احكام الجان » يقول : انه كما تجري مناكحة الجن فيما بينهم ، كذلك يمكن وقوع المناكحة بين الانس والجنية ، وبالعكس [4] . وجاء في الدميري : « قال الجاحظ وزعموا ان التناكح والتلاقح قد يقع بين الجن والانس لقوله تعالى : وشاركهم في الأموال والأولاد . وهذا ظاهر ، وذلك ان الجنيات إنما تتعرض لصرع رجال الانس على جهة العشق في طلب السفاد . وكذلك رجال الجن لنساء الانس . ولولا ذلك لعرض الرجال للرجال والنساء للنساء . قال تعالى : لم يطمثهن انس قبلهم ولا جان . ولو كان الجان لا يفتض الآدميات ، ولم يكن ذلك في تركيبه ، لما قال الله تعالى هذا القول » [5] .

وتكثر القصص والروايات في ذلك . ومن حديث لامرأة قالت : « معي جني يأتيني في اليوم مراراً ، واجد في نفسي ما أجد اذا جامعني

---

(١) البيان والتبيين ص ٨٧ ج ٦ .

(٢) القرآن الكريم س ٢ آية ٢٧٦ .

(٣) ص ٦٧٠ ج ١ Enc. Rel.

(٤) الشبلي ٦٦ .

(٥) نفس المصدر ص ٧٧ .

زوجي » ، وقالت اخرى : « ان جنياً يأتيني كما يأتي الرجل المرأة »[1]

وقد استمر الاعتقاد بنكاح الجن للانس الى ما بعد العصور الجاهلية. حدّث شيخ قال : « علق رجل من الجن جارية لنا ثم خطبها الينا ، وقال اني اكره ان انال منها محرماً فزوجناها منه . قال فظهر معنا يحدثنا ، فقلنا : ما انتم ؟ فقال : امم امثالكم ، وفينا قبائل كقبائلكم قلنا : فهل فيكم هذه الاهواء ؟ قال : نعم .. فينا من كل الاهواء : القدرية ، والشيعة ، والمرجئة . قلنا : من ايتها انت ؟ قال من المرجئة ..»[2].

« وقد سئل مالك بن أنس رضي الله عنه ، فقيل ان ههنا رجلاً من الجن يخطب الينا جارية ، يزعم انه يريد الحلال ! فقال : ما ارى بذلك بأساً في الدين ، ولكن اكره إذا وجدت امرأة حامل قيل لها من زوجك ؟ قالت من الجن ، فيكثر الفساد في الاسلام بذلك .. » [3]. وهو ، في الحقيقة ، تحفظ حكيم من الامام مالك ! وفي حديث ان النبي نهى عن نكاح الجن [4].

النتاج المشترك : والكلام يجرنا الى « النتاج المشترك » ، فقد زعموا أن رجلاً من الاعراب تزوج السعلاة وانها كانت عنده زماناً ، وولدت منه ، حتى رأت ذات ليلة برقاً على بلاد السعالي ، فطارت اليهن [5]. ومن هذا النتاج المشترك ، وهذا الخلق المركب عندهم بنو السعلاة من بني عمرو بن يربوع . وبلقيس ملكة سبأ . وجرهم ، حيث زعموا ان أباها من الملائكة الذين عصوا في السماء ، فانزلوا الى الارض ، كما حدث لهاروت وماروت [6] . وفي آكام المرجان ان احد ابوي بلقيس كان

(١) الدميري ص ٢٠ ج ٢ .
(٢) الشبلي ٦٩ .
(٣) نفس المصدر ص ٦٧ .
(٤) الدميري ص ١٩٤ ج ١ .
(٥) البيان والتبين ص ٦٠ ج ٦ . راجع الالوسي ص ٣٤٠ - ٣٤١ ج ٢ و Rel. of the Semites ص ٥٠
(٦) البيان والتبين ص ٦٠ - ٦١ ج ٦ .

جنياً .. كان ابوها من عظماء ملوك اليمن ، تزوج امرأة من الجن يقال لها ريحانة بنت السكن ، فولدت له بلقيس . وتسمى بلقمة ، ويقال ان مؤخر قدميها كان مثل حافر الدابة [1] .

فعمرو بن يربوع متولد من السعلاة والانسان ! ولذلك دعوا قومه بني السعلاة ، وبلقيس من الانسان والجنية ، وجرهم تولدت من وقوع الملائكة على بنات آدم ! ورووا ايضاً ان ذا القرنين من هذا النوع الأخير ، اي ان امه آدمية واباه ملك ! .. ولذلك لما سمع عمر بن الخطاب - كما يذكر الدميري - رجلا ينادي رجلا يا ذا القرنين ، قال : أفرغتم من اسماء الانبياء ، فارتفعتم الى اسماء الملائكة [2] ؟

هذا ، وزيدان ، تعليقاً على ما ذكرنا سابقاً من تشخيص العرب للاجرام السماوية ، وما ذكرنا هنا من اخبار بلقيس وسواها من النتاج المشترك ، يقول : « واما اصل هذه الاعتقادات ، فاما هندي او يوناني او مصري . اما الكلدان فقلما كانت لهم عناية بامثال ذلك » [3] .

صلة الجن بالكهان والاوثان : وللجن ، في الجاهلية ، صلة وثيقة بالكهان . وفي الحديث ان الشياطين كانت تسترق السمع في الجاهلية ، وتلقيه الى الكهنة فتزيد فيه ما تزيد وتقبله الكفار منهم [4] . ويقول النويري : وكانت كهنة العرب ، لهم اتباع من الشياطين يسترقون السمع ، ويأتونهم بالاخبار ، فيلقونها لمن يتبعهم ويسألهم عن خفيات الامور حتى جاء الاسلام [5] .

فالكهانة - كما في معلمة وجدي - « هي استخدام الجن في معرفة الامور المغيبة » . ويقول ان هذه الصناعة كانت معروفة عند العرب ،

---

(١) الشبلي ص ٧٠ .

(٢) الدميري ص ١٨ ج ٢

(٣) زيدان : تاريخ آداب اللغة العربية ص ١٨٥ ج ١

(٤) لسان العرب ص ٢٤٤ ج ١٧

(٥) النويري : نهاية الارب ص ١٢٨ ج ٣

فكان إذا ناب احدهم امر يريد معرفة داخليته او مستقبله منه ، ذهب الى الكاهن فاخبره بما يهمه . وكان لكل كاهن منهم صاحب من الجن يحضر اليه فيخبره بما يريده [١] .

ويرى ابن خلدون الكهانة من خواص النفس الانسانية التي لها استعداد للانسلاخ من البشرية الى الروحانية . والكاهن لا يقوى على الكمال في ادراك المعقولات لان وحيه من وحي الشيطـــان .. ولهذا يعرض له الصدق والكذب .. فيفزع الى الظنون والتخمينات والسجع (سجــع الكهان) حرصاً على الظفر بزعمه وتمويهاً على السائلين . ويرى ايضاً ان علوم الكهان كما تكون من الشياطين ، كذلك تكون من نفوسهم .. ولهذا لم تبطل الكهانة في رأيه ، وهو رد على من يقول انها انقطعت منذ زمن النبوة بما وقع من شأن رجم الشياطين بالشهب [٢] .

والبعض يقول ان الكهانة متعلقة فقط بالانبـــاء عن المستقبل ، كما ذكر زاده في تعريف علم الكهانة ، قال : « وهو مناسبة الارواح البشرية مع الارواح المجردة من الجن والشياطين واستعلامها (منهـــا) الاحوال الجزئية الجارية في عالم الكون والفساد ، لكنها مخصوصة بالامور المستقبلة [٣] .. »

ومما يذكر ان الارواح الخفية هذه ، كانت تسكن الاصنام وتحل الاوثان ، وكثيراً ما كانوا يسمعون – على رأيهم – من اجوافها همهمة واصواتاً . على ان الجاحظ يعرّض بذلك فيقول : « وما اشك انــه كان للسدنة حيل والطاف لمكان التكسب » [٤] . اما الاعراب فيرون بذلك ان الكهنة واقعون تحت تأثير الأله المباشر ، ولهذا اعتقدوا بان فيهم قوى الاخبار عن امور الناس المستقبلة .

---

(١) دائرة معارف القرن العشرين ص ٢٢٥ ج ٨

(٢) مقدمة ابن خلدون ص ١٠١

(٣) طاش كبري زادة : مفتاح السعادة ص ٣٠١ ج ١

(٤) البيان والتبيين ص ٦٢ ج ٦

الكهّان : وكما كان للقبيلة خطيبها وشاعرها ، كذلك كان لها كاهنها، او كاهنتها . ولم يكن عمل الكاهن مقتصراً على ما ذكرنا من كشف غيوب المستقبل ، فهو ايضاً ساجع القبيلة ، وخطيبها احياناً ، ومستشارها، وطبيبها ، وحكمها . اذا بت في مشكلة فكلامه القول الفصل الذي لا استئناف بعده . وكثيراً ما يكون الكاهن شريفاً ارستقراطياً ذا مكانة عائلية مرموقة في الجاهلية ، يفتخر به في المفاخرات كأن يقولوا مثلاً : « ومنا المأمور الحارثي ، والدّيان بن عبد المدان الحارثي ، والشريفان الكاهنان » [1] .

قال لامنس : « وقد يدعى الكاهن احياناً بالحكم ، وهي رتبة تفرض عادة رتبة السيادة ، وتدعو الناس الى استشارة صاحبها ضرورة قبل القيام بأية غزوة او غارة . ولا يخفى ان تأثير هؤلاء الحكام، واختبارهم الشخصي ، اذا قرن بما كان ينسب اليهم من انوار علوية، افادنا مبلغ النفوذ الذي كان لهم ، والاثر البعيد الذي كان لاقوالهم واشاراتهم، واذاً فليس بغريب ان يستشيرهم القوم في طريق الغزو ، وان يطلبوا اليهم الدلالة على الغيب . هذ اذا لم يلجأوا الى ساحرة او كاهنة او (ساحرة عجوز) يرجون منها معاونتهم على الاعداء فترسل ، الاسجاع، النافذة » [2] .

ومما هو مأثور ان لفظة « كاهن » تشبه Kohen العبرية ، و Kahen (Kâhnâ) – بمعنى قسيس – الآرامية . وكذلك « حازي » ، وان كانت عربية ، إلا انها تشبه كلمة « hoza » العبرية ايضاً [3] . وعليه يعتقد زيدان ان الكهانة من العلوم الدخيلة على العرب ، ويرجح ان الكلدان حملوها اليهم مع علم النجوم ، ويؤيد ترجيحه هذا بان الكاهن يسمى بالعبرية « حازي » او « حزاء » وهو على ما ذكر لفظ

---

(١) كتاب الحيوان للجاحظ ص ٢٨٠ ج ١

(٢) مجلة المشرق ص ٩ – ١٠ م ٣٦

(٣) ص ٦٢٤ ، ٦٢٥ ج ٢ . Enc. of Islam

كلداني معناه الاشتقاقي – كما يقول – الناظر او الرائي او البصير . وهو يدل عندهم على الحكيم والنبي . واما لفظ الكاهن فقد اقتبسه العرب – على رأيه – من اليهود الذين نزحوا اليهم على أثر ما اصابهم من النكبات في اورشليم وخصوصاً بعد خرابها على يد طيطس سنة ٧٠ للميلاد [١] .

هذا والكهان كثيرون تمتلىء باخبارهم كتب الأدب . ولقد مر معنا ذكر طريفة ، وزرقاء اليمامة . ولمحنا الى لغتهم الخاصة التي تمتاز بالسجع المعروف بسجع الكهان .

شق وسطيح : واشتهر من بين هؤلاء الكهان اكثر من غيرهم اثنان : شق وسطيح . وهما اللذان فسرا لملك اليمن رؤياه واتفقا بالتفسير على انفراد وان اختلفا في فقراتها المسجعة [٢] . واللذان يقول فيهما الطبري: « ولم يكن في زمانهما مثلهما من الكهان » [٣] .

اما الاول – فكما تخبرنا عنه كتب الأدب – كان شِقّ انسان بيد ورجل وعين [٤] . وانما سمي بشق لانه ولد شقاً واحداً [٥] . واما الثاني [٦] فكان يُدرج كما يدرج الثوب ، ولا عظم فيه الا الجمجمة [٧] . ولشق وسطيح اخبار كثيرة عجيبة منها رؤيا تبع الحميري ، وما فسراه له ، وكذلك خبر سطيح في رؤيا الموبذان وارتجاج الايوان [٨] . ولايمكننا هنا الاسهاب في اخبار الكهان وخاصة شق وسطيح لضيق المقام وللنظرة الشاملة في الموضوع . على ان في اخبارهما في ابن هشام ، والطبري ، والمسعودي ، والدينوري ، وابن عبد ربه ، والقزويني ، والدميري ،

---

(١) تاريخ آداب اللغة العربية ص ١٨٧ ج ١ .
(٢) راجع سيرة ابن هشام ص ٩ – ١٢ .
(٣) تاريخ الطبري ص ٩١١ ج١ .
(٤) راجع اخباره في الالوسي ص ٢٧٨ – ٢٨١ ج ٣
(٥) تاج العروس ص ٣٩٦ ج ٦ .
(٦) الالوسي ص ٢٨١ – ٢٨٣ ج ٣ .
(٧) مقدمة ابن خلدون ١٠٨ .
(٨) مروج الذهب ص ٣٩٥ ج ٣ .

والديار بكري ، والابشيهي ، وغـيرهم من المؤرخين ولأدباء غنى عما يمكننا ان نذكره مختصراً في هذا الباب .

العرافة وغيرها : والعرافة اخت الكهانة ، وان كانت مختصة بالأمور الماضية ، فبعض العرب يسمي الكاهن عرّافاً ايضاً [1] . وقد حدد زاده علم العرافة بقوله : « وهو الاستدلال ببعض الحوادث الحالية على الحوادث الآتية بمناسبة بينهما او مشابهة خفية . او ارتباط بينهما إمـا لكونهما معلولي أمر واحد او لكون ما في الحال علة لما في الاستقبال بشرط ان يكون الارتباط بينهما خفياً لا يطلع عليه إلا الأفراد إمـا بتجارب شاهدوها في امثالها او بحالة مودعة في نفوسهم عند الفطرة بحيث يغلب على طالعهم سهم الغيب [2] » .

وقد كثر العرافون بين العرب وذكروهم في اشعارهم ، قال احدهم :

فقلت لعراف اليمامة داوني فإنك إن داويتني لطبيب

وقال آخر :

جعلت لعراف اليمامة حكمه وعراف نجد إن هما شفياني

فقالوا شفاك الله والله ما لنا بما حملت منك الضلوع يدان

قال ابن خلدون : « وعراف اليمامة هو رباح بن عجلة ، وعراف نجد الأبلق الأسدي » [3] . وتلحق بهذه الأمور علوم اخرى دعوها العيافة والقيافة ، والريافة ، والطيرة ، وزجر الطير ، والفال ، وتعبير الرؤيا ، والطرق بالحصى ، وغيرها من المعتقدات والممارسات .

السحر : على ان أوثق هذه الأشياء التي تتصل بالكهانة والعرافة هو السحر . والسحر أمر لم يتخلص منه ومن ممارستـه الانسان حتى يومنا هذا .

هنالك اختلاف فيما إذا كان الاعتقاد في الجن والشياطين قـد سبق

---

(١) الألوسي ص ٣٠٧ ج ٣ .

(٢) مفتاح السعادة ص ٢٩٣ ج ١ .

(٣) مقدمة ابن خلدون ص ١٠٨ .

الاعتقاد بالآلهة أنفسها . اما السحر فقد اعتبر سابقاً لديانات وميثولوجيا الأمم والشعوب المتمدنة [1] . وهو معروف ومتداول بين عرب الجاهلية منذ القدم . قال ابن هشام انه كان في قرية من قرى نجران ساحر يعلم غلمان اهل نجران السحر [2] .

وأراد نفر من قريش ان يجمع على رأي في النبي فقالوا للمغـيرة « نقول كاهن ! قال لا والله ما هو بكاهن ! لقد رأينا الكهان فما هو بزمزمة الكاهن وسجعه ! قالوا فنقول مجنون ! قال : ما هو بمجنون ! لقد رأينا الجنون وعرفناه فما هو بخنقه ولا تخالجه ولا وسوسته ! قالوا فنقول شاعر ! قال ما هو بشاعر لقد عرفنا الشعر كله : رجزه وهزجه ، وقريضه ومقبوضه ومبسوطه . فما هو بالشعر ! قالوا فنقول ساحر ! قال ما هو بساحر ! لقد رأينا السحار وسحرهم فما هو بنفثه ولا عقده ! » [3]

ويدعو النبي شجرة - كما يزعمون - امام ركانة بن عبد يزيد (ليتقي الله ويتبع أمر رسوله) ، فتقبل حتى تقف بين يدي محمد ! ثم يقول يقول لها ارجعي مكانك فترجع ! وعندئذ يرجع ركانة الى قومه مندهشاً فيقول : « يا بني عبد مناف . ساحروا بصاحبكم اهل الأرض فوالله ما رأيت أسحر منه قط ! » [4] .

والآيات عن السحر والسحرة كثيرة في القرآن ، والأخبار حولها في كتب التفسير المعروفة اكثر ، ولولا حصر هدفنا في هذا الباب لأتينـا على جملتها .

والذي نلاحظه انهم كانوا يرمون بالسحر كل من يأتي بشيء يثـير دهشتهم كما رمي الأنبياء من قبل ، وكما رمي محمد من بعدهم « وعجبوا ان جاءهم منذر منهم ، وقال الكافرون هذا ساحر كذاب ، أجعـل

---

(١) ص ٣٥٤ ج ٥ S. H. Langdon : Mythology of All the world

(٢) السيرة ٢٣ .

(٣) المصدر نفسه ١٧١ .

(٤) المصدر نفسه ٢٥٨ .

الآلهة إلهاً واحداً ان هذا لشيء عجاب .. »[1] .

والسحر كما عرفه زاده « ما خفي على اكثر العقول سببه وصعب استنباطه ، وحقيقته كل ما سحر العقول ، وانقادت اليه النفوس بالتعجب والاستحسان والاصغاء من الأقوال والأفعال فهو علم باحث عن معرفة الأحوال الفلكية ، وأوضاع الكواكب وارتباطها مع الأمور الأرضية من المواليد الثلاثة على الوجه الخاص ليظهر من هذا الامتزاج افعال غريبة واسرار عجيبة خفية الأسباب والعلل[2] . ثم يقول : « وأعلم ان استحداث الحوادث إن كان بمجرد التأثير النفساني فهو السحر ، وإن كان على سبيل الاستعاذة بالفلكيات فهو دعوة الكواكب وإن كان على سبيل تمزيج القوى السماوية بالأرضية فهو الطلسمات !! »[3] .

الساحر الجاهلي : ولا اظن ان الساحر الجاهلي (لبساطته !) توصل في سحره الى أنظمة وتعاليم كالتي يبسطها زاده وغيره ، فالجاهلي الساحر إنما كان على ما أرى كاهناً او شبه كاهن يتوصل – على زعمه – (ولسذاجة الاعراب) ! بتسخير الجن وغيرها من الأرواح الخفية الى اوهام يحسبها الناس احداثاً مفتعلة . وهو أقرب الى اصحاب العزائم والرقي منه الى السحرة الذين يفوقونه بضروب الاخفاء والحيل . ولعل طرقه لا تختلف كثيراً عن طرق السدنة والكهان في طلب الرزق . قال الجاحظ : « وما أشك انه كان للسدنة حيل والطاف لمكان التكسب »[4] .

---

(١) القرآن الكريم س ٣٨ آية ٣ – ٤ .

(٢) مفتاح السعادة ص ٢٧٦ – ٢٧٧ ج ١ .

(٣) المصدر نفسه ص ٣٠٠ .

(٤) البيان والتبيين ص ٦٢ ج ٦ .

الباب الثامن

صدى المعتقدات والأساطير في الشعر

•

الفصل الاول : حقيقة الشعر الجاهلي

يتلخص رأي العميد الدكتور طه حسين بالادب الجاهلي في قوله : « ان الكثرة المطلقة مما نسميه ادباً جاهلياً ليست من الجاهلية في شيء ، وانما هي منتحلة بعد ظهور الاسلام فهي اسلامية تمثل حياة المسلمين وميولهم واهواءهم اكثر مما تمثل حياة الجاهليين . وأ كاد لا أشك في ان ما بقي من الادب الجاهلي الصحيح قليل جداً لا يمثل شيئاً ولا يدل على شيء ، ولا ينبغي الاعتماد عليه في استخراج الصورة الادبية الصحيحة لهذا العصر الجاهلي . وانا اقدّر النتائج الخطرة لهذه النظرية ، ولكني مع ذلك لا أتردد في اثباتها واذاعتها ، ولا اضعف عن ان اعلن اليك والى غيرك من القراء ان ما تقرأوه على انه شعر امرىء القيس او طرفة او ابن كلثوم او عنترة ليس من هؤلاء الناس في شيء ، وانما هو انتحال الرواة او اختلاق الاعراب او صنعة النحاة او تكلف القصاص او اختراع المفسرين والمحدثين والمتكلمين . »[1] .

والدكتور العميد في نظريته هذه ، يعتمد اولاً على نصوص المعلقات وغيرها من الشعر الجاهلي ، فيرى فيها من التشابه ما يخالف التباين في لغات القبائل ولهجاتها ، وهو ، في نفس الوقت ، يعجب كيف استقامت اوزان الشعر وبحوره وقوافيه كما دونها الخليل لقبائل العرب كلها دون تباين ،

(١) ص ٦٣ « في الأدب الجاهلي » .

بينما لم يستطع القرآن نفسه ان يستقيم اداؤه لها . ويرى الدكتور في هذا الشعر عجزاً عن تصوير الحياة الجاهلية فيلتمس من القرآن تلك الحياة التي تظهر في شعر الاسلاميين اكثر من ظهورها في شعر طرفة وبشر وعنترة. وهو ينكر كل ما يضاف الى اهل الجنوب من شعر وسجع ونثر قبل بلغة اهل الشمال قبل الاسلام ، مستنداً في ذلك على رفضه قصة السيل العرم ، وروايات هجرة اليمنيين من اساسها لأنها خالية من النصوص . ولا نعلم ان العجز عن اثبات الحقيقة ينفي وجودها .

ويعتمد الدكتور طه حسين ثانياً على اسباب الانتحال وهي كثيرة ، واهمها في نظره : السياسة ، والدين ، والقصص ، والشعوبية ، واهواء الرواة . وعليه يرى ان « كل شيء في حياة المسلمين في القرون الثلاثة الاولى كان يدعو الى انتحال الشعر وتلفيقه سواء في ذلك الحياة الصالحة : حياة الاتقياء البررة ، والحياة السيئة : حياة الفسق واصحاب المجون »[1]

والدكتور حينما ينفي ما يروى عن عاد وثمود ، وطسم وجديس ، وجرهم والعماليق ، وما يروى عن تبع وحمير وشعراء اليمن واخبار الكهان ، وما يتصل بالسيل العرم ، وتفرق العرب بعده يقول انه موضوع لا أصل له . غير اننا لا نشتم رفضاً من الدكتور او ميلاً الى رفض ما جاء في القرآن ، وفي القرآن نصوص تؤيد هذا الاصل . . . وفي رأيه ان كل ما يروى من ايام العرب وما يتصل به من الشعر خليق ان يكون موضوعاً .

هذا ويصعب التوفيق بين كلام الدكتور طه حسين ، وبين كلام الاستاذ ثتشر Thatcher الذي يقول انه لا يوجد بين القصص المتداولة في زمن (محمد) ، ذو قيمة إلا « ايام العرب » او تلك المعارك الداخلية التي كانت تقع في البلاد العربية بين القبائل[2] .

---

(١) ص ١٨١ « في الأدب الجاهلي » .

(٢) سبق ان اشرنا الى ذلك .

والبحث يطول جداً مع الدكتور في نقاش هذه النظرية ، واظهار مقدار ما له منها من الآراء ، وفيها من الصواب . ولقد رد عليه جمهرة من الكتاب . والتصدي لآرائهم ايضاً وتعديد النقاط التي اخطأوا فيها رميَ الهدف يشغل حيزاً كبيراً لا تتسع له فصول من كتاب .

والحقيقة ان (الوضع) في الشعر ملموس منذ القدم ، وللجاحظ نفسه شكوك في الشعر الجاهلي ربما بنيت على اسباب دقيقة مما يدل على ارهاف ملاحظة هذا الكاتب الفذ . ولقد شك في قصيدة لشاعر جاهلي « وهو الأفوه الأودي » لمجرد قوله فيها ان الشهب التي يراها انما هي قذف او رجم ، ولذلك قال الجاحظ : « فهذا دليل آخر على ان القصيدة مصنوعة ! »[1].

على أنه مهما كان من شأن تلك النظرية قبل الدكتور طـه حسين وبعده ، وما قيل فيها من اخذ وردّ ، لا يسعنا ان نأخذ برأي من يقولون مع Lyall ان ما تبقى من الشعر الجاهلي ، مهما قيل في حقيقته ، ودون الالتفات الى اكثريته الضائعة ، يكفي لاعطائنا فكرة واضحة شاملة عن حياة ذلك العصر ومميزاته . اما قضية ناظميه فمهما قيـل فيها ، انما هي لأغراضنا شيء ثانوي[2] .

كلاّ .. انه لا يسعنا ان نذهب هذا المذهب ، كما أننا لا نجري مجرى Nicholson في قوله المحدود : ان الشعر القديم يمكن ان نعتبره عرضاً تصويرياً «illustrative criticism» لحياة الجاهليين وعقليتهم قبل الاسلام[3].

لقد ضاع شيء كثير من الشعر الذي قيل في خلال قرن ونصف تقريباً قبل الاسلام . وكانت الاسباب كثيرة ، اهمها اثنان : عـدم التدوين ، ونحن نعلم انه لم يبتدئ المسلمون بتدوين الاحاديث والشعر رسمياً إلا بعد انقضاء ما يقرب من قرن بعد الهجرة - وفي هذه المدة لا بد وان يكون عدد كبير من رواة الشعر وغيره قد قضى ، كما ان

(١) ص ٩٠ ج ٦ البيان والتبيين .

(٢) Ch. J. Lyall : Translation of Ancient Arabian Poetry XXXII

(٣) ص٧٨ - ٨٩ R. A. Nicholson : A Literary History of the Arabs.

تشتيت القبائل في الأصقاع البعيدة ادّى الى نسيان كثير من اخبار الجزيرة وخاصة الوثنية منها ومفاخر الجاهلية .

واما الثاني فموقف الاسلام عموماً من الحياة الوثنية ، ومناحي التفكير فيها ، ولا سبيل الى القول ان آثاراً عديدة (واخص بالذكر ما يمت الى النواحي الدينية بصلة) قد دثرت وطمست الحياة الاسلامية - قصداً او عن غير قصد - معالمه حتى لا يعوق الدعوة في عنفوانها شيء جاهلي. وطبيعي ان تمحى اشعار الوثنيين فيما مُحي من المعالم والآثار .

ولقد سبقنا عمرو بن العلاء الى هذه الملاحظة فقال : « ما انتهى اليكم مما قالت العرب الا اقله . ولو جاءكم وافراً لجاءكم علم وشعر كثير »[١] . وتحدّث اليعقوبي عن العرب والشعر فقال : « ولم يكن لهم شيء يرجعون اليه من احكامهم وافعالهم الا الشعر : فيه كانوا يختصمون ، وبه يتمثلون، وبه يتفاضلون ، وبه يتقاسمون ، وبه يتناضلون ، وبه يمدحون ويعابون»[٢] . وروي عن الراشد عمر قوله : « كان الشعر علم قوم لم يكن لهم علم اصح منه » [٣] . وقال ابن سلام : « وكان الشعر في الجاهلية ديوان علمهم ومنتهى حكمهم ، به يأخذون واليه يصيرون » [٤] .

كل هذا حسن ، غير اننا - وان لم نكن مطلقي الوفاق مع الدكتور طه حسين - لا نرى في الشعر القديم معرضاً كاملا تتمثل فيه الحياة الجاهلية كما يذهب اليه الكثيرون . ولا عجب فاننا نكاد نفقد كل اثر شعري وثني ، وليس ما بين ايدينا من نتف الاشعار التي تشير الى الأصنام ، والانصاب ، والعتر لها ، وضرب القداح عندها ، سوى اثر ضئيل جداً ان لم يكن بعضه مصنوعاً ، فقد ابقاه المسلمون ليظهروا فيما احبوا ان يظهروا - ما كانت عليه قريش والعرب من الضلال ، ومن الرجوع

---

(١) ص ١٠ طبقات الشعراء لابن سلام الجمحي

(٢) ص ٣٠٤ ج ١ تاريخ ابن واضح اليعقوبي

(٣) ص ١٠ طبقات الشعراء

(٤) نفس المصدر

الى الحق (فيما بعد) والاعتراف بالله ، والنكول عن عبادة الآلهة الوثنية .

ولرب قائل يذهب الى ما ذهب اليه Lyall فيقول ان من الافضل ان نستنتج ان بدوي بطن الجزيرة لم يهتم في عصور ما قبل الاسلام بدين ما ، وذلك لانعدام البراهين التي تثبت كثرة الاشعار ذات العلاقة بالعبادة الوثنية [(١)] . وهنا نجيبه اننا لا نشك في ضعف الايمان التقوي عند الاعراب عامة ، غير ان هذا الجدال الذي جادلت به قريش رسول الله ، وهذا الدفاع الذي دافعت به عن مكانتها الدينية (مهما كان سببه) وهذه الحروب الشعواء التي شنتها على النبي وأصحابه في اوائل الدعوة تذبّ عن آلهتها (فيما تذبّ عنه) لجديرة بان تلهب في شعرائها وشعراء من ناصرها من القبائل الحماس الديني ، فتذكر فيما تذكر ، في ردّها على شعراء الرسول ، اسماء الآلهة التي تعبدها على الاقل ، وتشير الى الشعائر والمراسيم التي تفخر بها وتقيمها لها من وقت الى آخر .. وانك لتقرأ اشعار السيرة كلها ، وخصوصاً ما قيل في الوقائع الهامة بين المسلمين وقريش امثال بدر ، وأحد ، والخندق ، وفتح مكة ، فلا تجد شيئاً من ذلك كله ، حتى انك لا تجد شيئاً يشبه قول أبي سفيان في معركة أحد ، مخاطباً الـه مكة : اعلُ هبل ! اعلُ هبل .

قال لامنس : « وقد يكون وجود اللات والعزّى في أحد آخر مظهر لعرض هذه البيوت او الحجارة المؤلهة . فيكون ان سراة مكة ، وقد منوا بانكسار بدر فتداعت اركان جمهوريتهم شاءوا هزّ الشعور هزاً عنيفاً فلجأوا الى احياء هذه المشاعر القديمة في مظاهر غريبة يدفعون بها الوطنيين الى التأثر بمرآى آلهة مدينتهم العريقة ، فاستعادت الثقة بها والايمان بتأثيرها بعد ان كاد هذا الايمان يمحى بما فطر عليه البدوي من عبث وعدم تقوى » [(٢)] .

---

(١) Lyall XXVII .

(٢) ص ٢٢٠ - ٢٢١ مجلة المشرق عدد ٢ المجلد ٣٧ .

والحقيقة انهم هزّوا شعور المحاربين القومي هزاً عنيفاً فحاربوا مستميتين في أحد وغيرها من المعارك الشديدة . اما ان لا تكون الآلهة التي كادت ان تدول دولتها في هذه الحروب العنيفة بين الوثنيين والمسلمين سبباً في اثارة الشاعرية بشعراء قريش وغيرها من القبائل فلا نراه قولاً وجيهاً مهما قيل في عبث البدوي وعدم تقواه !

فلا شك ، إذاً ، في ان قسماً كبيراً من ذلك الشعر الوثني كان متداولاً حتى اواخر القرن السادس للميلاد رغم خشية المسلمين من روايته.. حتي إذا شرعوا في التدوين ، اسقطوا منه وحوّروا فيه – وما اسهل نقل اللات ، بالاشعار ، الى الله – حتى قضوا عليه خوفاً من تخليده كتابة كما خلدوا القرآن والحديث ، وكانوا بهذين في غنى عن كل شيء ، لولا فلتات ضئيلة جداً ابقوا عليها لاستشهاد معين مقصود .

ولا شك ايضاً في ان قصائد الفخر التي تشرّف القبيلة ، او بالأحرى مدائح شعرائها واهاجيهم لأعدائها ، كانت اقوى على البقاء من غيرها . اما تلك القصائد العمومية التي تعتمد على اهميتها في التطاول على الزمن، فلم يبق منها الا ما هو مشهور ، وكثير التداول على الألسن . قال ابن سلام : « فلما راجعت العرب رواية الشعر وذكر ايامها ومآثرها ، استقلّ بعض العشائر شعر شعرائهم ، وما ذهب من ذكر وقائعهم ، وكان قوم قلّت وقائعهم واشعارهم ، وارادوا ان يلحقوا بمن له الوقائع والاشعار ، فقالوا على ألسن شعرائهم ، ثم كانت الرواة فزادوا في الاشعار » . (١)

ولقد اشرنا الى تناقل الرواة للشعر الجاهلي طيلة قرنين ، حيث كان لكل شاعر راوية ، وكثيراً ما يكون الراوية نفسه شاعراً فحلاً كأن يروي زهير (مثلاً) لأوس بن حجر ، والحطيئة لزهير ، وهدبة بن الخشرم القضاعي للحطيئة ، وجميل بثينة لهدبة ، وكثيّر عزّة لجميل ،

---

(١) ص ١٤ طبقات الشعراء

وقد مات كثير سنة ١٠٥ هـ[1] .

هذا ، وكان من شأن اهتمامهم بالقرآن والحديث اضعاف رواية الشعر ، غير انه لما جمع القرآن وكان المسلمون قد انتشروا في الارض ، اصبح من الضروري ان يهتموا بالتفسير . وهذا – مع اهتمامهم بعلوم اللغة من نحو وصرف – ادى الى لجوئهم ثانية الى الشعر القديم فجمعت اشهر القصائد الجاهلية ... وراجت بضاعة الرواة مرة اخرى . . . ومن هنا اخذ يظهر غش الرواة ودسهم معتمدين على معرفتهم التامة بالشعر ، ومقدرتهم على نظم ما يجري اكثره على علماء اللغة ، وهكذا قويت اسباب انتحال الشعر ، او على حد تعبير « نكلسن » : « كما زاد الطلب كذلك زاد العرض »[2] . ويكفي ان نشير الى راويتين افسدا كثيراً من الشعر ، وكثر كلام الناس في كذبهما ، وهما حماد الراوية ، وخلف الاحمر .[3]

الفصل الثاني : نصيب هذه المعتقدات والأساطير من هذا الشعر

بعد هذا التحفظ الذي نبسطه امام القارىء ، والحذر مما وصل الى ايدينا من الشعر الجاهلي ، وما قيل انه شعر جاهلي ، نحاول ان نتصدى لما تردد صداه من المعتقدات والأساطير والخرافات في هذه الأشعار . وانه لجدير بالذكر ان الكثير من الأشعار المصنوعة نفسها ، إنما يدل – كثيراً او قليلاً – على صور من حياة العصر الذي عاش فيه محمد ، او العصر الذي سبق ايام النبوة . ولا شك في ان البعض من الرواة وغيرهم ممن وضعوا مثل هذه الأشعار ، قد كانوا على معرفة تامة بعصور ما قبل الاسلام . ولا ينكر احد ان منهم من كان ذا نباهة وحذاقة ولباقة مكنته من إجادة التقليد حتى أعجز المتضلعين من علم اللغة والعروض

---

(١) Lyall XXXVI

(٢) Nicholson ص ١٣٣

(٣) اقرأ : « الرواة وانتحال الشعر » في « في الادب الجاهلي » ص ١٧٦–١٨١

عن تمييز أشعاره المصنوعة من الاشعار الأصلية !

ولا بد لنا من الاشارة احياناً الى وضوح عملية الصنعة في بعض الأبيات التي سنثبتها في هذا الفصل ، او إمكانية هذه الصنعة من وجوه شتى .

ولعلنا لا نأتي بجديد حينما نذكر ان هذه الأشعار نفسها إنما اخترعت في زمن متقدم ، فذكرتها أقدم التواريخ ، كالسيرة لابن اسحاق ، وتاريخ الطبري ، ومروج الذهب ، والعقد ، والأغاني ، وكلها لم يتجاوز القرن الرابع للهجرة ، وقد توفي ابن اسحاق في منتصف القرن الثاني .

ومن المجدي ، وقد يطول بنا هذا الفصل ، ان نقسمه الى ثلاثة اقسام : ١) الأصنام والأنصاب . ٢) تاريخ وأساطير . ٣) غيلان وجن .

القسم الأول : الأصنام والأنصاب

أ - إنكارها : والشعراء مع الآلهة العربية القديمة فريقان : فريق يؤيدها ويحنو عليها ، ويتمسك بها ويذود عنها . وفريق ينكرها وينادي بخزيها ، ويأمر بالنكول عن عبادتها وبهدمها وتحريقها .

ويلاحظ ان انصار الفريق الثاني اكثر عدداً ، واشعارهم اوفر وأوسع انتشاراً ، ولا سبيل هنا الى ترديد الأسباب ، وقد عرضنا لها في ظروف كثيرة ، فلا غرابة ، إذاً ، بأن تنقص اشعار الفريق الأول بينما تأخذ اشعار الفريق الثاني بالازدياد .

ولقد ذكرنا سابقاً ان المسلمين لم يكونوا وحدهم الذين أنكروا الأوثان وعبادتها ، بل كان هنالك أفراد من الوثنيين انفسهم لم يستسيغوا هذه العبادة ، بالاضافة الى المتحنفين واصحاب الكتاب من يهود ونصارى . ولكل شعراؤه ، قال ابن سلام : « وكان من الشعراء من يتألّه في جاهليته ، ويتعفف في شعره ، ولا يستبهر بالفواحش ، ولا يتهكم في الهجاء » [١] . وقال ابن الكلبي ذاكراً زيد بن عمرو بن نفيل : « وكان

(١) طبقات الشعراء للجمحي ص ١٤ .

قد تأله في الجاهلية وترك عبادتها (يعني العزى) وعبادة غيرها من الاصنام »[1] . وزيد هذا هو الذي ينسبون اليه :

أرباً واحداً ام الف رب ... أدين اذا تقسمت الامور
عزلت اللات والعزى جميعاً ... كذلك يفعل الجلد الصبور
فلا العزى أدين ولا ابنتيها ... ولا صنمي بني عمرو أزور
ولا غنما أدين وكان رباً ... لنا في الدهر إذ حلمي صغير[2]

واسمع رنّة حسان وهو يدافع بلسانه (وليس غيره) عن دعوة رسول الله :

اما قريش فإني لا أسالمهم ... حتى ينيبوا عن الغيّات للرشد
ويتركوا اللات والعزى بمعزلة ... ويسجدوا كلهم للواحد الصمد
ويشهدوا ان ماقال الرسول لهم ... حق ،ويوفوا بعهد الله والولد[3]

وذلك شداد بن عارض الجشمي يقول حين مُسحت معالم اللات ناهياً ثقيفاً عن العودة اليها :

لا تنصروا اللات ان الله مهلكها ... وكيف نصركم من ليس ينتصر
ان التي حرّقت بالنار فاشتعلت ... ولم تقاتل لدى احجارها هدر
ان الرسول متى ينزل بساحتكم ... يظعن وليس بها من أهلها بشر[4]

ويهزم المشركون من اهل حنين فتقول امرأة من المسلمين :

غلبت خيلُ الله خيل اللات ... وخيله أحق بالثبات[5]

وفي فتح المسلمين لمكة وتكسيرهم اصنامها التي سكنت جوف الكعبة يقول تميم بن اسد الخزاعي :

وفي الأصنام معتبر وعلم ... لمن يرجو الثواب او العقابا[6]

---

(١) كتاب الأصنام : ص ٢١ .
(٢) السيرة : ص ١٤٥ .
(٣) نفس المصدر : ص ٨٣٨ .
(٤) كتاب الاصنام : ص ١٧ .
(٥) السيرة : ص ٨٤٩ .
(٦) نفس المصدر : ص ٨٢٥ .

وأراد فضالة بن عمير بن الملوح ان يغتال النبي وهو يطوف بالبيت عام الفتح ، فشعر به النبي ودنا منه وقال : - أفضالة ؟ !

- نعم فضالة يا رسول الله .

- ماذا كنت تحدث به نفسك ؟ !

- لا شيء ! كنت اذكر الله ! !

فضحك النبي وقال له : استغفر الله !

ووضع يده على صدره فسكن قلبه ، فكان فضالة يقول : ما رفع يده عن صدري حتى ما من خلق الله شيء أحب الي منه ! وفي طريقه الى اهله طلبت امرأة منه ان يجلس اليها كعادته يحدثها فأبى وانبعث يقول:

قالت هلم الى الحديث فقلت لا ! يأبى عليك الله والاسلام
او ما رأيت محمداً وقبيله بالفتح يوم تكسر الأصنام
لرأيت دين الله أضحى بيناً والشرك يغشى وجهه الاظلام [1]

ويسمع رجل من مزينة بالنبي ، وكان سادن صنم اسمه نهم ، فيكسره ويذهب لكي يعتنق الدين الجديد وهو يقول : -

ذهبت الى نهم لأذبح عنده عتيرة نسك كالذي كنت افعل
فقلت لنفسي حين راجعت عقلها أهذا إله أبكم ليس يعقل
أبيت فديني اليوم دين محمد إله السماء الماجد المتفضل [2]

ومثله المستوغر الذي كسر رضى وقال :

ولقد شددت على رضاء شدة فتركتها تلا تنازع اسحما
ودعوت عبد الله في مكروهها ولمثل عبد الله يغشى المحرما [3]

وكذلك قول عمرو بن الجموح ذاكراً صنمه وحامداً ربه على إيمانه الجديد الذي انقذه من ظلمات القبر [4] . ومثل هذا في حديث الاله

---

(١) السيرة ص ٨٢٥ ، وراجع كتاب الاصنام ص ٣١ ، واخبار مكة ص ٧٦ .
(٢) كتاب الأصنام ص ٣٩ - ٤٠ .
(٣) نفس المصدر ص ٣٠ ، وراجع البداية والنهاية ص ١٩٢ ج ٢ .
(٤) السيرة ص ٣٠٤ .

ذي الخلصة [1] وسعد [2] وذي الكفين [3] ، وقد مر بنا الكلام عنهما في فصول سابقة .

وفي القصيدة الدالية :

ألم تغتمض عيناك ليلة ارمدا وبت كما بات السليم مسهدا

يشير أعشى بني قيس الى عبادة الأنصاب والأوثان ، وينهى عنها فيقول :

وذا النصب المنصوب لا تنسكنه ولا تعبد الأوثان والله فاعبدا
وسبح على حين العشيات والضحى ولا تحمد الشيطان والله فاحمدا [4]

ب - **التمسك بها** : هذا ، والقسم بالآلهة من الأمـور الكثيرة الوقوع في شعر الوثنيين العرب . ولعله اشهر ظاهرة تشير الى صلتهم القديمة بهذه الآلهة . وكانت اللات والعزى تتمتعان بنصيب وافر من هذه الأيمان ، حتى ان قريشاً كانت وهي تطوف بالكعبة تحلف بهما : واللات والعزى ، ومناة الثالثة الاخرى !

ولهذا لا استبعد ان كلمة « الله » الواردة في البيت التالي :

وذكرته بالله بيني وبينـه وما بيننا من مدة لو تذكرا

انما كانت « اللات » سابقاً ، فلحقها التحوير فيما بعد . وسياق البيت الثاني الذي يتلوه يوافق هذا الظن . فالشاعر يقول :

وبالمروة البيضاء يوم تبـالة ومحبسة النعمان حيث تنصرا [5]

ومعروف ان المروة البيضاء هي ذو الخلصة .

ويهجو المتلمس عمرو بن المنذر لطرده له فيحلف باللات والانصاب ان لا ينجو منه ، قال :

اطردتني حذر الهجاء ولا واللات والانصاب لا تئل [6]

---

(١) السيرة ص ٥٦ .
(٢) نفس المصدر ص ٥٣ .
(٣) كتاب الاصنام ص ٣٧ .
(٤) راجعها كاملة في السيرة ص ٣٨ - ٣٩ .
(٥) كتاب الاصنام ص ٣٥ .
(٦) نفس المصدر ص ١٦ .

ويحلف اوس بن حجر ايضاً باللات والعزى فيقول :

وباللات والعزى ومن دان دينها   وبالله ان الله منهن اكبر[1]

غير انني لا أظن ان شاعراً جاهلياً قديماً مثل اوس بن حجر تموج في صدره هذه العاطفة الدينية نحو الله ! حتى ولو كان متحنفاً او كما يظن شيخو - نصرانياً . وكذلك لا ارى في المصرع الاخير سياقاً منطقياً للبيت ، فليس بعيداً ان يكون البيت - وخصوصاً المصرع الأخير - « وبالله ان الله منهن اكبر » ؟ ! قد لعبت به اليد الاسلامية.

وكان ابو جندب الهذلي يهوى امرأة فذكر في حديث له معها انها حلفت بالعزى . قال :

لقد حلفت جهداً يميناً غليظة   بفرع التي احمت فروع سقام

وسقام هذا شعب حمته قريش للعزى من وادي حراض ،

ويقسم درهم بن زيد الأوسي برب العزى :

اني ورب العزى السعيدة .

وكان للعزى منحر يعترون عليه ، يقال له الغبغب ، ولقد ذكره شعراً ابو خراش الهذلي ، ونهيكة الفزاري وقيس بن الجدادية الخزاعي[2]

وبمناة يقسم عبد العزى بن وديعة المزني فيقول (وينسب لغيره) :

اني حلفت يميـن صدق برة   بمناة عند محل آل الخزرج[3]

ولم تكن هذه الاصنام الثلاثة الوحيدة التي كان يقسم بها بل هناك اصنام عديدة مثل « نهم » و « عائم » و « ذي الخلصة » و « هبـل » و « الاقيصر » . وعداها كثير . ففي الاقيصر مثلاً يقسم زهير فيقول :

حلفت بأنصاب الاقيصر جاهداً   وما سحقت فيه المقاديم والقمل

ويذكره ربيـع بن ضبع الفزاري في قوله :

فانني والذي نغم الاله له   حول الاقيصر تسبيح وتهليل

(١) كتاب الاصنام ص ١٧ .

(٢) نفس المصدر ص ١٩ - ٢١ .

(٣) نفس المصدر ص ٣٧ .

وكذلك الشنفري يحلف باثواب هذا الصنم :

وان امرءاً أجار عمراً ورهطه   علي وأثواب الأقيصر يعنف[1] .

وهنالك غير القسم وجوه اخرى للدلالة على تمسكهم بهذه الآلهة ، ولعل في ارتدادهم الى عبادتها قبل موت النبي وبعده ، ظاهرة بينة على هذا التمسك . ولقد اشار الى ارتداده رجل (مقيس بن صبابة) وفد مكة مسلماً ، وطلب من النبي دية اخيه الذي قتل خطأ ، فلما أمر له النبي بدية أخيه (هشام) واقام عند النبي غير كثير ، عدا على قاتل أخيه فقتله وخرج من مكة مرتداً ، وفي رجوعه كان يقول :

شفى النفس ان قدبات في القاع مسنداً   يضرج ثوبيه دماء الأخادع

وكانت هموم النفس من قبل قتله   تلم فتحميني وطاء المضاجع

حللت به وتري وادركت ثؤرتي   وكنت الى الاوثان اول راجع[2]

ويرد عبد الله بن الزبعرى على احد الشعراء المسلمين معارضاً له بالوزن والقافية والغرض فيقول من ابيات :

ومن عجب الأيام والدهر كله   له عجب من سابقات وحادث

لجيش أتانا ذي عرام يقوده   عبيدة يدعى في الهياج ابن حارث

لنترك أصناماً بمكة عكفاً   مواريث موروث كريم لوارث[3]

ومما يذكر - كما أشرنا سابقاً - ان الجاهليين كانوا يحملون آلهتهم او رموزاً لها في المعارك يستنصرونها على الاعداء ، ولا استبعد ان يكون قول ابي سفيان في أحد : أعل هبل ، انما كان خطاباً لرمز كانوا يحملونه مع غيره - كاللات والعزى - في هذه المعركة مستنصرين به اله مكة « هبل » ، هذا الاله الذي دخل عليه في جوف الكعبة عبد المطلب حاملاً محمداً وهو ، بعد ، طفل صغير[4] .

---

(١) كتاب الأصنام ص ٣٨ - ٣٩ .

(٢) تاريخ الطبري ص ١٥١٦ ج١ ، والكامل لابن الأثير ص ١٤٨ ج ٢ .

(٣) السيرة ص ٤١٧ - ٤١٨ .

(٤) البداية والنهاية ص ٢٦٤ ج ٢ .

واني لأرى في قول بعضهم :

وسار بنا يغوث الى مراد فناجزناهم قبل الصباح [1]

تأييداً لفكرة حمل الآلهة في الحروب واستنصارها على الاعداء، وما رأيك في قول الكميت بن زيد :

وقد آلت قبائل لا تولي مناة ظهورها متحرفينا [2]

الا يدل هذا على ما نذهب اليه من حمل اله القبيلة على جمل او ضرب قبة له يحميها القائد او الشيخ في القتال ؟ وبعد ذلك الا يكون هذا الرمز بدلاً من الراية التي ترفرف اليوم على مراكز القيادة في الجيش المحارب ؟

وانظر كيف كانوا يلهبون الحماس الديني في نضال الرسول . قال الحارث بن هشام بن المغيرة من قصيدة له (وتروى لغيره) في يوم بدر :

فيال لؤي ذبوا عن حريمكم وآلهة لا تتركوها لذي فخر

توارثها آباؤكم وورثتم اواسيها والبيت ذا السقف والستر [3]

ثم انظر كيف انهم في بدء زحفهم للقتال يجتمعون في مكة حول الانصاب ويسيرون من عندها ، كما يقول ابن الزبعرى ، في يوم الخندق :

واذكر بلاء معاشر واشكرهم ساروا بأجمعهم من الانصاب

أنصاب مكة عامدين ليثرب في ذي غياطل جحفل جبجاب [4]

وكيف انهم اذا فشلوا في الحرب ينقلبون الى آلهتهم خاسرين فيقول ضرار بن الخطاب الفهري :

وفرت ثقيف الى لاتها بمنقلب الخائب الخاسر [5]

---

(١) كتاب الاصنام ص ١٠

(٢) السيرة ص ٥٥

(٣) نفس المصدر ص ٥١٧

(٤) نفس المصدر ص ٧٠٢

(٥) نفس المصدر ص ٣٢

ويبكي ابو خراش الهذلي (دبية السلمي) سادن العزى لما قتله خالد بن الوليد بعد ان هدم العزى ، وقتل المرأة السوداء الـــتي خرجت من جوفها ، وكان دبية قد حذا ابا خراش نعلين جيدين ، ولهذا يرثيـــه في أبيات منها :

ما لدبيـــة منذ اليوم لم أره وسط الشروب ولم يلمم ولم يطف
أمسى سقام خلاء لا أنيس به الا السباع ومر الريح بالغرف[1]

ج - **الطواف حول الانصاب والعتر عندها** : والحديث في حد ذاته يتبع مـــا ذكرناه في الكلام عن الطواف والذبح ، وهنا سوف لا نعرض الا الى الناحية الشعرية منه .

والطواف والدوران يعطيان معنى واحداً ، غير ان الدوار يجيء ايضاً بمعنى الصنم الذي يدار حوله ، او اسماً لصنم كانوا يدورون حوله في الجاهلية .

ولقد جاء في كتاب الأصنام ان الدوار الطواف بالأنصاب[2] كما جاء بمعنى الصنم قوله : « ان لبني شيث دواراً يدورون حوله ويعظمونه »[3]

وفي المعنى الاول يقول عامر بن الطفيل وقد اتى اخواله (غنياً) فرأى في فتيات يطفن جمالاً فقال :

الا يا ليت اخوالي غنيـــاً عليهم كلما أمسوا دوار[4]

ولعل عنتر يشير إلى هذا الدوار بقوله :

تركت بني الهجيم لهم دوار اذا تمضي جماعتهم تعود[5]

ويقول النابغة :

لا أعرفن ربربا حوراً مدامعها كأنهن نعاج حول دوّار[6]

---

(١) كتاب الاصنام ص ٢٤
(٢) المصدر نفسه ص ٣٣ و ٤٢
(٣) المصدر نفسه ص ٥١
(٤) المصدر نفسه ص ٤٢
(٥) ديوان الحماسة لابي تمام ص ١٦٧ ج ١
(٦) جمهرة اشعار العرب للقرشي ص ٨٤

وفي المعلقة يقول امرؤ القيس :

فعنّ لنا سرب كأن نعاجه عذارى دوار في ملاء مذيل[1]

واشار بعضهم الى عكوفهم على الصنم ، والتفافهم في خشوع . فقال جعفر بن خلاّس الكلبي ، وقد نفرت ناقته من عتائر قدمتها عنزة لسعير:

نفرت قلوصي من عتائر صُرّعت حول السعير تزوره ابنا يقدم
وجموع يذكر مهطعين جنابه ما ان يحير اليهم بتكلم[2]

وقال آخر يشير الى عكوف هذيل على سواع وعترها عنده :

تراهم حول قيلهم عكوفا كما عكفت هذيل على سواع
تظل جنابه صرعى لديه عتائر من ذخائر كل راع[3]

وكانوا احيانا ينذرون الى الصنم ناقة او شاة ، فاذا حان وقت الوفاء اصطادوا ظبياً بدلاً من الشاة او الناقة وقدموها قربانا للاله ، وقد اشار الى ذلك كعب بن زهير اشارة خفيفة فقال :

فما عتر الظباء بحي كعب ولا الخمسون قصر طالبوها[4]

ولعل قول الحارث بن حلزة اليشكري اوضح من ذلك حيث يقول في معلقته :

عنتاً باطلاً وظلماً كما تعتر عن حجرة الربيض الظباء[5]

ومما يلحق بالعتر للآلهة تقدمة الابناء وغيرهم من بني البشر قرابين لها كما ذكرنا سابقاً . وقد ذكر امية بن ابي الصلت قصة الذبح الذي كاد ان ينفذه ابراهيم بولده قال :

ابني اني نذرتك لله شحيطاً فاصبر فدى لك حالي
واشدد الصفد لا أحيد عن السكين حيد الأسير ذي الأغلال

---

(١) العقد الثمين في دواوين الشعراء الجاهليين ص ١٤٩
(٢) كتاب الاصنام ص٤١
(٣) نفس المصدر ص ٥٧
(٤) ديوان الحماسة ص ٤١٣ ج ١
(٥) الحماسة للبحتري ص ٣٥٣

وله مدية تخايـل في اللحم جذام حنية كالهلال
بينما يخلع السرابيل عنه فكه ربه بكبش جلال [1]

ولما قيل لعبد المطلب – وقد نذر ولده عبد الله لهبل – افدِ ! ! قام وهو يقول :

عاهدت ربي وانا موف عهده
أخاف ربي ان تركت وعده
والله لا يحمد شيء حمده

ثم احضر من الأبل مئة ، كما ذكرنا في قصته . وضرب بالقداح عليها وعلى عبد الله فخرجت على الأبل فكبّر الناس وقالوا قد رضي ربك ، فقال :

لاهمّ رب البلد المحرم
الطيب المبارك المعظم
أنت الذي اعتني في زمزم

واعاد ضرب القداح فخرجت على الأبل فقال :

لاهم قد اعطيتني سؤالي
اكثرت بعد قلة عيالي
فاجعل فداه اليوم جل مالي

وما زال حتى ضرب الثالثة فخرجت على الأبل ، فنحرها ونادى مناديه : الا فخذوا لحمها ، وانصرف عنها فوثب الناس يتناهبونها ، وبذلك يقول مرّة بن خلف الفهمي :

كما قسمت نهبا ديات ابن هاشم ببطحاء بسل حيث يعتصب البرك

وصارت الدية من بعدها – كما يقول اليعقوبي – على ما سن عبد المطلب . [2]

---

(١) تاريخ الطبري ص ٣٠٨–٣٠٩ ج ١
(٢) تاريخ اليعقوبي ص ٢٩٢ ج ١

القسم الثاني : تاريخ وأساطير

كثيرة هي الأشعار التي تنسب الى غير قائليها في السيرة النبوية . وقد سبقنا الى التشهير بفساد الكثير من أشعارها ابن سلام الجمحي حيث قال : « وكان ممن هجّن الشعر وأفسده وحمل كل غثاء ، محمد بن اسحاق مولى آل مخرمة بن المطلب بن عبد مناف . وكان من علماء الناس بالسير فنقل الناس عنه الاشعار ، وكان يعتذر منها ويقول لا علم لي بالشعر انما أوتى به فاحمله . ولم يكن ذلك له عذراً ، فكتب في السير من أشعار الرجال الذين لم يقولوا شعراً قط ، وأشعار النساء فضلاً عن أشعار الرجال . ثم جاوز ذلك الى عاد وثمود ! أفلا يرجع الى نفسه من حمل هذا الشعر ومن ادّاه منذ الوف السنين والله يقول : وانه اهلك عاداً الأولى وثمود فما أبقى . وقال في عاد : فهل ترى لهم من باقية . وقال : وعاداً وثمود والذين من بعدهم لا يعلمهم إلا الله »[1] .

ولقد أشار ابن هشام نفسه – جامع سيرة ابن اسحاق – الى ناحية الضعف في اسناد الشعر الى قائليه ، فهو كثيراً ما ينكر عليه نسبة القصائد الى فلان وفلان .

والشعر كما نعرفه قديم جداً في رأي الكثيرين !! فهو لا يرجع الى عهد عبد المطلب وهاشم ، فيقصّده المهلهل بن ربيعة – وغيره – في ذكر الوقائع التي تلت وقعة اخيه كليب[2] ، بل يتجاوز ذلك العصر الى عهد حمير والتبابعة ... بل يُرفع الى زمن طسم وجديس ... ثم يوغل في القدم حتى تقوله عاد وثمود ! ولذا فلماذا لا يقول آدم نفسه شعراً عربياً ؟ !! أليس هو القائل حين قتل ابنه قابيل هابيل :

تغيرت البلاد ومن عليها   فوجه الأرض مغبر قبيح
تغير كل ذي لون وطعم   وقل بشاشة الوجه الصبيح

---

(١) طبقات الشعراء ص ٤ .

(٢) نفس المصدر ص ١٣ .

وجاورنا عدو ليس يفنى لعين لا يموت فنستريح
أهابيل ان قتلت فان قلبي عليك اليوم مكتئب قريح !!

ولماذا لا يجيبه عدوه اللدود ابليس على نفس الروي فيقول :

تنح عن الجنان وساكنيها ففي الفردوس ضاق بك الفسيح
وكنت بها وزوجك في رخاء وقلبك من اذى الدنيا مريح
فما برحت مكايدتي ومكري الى ان فاتك الثمن الربيح
ولولا رحمة الرحمن امسى بكفك من جنان الخلد ريح !![1]

ونترك هذا الشعر لأبينا آدم ، وخصمه ابليس دون تعليق ! ويكفي ان العميد الدكتور طه حسين لا يجرؤ على ذكره وذكر ما يماثله خوفاً من الظن انه هازل ولاعب !!

وينزلون بالشعر الى عاد ! وهذا – في زعمهم – معاوية بن بكر ، ينزل عليه وفد عادٍ مستسقياً لعاد . فلما اخذه اللهو بظاهر مكة ونسي الغاية التي وفد من اجلها ارتجل معاوية أشعاراً ودفع بها الى الجرادتين (وهما قينتان لمعاوية كانتا تطربان الوفد في قصفه) فغنتاها ، ولما سمع الوفد هذه الأشعار الملحنة تنبه لما جاء اليه ، ونهض الى الحرم يدعو لعاد التي كاد ان يفنيها القحط . اما الأشعار فهذه :

ألا يا قيل ويحك قم فهينم لعل الله يسقينا غماما
فيسقي ارض عاد ، ان عاداً قد امسوا لا يبينون الكلاما
من العطش الشديد فليس يرجى به الشيخ الكبير ولا الغلاما
وقد كانت نساؤهم بخير فقد أمست نساؤهم عياما
وان الوحش تأتيهم جهاراً ولا تخشى لعادي سهاما
وانتم ها هنا في ما اشتهيتم نهاركم وليلكم التماما
فقبح وفدكم من وفد قوم ولا لقوا التحية والسلاما !؟[2]

---

(١) جمهرة اشعار العرب للقرشي ص ١١ ، ١٢ .
(٢) تاريخ الطبري ص ٢٣٦ – ٢٣٧ ج ١ .

ويعود الوفد من مكة فيسمع احده (مرثد بن عفير) خبراً لعاد من رجل فيقول :

عصت عاد رسولهم فأمسوا عطاشاً ما تبلهم السماء
وسير وفدهم شهراً ليسقوا فاردفهم من العطش العماء

ويذكر في هذا الشعر كفر عاد ورسالة هود لهم واصنام عاد وانه سوف يلحق آل هود اذا جن المساء ! [1] وقال رجل آخر منهم :

لو ان عاداً سمعت من هود واتبعت طريقه الرشيد
وقد دعا بالوعد والوعيد عاداً وبالتقريب والتبعيد
ما اصبحت عاثرة الجدود صرعى على الانوف والخدود
ساقطة الاجساد بالوصيد ماذا جنى الوفد من الوفود
احدوثة للأبد الابيد !! [2]

وكما قالت عاد الشعر كذلك قالت ثمود ! فهذا احد المسلمين بصالح (واسمه مهرش بن غنمة بن الذميل) لما همّ عزيز ثمود (شهاب بن خليفة) بالأسلام ، ورده نفر من قومه ، قال :

وكانت عصبة من آل عمرو الى دين النبي دعوا شهابا
عزيز ثمود كلهم جميعاً فهمّ بأن يجيب ، ولو اجابا
لاصبح صالح فينا عزيزاً وما عدلوا بصاحبهم ذوابا
ولكن الغواة من آل حجر تولوا بعد رشدهم ذئابا [3]

وطسم وجديس لم تكونا بأقل من زميلتيها في قول الشعر . وهذه هزيلة ، وقد مرت قصتها ، تقول حينما لم ينصفها سيد طسم :

اتينا الى طسم ليحكم بيننا فابرز حكماً في هزيلة ظالما
لعمري لقد حكمت لا متورعا ولا فهما عند الحكومة عالما

---

(١) تاريخ الطبري ص ٢٤١ .
(٢) مروج الذهب للمسعودي ص ٢٩٩ ج ٣ .
(٣) البداية والنهاية لابن كثير ص ١٣٤ ج ١ .

قدمت فلم اقدر على متزحزح   وأصبح زوجي خائن الرأي نادما[1]

ويسمع عمليق بالشعر فيغضب ، ويأمر – كما ذكرنا – بأن لا تدخل عروس على زوجها حتى تحمل اليه قبل ذلك .. وكان حديث الشموس ، حيث خرجت من عنده شاقة ثوبها وهي تقول :

لا أحد أذل من جديس   أهكذا يفعل بالعروس ؟ !

ثم تمر بقومها فتحرضهم على طسم بهذه الأبيات :

أيصلح ما يؤتى الى فتياتكم   وانتم رجال فيكم عدد الرمل ؟
أيصلح تمشي في الدماء فتاتكم   صبيحة زفت في النساء الى البعل
فإن انتم لم تغضبوا عند هذه   فكونوا نساء لا تغيضوا عن الكحل
فدونكم طيب العروس فانما   خلقتم لأثواب العروس وللغسل
فقبحاً وشيكاً للذي ليس دافعاً   ويختال مشياً بيننا مشية الفحل
فلو اننا كنا رجالاً وكنتم   نساء لكنا لا نقر على الذل
فموتوا كراماً واضرموا لعدوكم   بحرب تلظى بالضرام من الجذل
ولا تجزعوا للحرب ياقوم انما   تقوم باقوام كرام على رجل
فيهلك فيها كل نكس مواكل   ويسلم فيها ذو النجابة والفضل[2]

وفي حديث زحف حسان على جديس انتصاراً لطسم تقول زرقاء اليمامة :

اني أرى شجراً من خلفه بشر   وكيف يجتمع الاشجار والبشر
ثوروا بأجمعكم في وجه اولهم   فان ذلك منكم ، فاعلموا ، ظفر[3]

هذه الاشعار (ومثلها كثير) ان دلت على شيء فانما تدل على انها مصطنعة . ومن الهزل ان نحاول اثبات ذلك واختراعها اوضح من الشمس . على اننا نردد هنا ما قلناه سابقاً ان وضعها قديم نسبياً ، ويشهد بذلك ثبوتها في اقدم المراجع الادبية والتاريخية . وهذا دليل على

(١) مروج الذهب ص ٢٧٧ ج ٣ .
(٢) نفس المصدر ص ٢٧٩ – ٢٨٠
(٣) نفس المصدر ص ٢٨٧

ان الاساطير التي تشير اليهـــا هذه الاشعار انما كانت مداولة في ذلك الزمن وما قبله ، اذ لا يمكن ان تكون قد ارتجلت ارتجالاً دون ان يكون لها اصل . ومن المعلوم ان القرآن اشار الى عـــاد وثمود ، وهذا يدل على ان العرب الجاهليين كانوا على علم بأساطير تلك القبائل . ولنا في شعر اواخر العصر الجاهلي تلميحات لهذه القصص ، فقد قال الاعشى :

قالت أرى رجلاً في كفه كتف ... او يخصف النعل لهفي اية صنعا
فكذبوها بمـــا قالت فصبحهم ... ذوآل حسان يزجي الموت والشرعا
فاستنزلوا اهل جو من مساكنهم ... وهدموا شاخص البنيان فاتضعا [1]

وهذا عديّ بن زيد يذكر عاداً وارم :

ان الاسى قبلنا جم ونعلمه ... فيما اديل من الاجداد والامم
منهم رأينـــا عيانا او نخبره ... وما تحدث عن عاد وعن ارم [2]

ويقول ابن أشمط العبدي :

ألمام ان الدهر أهلك صرفه ارماً وعادا
واحتط داوداً وأخرج من مساكنهم ايادا [3]

وقال عمرو بن قميئة :

لا تحسبن الدهر مخلدكم ... او دائماً لكم ولم يـدم
لو دام ، دام لتبع وذوي الأصناع من عاد ومن ارم [4]

وقال حسّان مادحاً قومه :

ملوكاً على النـاس لم يملكوا ... من الدهر يوماً كحل القسم
فانبوا بعـــاد واشياعهـا ... ثمود وبعض بقـايا ارم [5]

وأشار لبيد الى لقمان ولبد آخر نسوره فقال :

---

(١) تاريخ الطبري ص ٧٧٣ ج ١
(٢) الحماسة للبحتري ص ٣٤١
(٣) نفس المصدر ص ١٢٩
(٤) نفس المصدر ص ١٨٢
(٥) السيرة ص ٩٤١ .

ولقد جرى لبد فادرك جريه ريب الزمان وكان غير مثقل
لما رأى لبد النسور تطايرت رفع القوادم كالفقير الاعزل [1]

وقال في معلقته :

امست خلاء وأمسى اهلها احتملوا أخنى عليها الذي اخنى على لبد [2]

وكان لقمان قد خُيّر في حياته فاختار عمر سبعة أنسر .. حتى كان آخرها لبد . فلما مات حاول لقمان النهوض فاضطربت عروقه وخرّ ميتاً [3] .

وفي قصيدة بائية مطلعها : « طحا بك قلب في الحسان طروب » يشير علقمة الى حديث ناقة صالح ، وكيف رغا سقبها فوقهم - كما مر معنا - حينما عقروها . قال :

رغا فوقهم سقب السماء فداحص بشكته لم يستلب وسليب [4]

ولنأت الى اشعار جرهم :

قالوا توفي نابت بن اسماعيل فولي البيت بعده جده لأمه مضاض بن عمرو الجرهمي ، فكان سيد جرهم .

وكان على قطورا رجل منهم يقال له السميدع ، يعشر من دخل مكة من أسفلها ، بينما كان عمرو يعشر من دخلها من اعلاها .

وقد تحكم الخلاف بينهما حتى التقوا (بفاضح) وهو مكان اقتتلوا فيه اقتتالاً شديداً ، فقتل السميدع وفضحت قطورا فيقال ما سمي بفاضح إلا بذلك !

ثم تداعوا للصلح فاصطلحوا في « المطابخ » وهو شعب بأعلى مكة ، وأسلموا الأمر الى مضاض ، وبهذا يقول :

ونحن قتلنا سيد الحي عنوة فاصبح فيها وهو حيران موجع

---

(١) الحماسة للبحتري ص ١١٨ .

(٢) العقد الثمين في دواوين الشعراء الجاهليين ص ٥ والاكليل للهمداني ص ١٧ ج ٨ .

(٣) الاكليل ايضاً ص ٢١٥ .

(٤) العقد الثمين ص ١٠٧ وشرح ديوان علقمة للشنتمري ص ٣٤ .

وما كان يبغي ان يكون سواؤنا ... بها ملكاً حتى أتانا السميدع
فذاق وبالا حين حاول ملكنا ... وعالج منا غصة تتجرع
فنحن عمرنا البيت كنا ولاته ... نحامي عنه من اتانا وندفع
وما كان يبغي ان يلي ذاك غيرنا ... ولم يك حي قبلنا ثم نمنع
وكنا ملوكاً في الدهور التي مضت ... ورثنا ملوكاً لا ترام وتوضع ![1]

فلما حازت خزاعة امر مكة وصاروا أهلها جاءهم بنو اسماعيل (وكانوا قد اعتزلوا الحرب بينها وبين جرهم) فسألوهم السكنى معهم وحولهم فأذنوا لهم. أما جرهم فقد نفيت عن مكة، واما مضاض بن عمرو ابن الحارث بن مضاض بن عمرو الجرهمي، فلما رأى ذلك وقد أصابه من اللوعة والصبابة الى مكة ما احزنه، ارسل الى خزاعة يستأذنها في الدخول عليهم والنزول في جوارهم فأبت، حتى انها هدرت كل دم جرهمي يقرب من الحرم !

ونفرت لمضاض أبل ... ولما طلبها دخلت الحرم، فظهر على ابي قبيس يتفقدها فأبصر الابل تنحر وتؤكل لا سبيل اليها. وخاف ان هبط الوادي ان يُقتل فولى منصرفاً حزيناً كئيباً[2] وانشد يقول:

كأن لم يكن بين الحجون الى الصفا ... أنيس ولم يسمر بمكة سامر
ولم يتربع وسطه فجنوبه ... الى المنحنى من ذي الاريكة حاضر
بلى نحن كنا اهلها فابادنا ... صروف الليالي والجدود العواثر
وابدلنا ربي بها دار غربة ... بها الذئب يعوي والعدو المخامر
وبدلت منها اوجها لا اريدها ... وحمير قد بدلتها واليحابر
فان تمل الدنيا علينا بكلكل ... ويصبح شر بيننا وتشاجر
فنحن ولاة البيت من بعد نابت ... نطوف بذاك البيت والخير ظاهر
وانكح جدي خير شخص علمته ... فابناؤه منا ونحن الاصاهر
واخرجنا منها المليك بقدرة ... كذلك يا للناس تجري المقادر

---

(١) اخبار مكة ص ٤٤ – ٤٦ .

(٢) راجع اخبار مكة ص ٢٦ – ٥٧ .

فصرنا احاديثاً وكنـا بغبطة كذلك عضتنا السنون الغوابر
وسحت دموع العين تبكي لبلدة بها حرم امن وفيها المشاعر
وتبكى لبيت ليس يؤذى حمامه يظل به امناً وفيه العصافر
وفيه وحوش لا ترام انيسة اذا خرجت منه فليست تغادر
ويا ليت شعري من باجياد بعدنا اقام بمفضي سيله والظواهر
فبطن منى امسى كأن لم يكن به مضاض ومن حيي عدي عمائر
فهل فرج آت بشيء نحبه وهل جزع منجيك مما تحاذر [1]

« ولو صح هـذا الشعر – كما يقول العميد الدكتور طه حسين – لكانت هذه اللغة القرشية التي نزل بها القرآن من القدم وبعد العهد بحيث لا نظن ولا نتصور » [2] . ثم يقول : « وان هذا الشعر الذي يضاف الى الذين عاصروا اسماعيل انما هو كشعر عاد وثمود وطسم وجديس لا قيمة له ولا غناء فيه . صنعه القصاص صنعة وتكلفوه تكلفاً رغبة في الفكاهة ، او تزيين القصص او تفسير ما يتصل ببناء الكعبة ، واختصام العرب حولها » [3] . ويقول ايضاً : « فلو صح هـذا الشعر لكانت اللغة التي تعلمها اسماعيل بن ابراهيم من اصهاره الجرميين قبل الاسلام بأكثر من خمسة عشر قرناً هي هذه اللغة التي تراها في هـذا الكلام سهلة لينة ، لا شدة فيها ، ولا عنف ، مستقيمة قواعد النحو والصرف والعروض والقافية ، على ما كانت تستقيم عليه للقرشيين ايام النبي وبعد ظهور الاسلام » [4] .

وهم لم يكتفوا بسكان مكة ! فقد قالت سبأ وحمير شعراً ، شعراً عربياً ! لا بل ان سبأ نفسه قال شعراً ، وإذا لم تشأ فقد كان مسلماً ايضاً ، ومن الذين يعلمون بظهور محمد في المستقبل . لقد قال رحمه الله :

---

(١) تراجع في السيرة ص ٧٤ والاغاني ص ١١٠ ج ١٣ ، والبداية والنهاية ص ١٥٨ ج ٢ ، وتاريخ ابن خلدون ص ٣٣٢ ج ٢ ، واخبار مكة ص ٥٦ - ٥٧ .

(٢) في الادب الجاهلي ص ١٨٩ .

(٣) نفس المصدر ص ١٩٠ .

(٤) نفس المصدر ص ١٩١

سيملك بعدنا ملكاً عظيماً نبي لا يرخص في الحرام

الى قــوله :

يسمى احمداً يا ليت اني اعمر بعد مبعثه بعــام

فاعضده واحبوه بنصري بكل مدجج وبكل رام

متى يظهر فكونوا ناصريه ومن يلقاه ، يبلغه سلامي ![1]

والحقيقة ان هذه الـ : « يبلغه سلامي » لتعبير رائع !!

ويموت سبأ ... فيرثيه ولده حمير باول مرثية :

عجبت ليومك ماذا فعــل وسلطان عزك كيف انتقل

فاسلمت ملكك لا طائعــاً وسلمت للأمر لمــا نزل !

قصيدة عامرة !! تبلغ الثلاثين ، وتشهد لمختلقها بمعرفته العروضية!![2].

ولتبع الذي زحف على المدينة واخذ معه الحبرين اللذين اخــبراه بالنبي !؟. اشعار عربية من طراز اشعار سبأ . قال لا فض فوه ! :

شهدت على احمــد انه رسول من الله باري النسم

فلو مــد عمري الى عمره لكنت وزيراً له وابن عم

وجاهــدت بالسيف اعداءه وفرجت عن صدره كل غم[3]

اما شطرة البيت الثاني « لكنت وزيراً له وابن عم » ففي الحقيقـة انها من طراز الـ : « يبلغه سلامي » السابقة .

والشعر الذي يضاف الى أسعد تبع ليس بالقليـل . ويكفي ان له قصيدة في جده ذي القرنين تتجاوز الثلاثمائه بيت !! [4] وله قصيـدة يذكر بها هبوطه المدينة وملاقاته اليهوديين وما كان من شأنه في مكة تبلغ ثلاثة وعشرين بيتاً ! [5] وابيات في كسوته البيت وارتحاله عنه[6]..

(١) البداية والنهاية ص ١٥٨ ج ٢ .

(٢) الاكليل ص ٢٠٥ - ٢٠٧ ج ٨ .

(٣) البداية والنهاية ص ١٦٦ ج ٢ .

(٤) راجع بعضها في الاكليل ص ٢٢٤ حـ ٨.

(٥) راجعها في تاريخ الطبري ص ٩٠٨ ج ١ .

(٦) راجعها في اخبار مكة ص ١٧٤ .

ويضيفون الى حسان تبع :

ايها الناس ان رأيي يريني وهو الرأي طوفة في البلاد
بالعوالي وبالقنابل تردى بالبطاريق مشية العواد
وبجيش عرمرم عربي جحفل يستجيب صوت المنادي
من تميم وخندف واياد والبهاليل حمير ومراد
فاذا سرت سارت الناس خلفي ومعي كالجبال في كل واد
سقني ثم سق حمير بعدي كأس خمر اولى النهي والعماد[1]

ويعلق العميد الدكتور طه حسين على هذه الأبيات بقوله :

« فما ترى من هذا الشعر ولا سيما حين تقيسه الى ما قدمناه لك في الكتاب الثاني من نصوص حميرية ، وتقارن بينه وبين هذه النصوص في اللفظ والنحو والصرف ؟ » [2] .

اما نحن فنقول ايضاً مع ابي عمرو بن العلاء رحمه الله : « ما لسان حمير واقاصي اليمن بلساننا ولا عربيتهم بعربيتنا » [3] . ولهذا فكل ما قيل بهذا الخصوص مصطنع لا ريب في ذلك ، على ان هذا لا يمنع الاعتقاد بأن مثل تلك الأساطير كان معروفاً في الجاهلية ومنها تمكنوا في الاسلام من صوغها او من الاشارة الى بعضها شعراً . ولقد أشار لبيد الى ارم وحمير فقال .

او لا ترى ان الحوادث اهلكت ارما ورامت حميرا بعظيم

وكذلك قال عتاهية بن سفيان الكلبي :

ألم تر ان الدهر أدى بتبع ولم ينج منه ذو الكتائب حسان
وظن عدي ان غمدان مانع فاسمله اذ عاين الموت غمدان[4]

ولا سبيل الى الشك في ان الشعراء الجاهليين قد عرفوا سليمان

---

(١) الاغاني ص ٧ ج ٢٠ .

(٢) في الادب الجاهلي ص ١٩١ — ١٩٢ .

(٣) طبقات الشعراء ص ٤—٥ .

(٤) حماسة البحتري ص ١١٩—١٢٠ .

وتسخيره الحيوان والجن والرياح لأغراضه ومنشآته . ولم تقف معرفتهم عند هذا الحد ، وانما كانوا على علم بكثير من أحداث العهــدين القديم والجديد [1] كحديث التكوين ، واسطورة الطوفان ، ورحلات ابراهيم الخليل ، واعمــال موسى واخيه وشأنهما مع فرعون .. ومن ثم مجيء المسيح وحديث العذراء واصحاب الكهف ، وغير ذلك كثير .

ولا نشك ان هذه الأساطير إنما دخلت الى الجزيرة عن طريق اليهود والنصارى ، وكان لهم ، كما ذكرنا سابقاً ، مستعمرات ومراكز وبلدان عمروها في العصور الجاهلية سنين عديدة قبل الاسلام .

ومما يذكر سليمان وتسخيره الانس والجن والرياح قول الأعشى بعد وصفه بنات الدهر :

فذاك سليمان الذي سخرت له   مع الانس والجن الرياح المذاكيا
فلو كان شيء خالداً غير ربنــا   لكان لها من سائر الناس واليا [2]

وعلى ذكر سليمان والجن نشير الى نقل العفريت عرش بلقيس حينما وفدت زائرة سليمان في بيت المقدس : « لما طلب سليمان من الجن ان يحضروا عرش بلقيس ، وهو سرير مملكتها التي تجلس عليه وقت حكمها قبل قدومها عليه (قال عفريت من الجن انا آتيك به قبل ان تقوم من مقامك) » [3] . ويأتي العرش بطرفة عين مــن اقاصي اليمن الى مشارف الشام . ولما جاءت بلقيس سليمان اراد ان يختبر فهمها (فلما جاءت قيل اهكذا عرشك قالت كأنه هو) ومن اين لها ان تعرف انه هو وقد غادرته مكانه في سبأ !!

ولا نطيل بهذه الاسطورة وإنما نرجع الى الشعر فنذكر فقط قول النابغة وهو يمدح النعمان ويذكر كيف سخّر سليمان الجن في البنـاء . قال النابغة في « يا دار ميّة » :

---

(١) راجع النصرانية وآدابها بين عرب الجاهلية (القسم الاول) ص ٤ : ٢٥-٢٨٢ .
(٢) الحماسة للبحتري ص ١٢٨
(٣) البداية والنهاية ص ٢٣ ج ٢

فتلك تبلغني النعمان ان له فضلاً على الناس في الأدنى وفي البعد
ولا ارى فاعلاً في الناس يشبهه ولا احاشي من الاقوام من احد
ولا سليمان ... (وتروى)
الا سليمان إذ قال المليك له قم في البرية فاحددها عن الفند
وخيس الجن اني قد اذنت لهم يبنون تدمر بالصفاح والعمد
فمن اطاعك فانفعه بطاعته كما اطاعك وادلله على الرشد
ومن عصاك فعاقبه معاقبة تنهى الظلوم ولا تقعد على ضمد [1]

وفي عام الفيل ، تلك الحادثة التي جرت قبيل الاسلام فأرّخ بها العرب ، اشعار كثيرة . رووا لأبي الصلت (وتروى لامية ابنه) قصيدة قال فيها :

ان آيات ربنا باقيات ما يماري فيهن الا الكفور
خلق الليل والنهار فكل مستبين حسابه مقدور
ثم يجلو النهار رب كريم بمهاة شعاعها منشور
حبس الفيل بالمغمس حتى ظل يحبو كأنه معقور
لازما خلقه الجران كما قطر من صخر كبكب محدور
حوله من ملوك كندة ابطال ملاويث في الحروب صقور
خلفوه ثم ابذعروا جميعاً كلهم عظم ساقه مكسور
كل دين يوم القيامة عند الله إلا دين الحنيفة زور [2]

ولما وافى ابرهة الى مكة قال عبد المطلب وهو آخذ بحلقة باب الكعبة :

يا رب لا أرجو لهم سواكا
يا رب فامنع منهم حماكا
ان عدو البيت من عاداكا
امنعهم ان يخربوا قراكا

---

(١) العقد الثمين ص ٧

(٢) السيرة ص ٤٠

وهنالك ابيات اخرى قالها قبل ان يصعد الى الجبل هرباً من الاحباش [1]. وينسبون اليه ابياتاً اخرى ، قال :

قلت والأشرم تردى خيله ... ان ذا الاشرم غر بالحرم
ان للبيت لرباً مانعاً ... من يرده بآثام يصطلم
رامه تبع فيما قد مضى ... وكذا حمير والحي قدم
هلكت بالبغي فيه جرهم ... بعد طسم وجديس وجثم
نحن اهل الله في بلدته ... لم يزل ذاك على عهد ابرهم [2]

وممن نسبوا اليه ابياتاً ذكر فيها حادثة الفيل ابو القيس بن الأسلت في قصيدة يعظم فيها حرمة البيت وينهى قريشاً فيها عن الحرب وعن قتال الرسول ويذكرهم بلاء الله عندهم ودفعه عنهم الفيل . قال منها :

فقوموا فصلوا ربكم وتمسحوا ... بأركان هذا البيت بين الأخاشب
فعندكم منه بلاء ومصدق ... غداة أبي يكسوم هادي الكتائب
كتيبته بالسهل تمسي ورجله ... على القاذفات في رؤوس المناقب
فلما اتاكم نصر ذي العرش ردهم ... جنود المليك بين ساف وحاصب
فولوا سراعاً هاربين ولم يؤب ... الى اهله م الجيش غير عصائب [3]

وقال عبد الله بن الزبعرى في انهزام الاحباش ذاكراً مكة وحرمها :

تنكلوا عن بطن مكة انها ... كانت قديماً لا يرام حريمها
لم تخلق الشعرى ليالي حرمت ... اذ لا عزيز من الأنام يرومها
سائل امير الجيش عنها ما رأى ... فلسوف ينبي الجاهلين عليمها
ستون الفاً لم يؤوبوا ارضهم ... بل لم يعش بعد الاياب سقيمها
كانت بها عاد وجرهم قبلهم ... والله من فوق العباد يقيمها [4]

وكما ذكرنا في اشعارهم حادثة الفيل ، كذلك كان للبعض منهم علم

---

(١) تاريخ الطبري ص ٩٤٠-٩٤١ ج ١

(٢) تاريخ ابن واضح اليعقوبي ص ٢٩٤ ج ١

(٣) راجع السيرة ص ١٧٨-١٨٠

(٤) البداية والنهاية ص ١٧٥ ج ٢ .

بقصة سيف بن ذي يزن ، ذلــك الأمير الذي يذكره التاريخ شاباً مطماحاً يطلب ملك آبائه من الأحباش فلا يقدر عليه فيستعين عليهم بقوى خارجية . رووا لأبي الصلت (وتروى لابنه أمية ايضاً) قصيدة اشار بها الى ذهاب ابن ذي يزن الى قيصر الروم ، ومن هنـــاك الى ملك فارس طالباً النجدة . قال :

ليطلب الوتر امثال ابن ذي يزن — خيم في البحر للأعداء أحـــوالا
اتى هرقلا وقد شالت نعامتـه — فلم يجد عنده النصر الذي قالا
ثم انثنى نحو كسرى بعد سابعة — من السنين لقد أبعدت قلقالا
حتى أتى ببني الأحرار يحملهم — تخالهم فوق متن الارض اجبالا
حملت اسداً على سود الكلاب فقد — اضحى شريدهم في الأرض فلالا
فاشرب هنيئاً عليك التاج مرتفعاً — في رأس غمدان داراً منك محلالا
واخطم بالمسك اذ شالت نعامتهم — واسبل اليوم في برديك اسبالا [1]

وذكر انس بن زنيم الكناني ذا يزن فقال :

وخاف الدهر قبلك ذا رعين — وذا يزن وخاض بذي نواس [2]

ولعدي بن زيد الحيري ابيات يذكر بها صنعـــاء ، ويشير الى قصة ذهاب الفرس الى اليمن لطرد الاحباش يقول فيها :

ماذا ترجي النفوس من طلب الخير وحب الحياة كاذبها
ما بعد صنعاء كان يعمرها — ولاة ملك جزل مواهبها

الى قوله :

ساقت اليها الاسباب جند بني الاحرار فرسانها مواكبها
يوم ينـــادون آل بربر واليكسوم لا يفلحن هاربهـــا
بعد بني تبع نجاورة — قد اطمأنت بها مرازبها [3]

---

(١) الحماسة للبحتري ص ١٢ . ويوجد اختلاف بالابيات في اخبار مكة ص ٩٩ ، والسيرة ص ٤٤ .

(٢) الحماسة للبحتري ص ١٨٣ .

(٣) نفس المصدر ص ١٢٥ والسيرة ص ٤٥ .

ولسنا بحاجة الى التنويه بأن من بين الركاكة التي تسود بعض هذه الاشعار ومن بين الضعف في تركيبها الشعري ، تشتم رائحة التكلف والصنعة ، على ان هذا لا يمنع ان يكون البعض الآخر حقيقياً أصيلاً لا يمت بأدنى سبب الى الانتحال والاختراع .

القسم الثالث : غيلان وجن

لو اردنا ان نثبت هنا الابيات المتفرقة التي يستدل منها على ما كان عليه العرب من العادات القديمة والمعتقدات ، ونشرح معنى هذه الابيات بالرجوع الى الخرافة التي تحملها وبسطها بالتفسير والايضاح لضاق بنا المقام المخصص لهذا الفصل ، وللتمثيل نذكر قول زهير :

فزل عنها واوفى رأس مرقبة كمنصب العتر دمى رأسه النسك

ففي هذا البيت نحتاج الى الاسهاب في الحديث عن الانصاب وكيف كانت تنذر لها البُدن ، وتنحر عندها فتسيل دماؤها في نقرة تحت الاله كغبغب العزّى ومناحر غيرها ، ثم كيف كان الكاهن يأخذ الدماء ويصبها على رأس النصب ، متطرقين الى الفلسفة من هذا العمل الاخير ، وكيف ان الاله فيه يكون مكتفياً بروح الضحية او الدم الذي يهرق ، مشاركاً بذلك عباده بالضحية . وبذلك يكون كل بيت موضوعاً قائماً بذاته يحتاج الى بحث وتدقيق ، فعرض ونقد حتى نفي تلك العادة ، وذا المعتقد حقهما من الدرس والتمحيص .

وكذلك القول في ترديدنا بيت ورقة بن نوفل :

كفى حزني كري عليه كأنه « لقى » بين ايدي الطائفين حريم

فتفسير اللقى وحدها وما تحمله من معان ، وما ترجعنا اليه من معتقدات ، لجدير بأن يكون موضوعاً مستقلاً . اذ اننا نحتاج الى الطواف حول الاصنام ، ومن ثم حول البيت لنبحث عن الاسباب التي ادت الى طواف بعض الرجال والنساء عراة حول الكعبة ، وعن الدوافع التي جعلت من قريش « حمسا » ، أهو الشعور الديني الخالص ، اما العامل

الاقتصادي المستتر بأثواب الدين ؟ كل ذلك يتمثل الى اعيننا حينما تتع على « اللقى » ، تلك الاثواب التي كان يرميها الطائفون ، ويطوفون عراة ان لم يحصلوا على ثياب من « الحمس » فتبقى لا ينتفع بها ، ولا يمسها احد حتى تبلى من الشمس والامطار والرياح ووطء الاقدام .

وكذلك القول في بيت شداد بن الاسود :

يخبرنا الرسول بأن سنحيى   وكيف حياة اصداء وهام[1] ؟

ومثله قول رجل من بني اسد :

اقيم على قبريكما لست بارحاً   طوال الليالي او يجيب صدا كما[2]

او قول المرقم المعروف بابن الواقفية :

لا يمنعنك من بغاء الخير تعقيد التمائم
ولا التشاؤم بالعطاس ولا التيمن بالمقاسم[3].

ومثله قول ربيعة بن مقروم :

اصبح ربي في الامر يرشدني   اذا نويت المسير والطلبا
لا سانح من سوانح الطير يثنيني   ولا ناعب اذا نعبا[4]

او قول طرفة :

اذا ما اردت الامر فامض لوجهه   وخل الهوينا جانباً متنائيا
ولم يمنعنك الطير مما اردته   فقد خط في الالواح ما كنت لاقيا[5]

وكذلك قول عمير بن قيس فاخراً بالنسأة على العرب .

ألسنا الناسئين على معد   شهور الحل نجعلها حراماً ؟[6]

والقول في الكهانة ، والعرافة ، وزجر الطير ، والطرق بالحصى ،

---

(١) السيرة ص ٥٣١

(٢) ديوان الحماسة لابي تمام ج ١ ص ٣٦٩

(٣) الحماسة للبحتري ص ٢٥٥

(٤) نفس المصدر ص ٢٥٧

(٥) نفس المصدر ص ٢٥٨

(٦) السيرة ص ٣١

وجز النواصي ، والوشم ، والخرزات ، والرقى ، والصدى والهامة ، كثير .

اما وان كنا سوف لا نتعرض لهذه المنثورات في بطون الكتب ، والكثير منها مجموع في « بلوغ الارب في معرفة احوال العرب » فاننا سنذكر شيئاً مما جاء في الغيلان والجن وغيرها من الشياطين التي كانت توحي على السنة الشعراء ما يقولون !

ولقد ذكرنا الشيء الكثير من معتقدات العرب في الجن ، فلا بد ، اذاً ، من ان نسمع شيئاً آخر من اشعار العرب في هذه المخلوقات العجيبة.

ومما يجدر ذكره ان « سمث » – على ما يظهر – يخالف من يعتقد بأن فكرة الجن انما هي نتيجة احتكاك الاعراب بغيرهم من الامم المجاورة ، فهو يرى ان هذه التخيلات كانت قد تولدت في بلاد العرب نفسها بعد انفصال العرب عن سواهم من الساميين [1] . ولا عجب في ما يذهب اليه « سمث » ، فما الاعتقاد بالجن إلا نتيجة خوف الاعراب واضطرابهم وتوحشهم في القفار والقيعان . وقد سبقنا الجاحظ الى مثل هذه الآراء ، فهو يقول في كتاب الحيوان : – « واذا استوحش الانسان مثل له الشيء الصغير في صورة الكبير ، وارتاب وتفرق ذهنه وانتقضت اخلاطه ، فيرى ما لا يرى ويسمع ما لا يسمع ويتوهم على الشيء الصغير الحقير انه عظيم جليل . ثم جعلوا ما تصور لهم من ذلك شعراً تناشدوه واحاديث توارثوها ، فازدادوا بذلك ايماناً ، ونشأ عليه الناشيء ، وربي به الطفل ، فصار احدهم حين يتوسط الفيافي ، وتشتمل عليه الغيطان في الليالي الحنادس ، عند اول وحشة او فزعة ، وعند صياح بوم ، ومجاوبة صدى . يقول في ذلك من الشعر على حسب الصفة فعند ذلك يقول رأيت الغيلان وكلمت السعلاة .

« ومما زادهم في هذا الباب واغراهم به ومد لهم فيه انهم ليس يلقون

(١) ص ٤٤١ Robertson Smith : Religion of the Semites

بهذه الاشعار وبهذه الاخبار إلا اعرابياً مثلهم ، وإلا غبياً لم يأخذ نفسه قط لتمييز ما يوجب التكذيب والتصديق او الشك ، ولم يسلك سبل التوقف والتثبت في هذه الاجناس قط . واما ان يلقوا راوية شعر، او صاحب خبر ، فالراوية عندهم كلما كان الاعرابي اكذب في شعره كان اظرف عندهم ، وصارت روايته اغلب ومضاحيك احاديثه اكثر ، فلذلك صار بعضهم يدعي رؤية الغول او قتلها او مرافقتها او تزويجها ، وآخر يزعم انه رافق في مفازة نمراً فكان يطاعمه ويؤاكله »[١] .

ولهذا يلاحظ اننا لا يمكننا ان نأخذ عن الجن صورة واضحة في اشعار العرب ، ولعل الغول اشهر هذه المخلوقات المتشيطنة في تلك الاشعار ، وقد اشتهرت باغتيالها وتلونها حتى اصبح الدهر عندهم غولاً ، والمنية غولاً ، والحوادث غولاً ، والسيف غولاً . ومما جاء في هذه المعاني قول امية بن ابي الصلت :

فاجعل الموت نصب عينك واحذر غولة الدهر ان للدهر غولا [٢]

وقال أعشى بني قيس :

فما ميتة ان متها غير عاجز بعار اذا ما غالت النفس غولها [٣]

وقال طريف بن ابي وهب العبسي في رثاء ابنه :

وفي الارض للاقوام قبلك غول [٤]

وقال عدي بن زيد في رسالة ارسلها من سجن النعمان الى ابنه عمرو بن عدي :

ألم يحزنك ان اباك عان وانت مغيب غالتك غول [٥]

وقال امرؤ القيس :

---

(١) كتاب الحيوان للجاحظ ج ٦ ص ٧٨ - ٧٩ .
(٢) البداية والنهاية لابن كثير ج ٢ ص ٢٢٦
(٣) الحماسة للبحتري ص ٢٥
(٤) ديوان الحماسة لابي تمام ج ١ ص ٤٥٠
(٥) تاريخ ابن واضح اليعقوبي ج ١ ص ٢٤٤

ألم يخبرك ان الدهر غـول   ختور العهد يلتقم الرجالا [1]

وقال خال زهير بشامة بن الغدير :

ولا تقعدوا وبكم منـــة   كفى بالحوادث للمرء غولا [2]

وقال جران العود :

فقلت ما لحمول الحي قد خفيت   اكل طرفي ام غالتهم الغول ؟

وقال :

كالرمح ارقل في الكفين واطردت   منه القناة وفيها لهـدم غول [3]

وقال كعب بن زهير في « بانت سعاد » التي وفد بهـــا على الرسول تائباً مسلماً ، يصف خلته بتلون الغول :

فما تقوم على حال تقوم بهـــا   كما تلون في اثوابها الغول [4]

ولقد شبهوا المرأة اذا كانت دميمة بالغول والسعلاة . قـالوا ان السعلاة هي اخبث الغيـلان ، واستسعلت المرأة اي صارت سعلاة اي صارت صخابة وبذيئة ! قال بعضهم :

لقد رأيت عجباً مـذ امسا   عجائزاً مثـل السعالي خمسا

يأكلن ما اصنع همساً همسا   لا ترك الله لهن ضرسا [5]

وجمـع جران العود بين الغول والسعلاة في بيت يشبه به زوجتيه من قصيدة يذكر فيها همه بزواجه فيقول :

لقد كان لي عن ضرتين عدمتني   وعمـــا الاقي منهما متزحزح

هما الغول والسعلاة حلقي منهما   مخدش ما بين التراقي مجرح [6]

وقال الاعشى :

---

(١) تاريخ الطبري ج ١ ص ٢٤١

(٢) الحماسة للبحتري ص ٢٨ .

(٣) ديوان جران العود ص ٣٦ و ٤١ .

(٤) تراجع القصيدة في السيرة ٨٨٩ – ٨٩٢ .

(٥) بلوغ الارب ج ٢ ص ٣٤٨ .

(٦) ديوان جران العود ص ٤ .

ورجال قتلى بجنبي اريك ونساء كأنهن السعالي [1]

اما الاشتر النخعي فقد شبه الخيل بالسعالي فقال :

ان لم أشق على ابن حرب غارة لم تخل يوماً من نهاب الانفس
خيلاً كأمثال السعالي شزّبا تعدو ببيض في الكريهة شوّس [2]

ويقال ان عبيد بن أيوب كان من لصوص العرب ، وكان جوالاً في مجهول الارض . ولهذا يروون له اشعاراً في الجن والغيلان والسعالي كثيرة ، فمن اقواله بذلك :

فلله در الغول اي رفيقة لصاحب قفر خائف متنفر
ارنّت بلحن بعد لحن واوقدت حوالي نيراناً تلوح وتزهر

وقال :

علام ترى ليلى تعذب بالمنى اخا قفرات كان بالذئب يأنس
وصار خليل الغول بعد عداوة حفياً وربته القفار البسابس

وقال :

تقول وقد ألممت بالأنس لمة مخضبة الاطراف خرس الخلاخل
اهذا خليل الغول والذئب والذي يهيم بربات الحجال الكواهل

وقال :

اقل بنو الأحسان حتى أغرتم على من يثير الجن وهي هجود [3]

وقال :

وساحرة عيني لو ان عينها رأت ما ألاقيه من الهول جنت
أبيت وسعلاة وغول بقفرة اذا الليل وارى الجن فيها أرنت [4]

وفي عزيف الجن يقول جران العود :

حملن جران العود حتى وضعنه بعلياء في ارجائها الجن تعزف [5]

---

(١) كتاب الحيوان للجاحظ ج ٦ ص ٤٩ .
(٢) ديوان الحماسة لابي تمام ج ١ ص ٤٨ — ٤٩ .
(٣) كتاب الحيوان للجاحظ ج ٦ ص ٥٠ — ٥١ .
(٤) بلوغ الارب ج ٢ ص ٣٤٩ .
(٥) ديوان جران العود ص ١٩ .

ولعل ثابت بن جابر او تأبط شراً [١] اشهر، من قال الشعر في الغيلان من الاعراب، حتى انه اشتق اسمه من كونه يلاقي الغيلان ويقتلها ويتأبط رؤوسها ويأتي بها الى الحي !! ولقد « كان تأبط شراً يعدو على رجليه، وكان فاتكاً شديداً فيأتي ليلة ذات ظلمة وبرق ورعد في قاع يقال له رحى بطان - في بلاد هذيل - فلقيته الغول [٢]. فلم يزل بها حتى قتلها وبات عليها، فلما اصبح حملها تحت ابطه وجاء اصحابه، فقالوا له لقد تأبطت شراً » [٣].

وفي هذه الحادثة يقول :

الا من مبلغ فتيان فهم	بما لاقيت عند رحى بطان
واني قد لقيت الغول تهوي	بسهب كالصحيفة صحصحان
فقلت لها كلانا نضو اين	اخو سفر فخلي لي مكاني
فشدت شدة نحوي فاهوى	لها كفي بمصقول يماني
فاضربها بلا دهش فخرت	صريعاً لليدين وللجران
فقالت عد فقلت لها رويداً	مكانك انني ثبت الجنان
فلم انفك متكئاً عليها	لانظر مصبحاً ماذا دهاني
اذا عينان في رأس قبيح	كرأس الهر مشقوق اللسان
وساقا مخدج وشواة كلب	وثوب من عباء او شنان [٤]

وقال ايضاً يصف الغول، ويذكر انه راودها عن نفسها فتمنعت عليه فقتلها :

وادهم قد جبت جلبابه	كما اجتابت الكاعب الخيعلا
على اثر نار ينور بها	فبث لها مدبراً مقبلا [٥]

---

(١) راجع اخباره في الاغاني جـ ١٨ ص ٢٠٩ - ٢١٨ .

(٢) الاغاني جـ ١٨ ص ٢١٢ .

(٣) نفس المصدر ص ٢١٠ .

(٤) نفس المصدر ٢١٠

(٥) مروج الذهب جـ ٣ ص ٣١٤

فاصبحت والغول لي جارة فيا جارتا انت ما اهولا
وطالبتها بضعها فالتوت علي وحاولت ان افعلا [1]

وفي الآلوسي :

. . . . فكان من الرأي ان تقتلا
فجللتها مرهفاً صارماً ابان المرافق والمفصلا
فصار بقحف ابنة الجن ذو شقاشق قد اخلق المحملا
فمن يك يسأل عن جارتي فان لها باللوى منزلا
غطاءة ارض لها حلتان من ورق الطلق لم تعزلا
وكنت اذا ما هممت اعتزمت واحري اذا قلت ان افعلا [2]

ويرى « سمث » بتأبط شراً رجلاً تاريخياً ، كما يرى ايضاً ان هذه الحادثة ممكنة الوقوع ، غير انه يلاحظ من الابيات التي وصف تأبط شراً بها عدوه ان هذا العدو الذي ظنوه غولاً انما كان احدى الهررة الضارية [3] .

اما الاعتقاد في الغيلان فلا يزال حياً الى اليوم ، وهو في الاماكن الموحشة ، والصحارى والقفار – كما كان سابقاً – اكثر منه في المساكن العامرة المأهولة . ولقد قال Doughty ان اعرابياً رسم له الغول [4] في الحجر وحلف له انه رآها ، وان صوتها صوت المرأة تنادي اطفالها ، والغريب ان الاعتقاد القائل بتشكل الغيلان بكل الصور الا الرجل تبقى رجل بعير ، لا يزال اثره باقياً ، وقد ظهر هذا الاثر جلياً بالرسم الذي اثبته Doughty للغول في كتابه « Travels in Arabia Deserta » .

هذا ، واما ما قيل في الجن وعلى لسانها فكثير ايضاً . وذكرها الاعراب في اشعارهم ، مشيرين الى صلاتها وعلاقاتها ببني البشر ، والى

(١) الاغاني ج ١٨ ص ٢١٠
(٢) بلوغ الارب ج ٢ ص ٣٤٤
(٣) ص ١٢٨ – ١٢٩ Religion of the Semites
(٤) انظر الصورة في ج ١ ص ١٥٤ Travels in Arabia Deserta

ركوبها مطايا غريبة من الحيوانات .

ولقد شبهوا الحسناوات بالجنيات ، واظن ان مثار هـذا التشبيه هو الفتنة والسحر المنبعث من حسن الغواني ووسامتهن كما شبهوا الرجـال بالجن ، وخصوصاً اذا قاموا باعمال جبارة عنيفة .

قال وضاح بن اسماعيل بن عبد كلال :

فانك لو رأيت الخيل تعدو عوابس يتخذن النقع ذيلا

رأيت على متون الخيل جنا تغير مغانما وتفيت نيلا [1]

وقال النابغة :

وهم زحفوا لغسان بزحـف رحيب السرب ارعن مرجحن

بكل مجرب كالليث يسمو على اوصـال ذيال رفن

وضمر كالقداح مسومـات عليهـا معشر اشباه جن [2]

وقال ابو دهبل الجمحي في تشبيه حسناء بالجنية .

اقول والركب قد مالت عمائمهم وقد سقى القوم كأس النعسة السهر

يا ليت اني بـأثوابي وراحلتي عبد لاهلك هـذا الشهر مؤتجر

ان كان ذا قـدراً يعطيك نافلة منا ويحرمنا ، مـا انصف القدر

جنيـة او لهـا جن يعلمهـا رمي القلوب بقوس ما لها وتر [3]

اما صدى اعتقادهم بعزيف الجن وانهم يسمعون اصواتها فقد اشرنـا اليه في بيت جران العود :

حملن جران العود حتى وضعنـه بعلياء في ارجائهـا الجن تعزف

وفي هذا المعنى قـال الراعي :

وداوية غبراء اكثر اهلها عزيف وبوم آخر الليل صائح

وجاء لذي الرمة :

ورمل لعزف الجن في عقداتـه هرير كتضراب المغنين في الطبل

---

(١) ديوان الحماسة جـ ١ ص ٢٦٦

(٢) العقد الثمين في دواوين الشعراء الجاهليين ص ٣١

(٣) ديوان الحماسة جـ ٢ ص ١٢٤ – ١٢٥

وقال :

فلاة لصوت الجن في منكراتها هرير وللابواب فيها نوائح [1]

وكنا أشرنا الى اعتقادهم بقتل الجن علقمة بن صفوان ، وامية بن حرب ، وسعد بن عبادة وقول الجن بذلك شعراً [2] . ومن قول الاعراب ان الجن تظهر لهم وتكلمهم الخ .. أبيات لشمر بن الحارث الضبي قال :

ونار قد حضأت بعيد وهن بدار لا اريد بهـا مقاما
سوى تحليل راحلة وعين اكالئها مخافة ان تناما
أتوا ناري فقلت منون ? قالوا سراة الجن! قلت عموا ظلاما
وقلت الى الطعام فقال منهم زعيم نحسد الانس الطعاما [3]

وبهذا المعنى قال جذع بن سنان :

اتوا ناري فقلت منون انتم ? فقالوا الجن . قلت عموا صباحا
نزلت بشعب وادي الجن لما رأيت الليل قد نشر الجناحا
اتيتهم وللأقـدار حـتم تلاقي المرء صبحاً او رواحا
اتيتهم غريبـاً مستضيفاً رأوا قتلي اذا فعلوا جناحـا
اتوني سافرين فقلت اهلا رأيت وجوههم وسما صباحـا
نحرت لهم وقلت ألا هلمـوا كلوا مما طهيت لكم سماحا [4]

وقال على لسان الجن بعض الأعراب ذاكراً مطاياهم التي يركبونها في اسفارهم :

وكل المطايا قد ركبت فلم اجد الذ واشهى من مطايا الثعالب
ومن عنظوان صيفـة شمّرية تخب برحليهـا امام الركائب
ومن جرذ سرح اليدين معرج يقوم برحلي بين ايدي المواكب
ومن فأرة تزداد عتقا وجدة تبرح بالحوص العتاق النجـائب

(١) كتاب الحيوان للجاحظ ج ٦ ص ٥٤ .

(٢) تراجع في كتاب الحيوان للجاحظ ج ٦ ص ٦٣ — ٦٤ .

(٣) نفس المصدر ص ٦٠ .

(٤) بلوغ الارب ج ٢ ص ٣٥٢

وعن كل فتلاء الذراعين حرة   مدربة مـن عافيات الارانب
ومن ورل يعتام فضل زمانه   اضر بهِ طول السرى في السباسب[1]

وذكرهم على ألسنة الجن اشعاراً يسوقنا الى حديث الشياطين الذين كانوا ينطقون فحول الشعراء بالشعر . ومن طريف ما روى المعري في رسالة الغفران ان شيخه التقى بجني اسمـه الخيتعور احد بني الشيصبان فسأله ، كعادته في رحلته السماوية ، عن اشعار الجن ، فقال : « وهل يعرف البشر من النظيم الا كما تعرف البقر من علم الهيئة ومساحـة الارض ؟! وانما لهم خمسة عشر جنساً من الموزون قل ما يعدوها القائلون ، وان لنا لآلاف اوزان ما سمع بها الانس !! وانما كانت تخطر بهم اطيفال منا عارفون فتنفث اليهم مقدار الضوازة من أراك نعمان[2] . »

فالجن ، اذاً ، كانت تقول الشعر وتلقيـه على ألسنة الشعراء ، كما كانت تلقن القيان هوميروس فصيح الاشعار . والقيان هن المغنيات . كن في اعتقاد اليونان بنات زفس ، ويقمن معه يطربن الآلهـة . وكان الشعراء منهم يستوحوهن في انشادهم ، ويستمد المطربون عونهن في التلحين والتوقيع . فهن ربات الشعر واللحن والانشاد ، يخاطبهن هوميروس بصيغة الجمع تارة ، وبالمفرد تارة اخرى . وقد يقول الالـهة ويعني بها احداهن ولا يخفى ان كلمة « موسيقى » انما هي مشتقة من « موسا » وهو اسم القينة باليونانية[3] .

فالشاعر في الجاهليتين اليونانية والعربية كان يملك قوى علوية يستمد منها فن الشعر . ولهذا قالت قريش عن محمد أنه شاعر – كما ذكرنا ، وكما جاء في القرآن – وان لم يأت بشعر ، وانما ظناً منهم انـه ذو اتصال مباشر بأرواح علوية اعتبروها شياطين وتوابع ، وهي في عرف

---

(١) كتاب الحيوان للجاحظ ج ٦ ص ٧٤

(٢) رسالة الغفران للمعري ج ١ ص ١٠٤ .

(٣) الياذة هوميروس للبستاني . راجع الصفحات ١٦٩ و ٢٠٣ و ٢٨٨ .

الغير ، ملائكة . وعلى كل فهي وحي خفي وصلة وثيقة بين النبي والله ، او بين الشاعر وما وراء الطبيعة . ولقد جاء في الكتـــاب الكريم : « هل انبئكم على من تنزّل الشياطين ، تنزل على كل أفاك اثيم » [١] .

هذا ، وزعمت الاعراب ان مع كل فحل من الشعراء شيطانـاً من هذه الشياطين . فقد قال حسان :

ولي صاحب من بني الشيصبان فطوراً اقول وطوراً هوه [٢] .

وقال الاعشى :

دعوت خليلي مسحلا ودعوا له جهنّام بعـــداً للغوي المذمم

وقال راجز :

اني وان كنت صغير السن وكان في العــين نبو عني

فان شيطـــاني امير الجن يذهب بي في الشعر كل فن [٣]

وافتخر احدهم بان شيطانه ذكر فقال :

اني وكل شاعر مــن البشر شيطانه انثى وشيطاني ذكر [٤]

وكثيراً ما تحكم الجن على الشعراء فتفضل واحداً على الآخر . حدّث بعضهم قال :

« بينا انا اسير في طريقي ببلقعة من الارض لا انيس بها إذ رُفعت لي نار فدفعت اليها ، فاذا بخيمة واذا بفنائهـــا شيخ كبير ومعه صبية صغـار . فسلمت ثم انخت راحلتي آنساً به تلك الساعة ، فقلت هل من مبيت ؟ قـال نعم في الرحب والسعة ! ثم القى الي طِنفسة رحل فقعدت عليها . ثم قال : ممنْ الرجل ؟ فقلت حميري شامي . قال نعم ! اهل الشرف القديم . ثم تحدثنا طويلاً الى ان قلت : اتروي من اشعار العرب شيئاً ؟

---

(١) القرآن الكريم س ٢٦ آية ٢٢٢

(٢) بلوغ الارب للالوسي ج ٢ ص ٣٦٥

(٣) رسالة الغفران ج ٢ ص ٤٧٨-٤٧٩

(٤) كتاب الحيوان للجاحظ ج ٦ ص ٧٠

قال نعم ، سل عن ايها شئت . قلت فانشدني للنابغة . قال اتحب ان انشدك من شعري انا ؟ قلت نعم . فاندفع ينشد لامرىء القيس والنابغة وعبيد . ثم اندفع ينشد للأعشى . فقلت لقد سمعت بهذا الشعر منذ زمان طويل ، قال للأعشى ؟ قلت نعم ، قال : فأنا صاحبه ، قلت فما اسمك ؟ قال مسحل السكران بن جندل ! فعرفت انه من الجن ، فبت ليلة الله بها عليم ، ثم قلت له : من اشعر العرب ؟ قال ارو قول لافظ بن لاحظ ، وهياب ، وهبيد ، وهاذر بن ماهر ! قلت هذه اسماء لا اعرفها ، قال اجل ، اما لافظ فصاحب امرىء القيس ، واما هبيد فصاحب عبيد بن الابرص وبشر ، واما هاذر فصاحب زياد الذبياني ، وهو الذي استنبغه ، ثم اسفر لي الصبح فمضيت وتركته »[1].

ونختتم الحديث بقصة طريفة عن الأعشى ، وقد خرج يريد قيس بن معديكرب بحضرموت ، فبينما هو في مسيره أضلّ الطريق ، فالتجأ الى خباء وقعت عليه عينه :

-- ما شأنك ؟

- انا الأعشى . أقصد قيس بن معديكرب .

- حياك الله : أظنك امتدحته بشعر ؟

- نعم . واندفع ينشد :

رحلت سمية غدوة اجمالها   غضباً عليك فما تقول بدا لها ؟!

- حسبك . أهذه لك ؟ - نعم .

- ومن سمية التي تنسب بها ؟

- لا أعرفها ، وانما هو اسم ألقي في روعي .

فينادي صاحب الخباء : يا سمية اخرجي ! واذا بجارية خماسية قد خرجت وقالت : ماذا تريد يا أبت ؟ قال انشدي عمك قصيدتي التي امتدحت بها قيس بن معديكرب ، ونسبت بك في أولها . فأنشدتها

---

(١) جمهرة اشعار العرب للقرشي ص ٢٢ - ٢٣ .

وأتت على آخرها .

ثم التفت للأعشى ، وقال :

– هل قلت شيئاً غير ذلك ؟

– نعم . قصيدة هجوت بها ابن عم لي يقال له يزيد بن مسهر .

ودع هريرة ان الركب مرتحل وهل تطيق وداعاً ايها الرجل ؟!

– حسبك . من هريرة هذه ؟

– لا أعرفها . وسبيلها سبيل التي قبلها .

فنادى الرجل : يا هريرة ! فاذا جارية قريبة السن من الاولى ، فقال لها : أنشدي عمك قصيدتي التي هجوت بها أبا ثابت يزيد بن مسهر . فأنشدتها ، لم تنقص منها حرفاً واحداً .

وهنا يحتار الأعشى ، وتغشاه رعدة .

ويرى الشيخ ما نزل به ، فيقول له : ليفرخ روعك يا أبا بصير . انا هاجسك مسحل الذي يلقي على لسانك الشعر ! فتسكن نفس الأعشى ، ويدله على الطريق فيمضي في سبيله [1] .

هذا ، ولم يكن لشعراء الجاهلية شياطينهم فحسب ، وانما كان لشعراء الاسلام ايضاً كالفرزدق ، وجرير ، وبشار ، وغيرهم من الفحول .

---

(١) بلوغ الارب ج ٢ ص ٣٦٢ – ٣٦٨ .

كلمة في المصادر

●

وبعد ان أتينا على آخر فصل من فصول الكتاب يجدر بنا ان نلقي نظرة عجلى على المصادر التي استقينا منها .

وهي كثيرة . تشتمل على عدد كبير من الكتب التاريخية والأدبية ، ولا تقتصر على هذين البابين ، وانما تتعداهما الى بعض الكتب الدينية ، وكتب السير ، والأحاديث والتفاسير .

وكثيراً ما رجعنا الى المعاجم اللغوية .

واحتجنا الى تحقيق بعض الأماكن ، وما يتعلق بها من أخبار ، فاستشرنا عدداً من الكتب الجغرافية القديمة .

وهنالك ما لا يمت بصلة الى هذا او ذاك من الكتب « كالحيوان » مثلاً ، و « عجائب المخلوقات » وان كان في الأول كثير من النقد والادب والتاريخ .

ومن المآخذ ما هو فكري او علمي ، وكثيراً ما يكون فيها كتب استشارة او تحقيق .

والذي يلفت النظر انه لا يوجد كتاب يقتصر بأبحاثه على شبه دراستنا غير كتابين : « الاصنام » للكلبي ، وقد اختصه بآلهة العرب . و « آكام المرجان في احكام الجان » للشبلي ، وقد اختصه – كما يظهر من اسمه – بالجن . اما ما عداهما فكتب عامة ، على الباحث ان يغوص في بحارها مراراً وتكراراً حتى يحصل على صدفة او محارة تكون غالباً لدى التحقيق فارغة لا نفع فيها !

من هنا تبتدىء بالباحث المتاعب ومشقات البحث ، فهو مضطر ان يقرأ كتاباً بكامله يظن ان فيه الخير ، فيتجاوز في قراءته المئات من الصفحات الصفراء القاتمة حتى يقع على بضعة سطور .

ولا تقف هذه الحالة عند الكتب القديمة ، وانما تعترضنا ايضاً في الكتب الحديثة والموسوعات ، حيث نقرأ فيها الفصول العديدة ونحن نعلم اننا سوف لا نخرج منها إلا بالنزر اليسير من المواد التي يمكن ان تساعدنا في تكوين الفكر .

اما ان يكون هناك بحث عام ، او كتاب اقتصر على موضوعنا بعينه ، فلم تقع عيننا عليه بعد ، ولهذا فلا عجب من قولنا انها محاولة جريئة جديدة نرجو ان يقيض الله لها من يعاود الكرة حتى يتعبد السبيل لمحبي هذا النوع من الدراسة ، فيتمكن بعضهم من البلوغ الى آفاق لم يكن بوسعنا اليوم ان نتطاول اليها .

وكم كنا نود ان يتسع بنا المجال فنحلل اشهر المراجع التي استندنا اليها في دراستنا هذه ، على ان ذلك لا يمنعنا من ان نخص بعضها بالذكر « كالقرآن الكريم » في الدرجة الاولى ، ثم كتاب الأزرقي « اخبار مكة و « كتاب الاصنام » لأبي المنذر هشام الكلبي . ويأتي بعدها مباشرة « السيرة » لابن اسحاق ، و « تفسير الطبري » و « تاريخه » و « مروج الذهب » للمسعودي . ومن ثم نقفز رأساً الى ياقوت في كتابه القيم « معجم البلدان » .

ولا بد ان نشير بصورة خاصة ايضاً الى « كتاب الحيوان » للجاحظ و « عجائب المخلوقات وغرائب الموجودات » للقزويني ثم كتاب « حياة الحيوان الكبرى » للدميري . وهنا يجب ان لا نغمط كتاباً آخر حقه وان تأخر عن كل ما ذكرنا ، وهو : « آكام المرجان في احكام الجان » لبدر الدين الشبلي .

ومن الكتب التي يشهد لصاحبها بالفن القصصي ، والتي يمكن ان

ندرجها هنا ، كتاب للكسائي اسمه « قصص الانبياء » .

اما من هو هذا الكسائي . أهو اللغوي المشهور « علي بن حمزة » اشهر نحاة الكوفة الذي توفي سنة ١٨٩ ﻫ ، ام هو آخر (محمد بن عبدالله) معروف بنفس اللقب ومجهول التاريخ ، فلم يثبت في ذلك قول . على ان الاشهر انه ليس علي بن حمزه المعروف .

هذا ، ولا بأس من درج الاغاني بين هذه الكتب التي نخصها بالذكر .

اما من الكتب الحديثة فنضع في رأس قائمتها كتاباً لولهوزن « Wellhausen » أسمه (Reste Arabischen Heidentums) « بقايا الوثنية العربية » ، وقد صدر في برلين عام ١٨٩٧ .

وفي رأس الكتب الحديثة ايضاً يبرز كتابان آخران للكاتب الانجليزي « W. Robertson Smith » وهما : 1. Religion of the Semites

2. Kinship and Marriage in Early Arabia

ويلحق بهذين اثنان آخران الأول لـ O' Leary وأسمه Arabia Before Muhammad والثاني لـ : S. H. Langdon وهو الحلقة الخامسة من سلسلة كتب في ميثولوجيا العالم ويختص بالساميين : Semitic Mythology .

هذا ، ولا تقل عن هذه الكتب قيمة ، مجموعة مقالات ذات فائدة جلى ، وهي منبثة في الموسوعات المشهورة كالموسوعتين البريطانية والاسلامية وموسوعة الدين والاخلاق .

ولما كانت الكتب الاخرى لا تخلو من فوائد جمة ، فلهذا رأينا ان نثبت كل ما امكننا الاطلاع عليه جارين في الكتب القديمة مع عصور مؤلفيها على الترتيب .

وليلاحظ قبل ذلك ان هناك كتباً ادبية ودواوين اشعار قديمة اجهدنا النفس في قراءتها دون ان نشير اليها هنا ، إما لعدم جدارتها بان تدرج بين غيرها من المصادر ، وإما لان الاستفادة منها غير مباشرة .

ولا ننكر ايضاً وجود مآخذ كثيرة يمكن ان تفيدنا في مثل دراستنا

هذه لم نطلع عليها إما لعجزنا عن الوصول اليها او لجهلنا بوجودهـــا ، واما لاننا اكتفينا بغيرها ظناً منا انها تغني عنها . ومن الواضح اخيراً ان للوقت اثره المجدي في منتوج الانسان .

وهمنا ثبت المصادر :

المصادر العربية

القسم الاول

الكتاب المقدس ، اي كتب العهد القديم ، والعهد الجديـــد ، بيروت ١٩١٥ .

القرآن الكريم

العقد الثمين في دواوين الشعراء الجاهلين – غريفرولد ١٨٦٩ .

محمـــد بن اسحاق (ت ١٥١ ه) السيرة – رواية ابن هشام (ت ٢١٣ ه) جوتنجن ١٨٦٠ .

الضبي (ت ١٦٨ ه) ، امثال العرب – قسطنطينية ١٣٠٠ .

القرشي ،ابو الخطاب (ت ١٧٠ ه) ، جمهرة أشعـــار العرب – مصر ١٩٢٦ .

الكسائي ، علي بن حمزة (ت ١٨٩ ه) ، قصص الانبياء (ويقال انه للكسائي محمد بن عبدالله ?) – مطبعة بريل ليدن ١٩٢٢ .

الكلبي ، ابو المنذر هشام (ت ٢٠٤ ه) ، كتاب الاصنام – الطبعة الثانية ، مطبعة دار الكتب مصر ١٩٢٤ .

الازرقي (ت ٢١٩ ه) ، اخبار مكة – ليبزك ١٨٥٨ .

ابو تمام (ت ٢٣١ ه) ، ديوان الحماسة – الطبعة الثانيـــة ، مصر ١٣٣٥ .

ابن سلام الجمحي (ت ٢٣٢ ه) ، طبقات الشعراء – مطبعة بريل ليدن ١٩١٣ .

ابن حنبل (ت ٢٤١ ﻫ) ، مسند ابن حنبل – المطبعة الميمنية مصر ١٣١٣ .

الجاحظ (ت ٢٥٥ ﻫ) : ١) البيان والتبين – الطبعة الثانية القاهرة ١٩٣٢ ، ٢) – الحيوان ، مصر ١٩٠٦ .

مسلم (ت ٢٦١ ﻫ) ، صحيح مسلم ، مصر ١٩٢٩ – ١٩٣٤ .

البخاري (ت ٢٦٥ ﻫ) صحيح البخاري – مصر ١٣٤٧ .

السكري ، ابو سعد (ت ٢٧٥ ﻫ) . ديوان جران العود دار الكتب ، مصر ١٩٣١ .

ابن قتيبة (ت ٢٧٦ ﻫ) :

١) كتاب المعارف . جوتنجن ١٨٥٠ .

٢) الشعر والشعراء . مطبعة بريل ليدن ١٩٠٢ .

٣) عيون الاخبار – دار الكتب ، القاهرة ١٩٢٥ .

٤) ادب الكاتب – مصر ١٣٥٥ .

٥) الميسر والقداح – القاهرة ١٣٤٢ .

اليعقوبي (ت ٢٧٨ ﻫ) ، تاريخ ابن واضح اليعقوبي – مطبعة بريل ليدن ١٨٨٣ .

الدينوري ، ابو حنيفة (ت ٢٨٢ ﻫ) ، الاخبار الطوال . مصر ١٣٣٠ .

البحتري (ت ٢٨٤ ﻫ) ، الحماسة مصر ١٩٢٩ .

المبرد (ت ٢٨٥ ﻫ) ، الكامل – مصر ١٣٠٨ .

الطبري (ت ٣١٠ ﻫ) :

١) تاريخ الرسل والملوك ، مطبعة بريل ليدن ١٨٨٤ .

٢) تفسير الطبري ، المطبعة الميمنية – مصر ١٣١٠ .

ابن عبد ربه (ت ٣٢٨ ﻫ) . العقد الفريد – مصر ١٩٣٥ .

الهمذاني (ت ٣٣٤ ﻫ) :

١) صفة جزيرة العرب – مطبعة بريل ليدن ١٨٨٤ .
٢) الاكليل – الجزء الثامن – بغداد ١٩٣١ .
المسعودي (ت ٣٤٦ هـ) :
١) مروج الذهب . باريس ١٨٦١ .
٢) التنبيه والاشراف . مصر ١٩٣٨ .
الاصبهاني ، ابو الفرج (ت ٣٥٦ هـ) ، الاغاني . بولاق ١٢٨٥ إلا الجزء الحادي والعشرين فقد طبع في ليدن ١٣٠٥ .
القالي ، أبو علي (ت ٣٥٦ هـ) ، الأمالي . المطبعة الاميرية – مصر ١٣٢٤ .
التجيرمي ، ابو اسحاق ابراهيم بن عبد الله (معاصر لكافور ؟) كتاب ايمان العرب في الجاهلية . القاهرة ١٣٤٣ .
الاصطخري (نبغ في ٣٤٠ هـ) ، مسالك الممالك – ليدن ١٩٢٧ .
ابن النديم (ت ٣٨٥ هـ) ، الفهرست . مصر ١٣٤٨ .
البيروني ، ابو الريحان محمد (ت ٤٣٠ هـ) ، الآثار الباقية عن القرون الخالية – ليبزك ١٨٧٨ .
المعري ، ابو العلاء (ت ٤٤٩ هـ) ، رسالة الغفران . نشرة الكيلاني الاولى – مطبعة المعارف ، مصر .
ابن رشيق (ت ٤٦٣ هـ) ، العمدة في صناعة الشعر ونقده . مصر ١٩٢٥ .
الفيروزابادي (ت ٤٧٦ هـ) ، القاموس . مصر ١٢٨١ .
الشنتمري (ت ٤٧٦ هـ) ، شرح ديوان علقمة . الجزائر ١٩٢٥ .
الزوزني (ت ٤٨٦ هـ) ، نيل الأرب في شرح معلقـات العرب . مصر ١٣٢٨ .
الراغب الاصبهاني (ت ٥٠٢ هـ) ، محاضرات الادباء . مصر ١٣٢٦ .
الميداني (ت ٥١٨ هـ) ، الامثال . وهو نظم الاحدب المسمى « فرائد اللآل في مجمع الامثال » . المطبعة الكاثوليكية بيروت ١٣١٢ .
الزمخشري ، محمود بن عمر (ت ٥٣٨ هـ) :

١) اعجب العجب في شرح لامية العرب ، الاستانة ١٣٠٠ .
٢) الكشاف عن حقائق غوامض التنزيل - بولاق ١٢٨٠ .
الشهرستاني (ت ٥٤٨ هـ) ، الملل والنحل - على هامش الفصل في الملل والاهواء والنحل لابن حزم (ت ٤٥٦ هـ) - الطبعة الاولى ١٣٢٠ .
ابن الجوزي (ت ٥٩٧ هـ) ، تلبيس ابليس (أو نقد العلم والعلماء) مصر ١٣٤٠ .
ياقوت (ت ٦٢٦ هـ) ، معجم البلدان - ليبزك ١٨٦٦ .
ابن الاثير (ت ٦٣٠ هـ) ، الكامل في التاريخ ، مطبعة بريل ، ليدن ١٨٦٦ .
القزويني (ت ٦٨٢ هـ) عجائب المخلوقات . جوتنجن ١٨٤٩ .
ابن العبري (ت٦٨٥ هـ) ، تاريخ مختصر الدول . بيروت ١٨٩٠ .
البيضاوي (ت ٦٨٥ هـ) ، انوار التنزيل واسرار التأويل ليبزك ١٨٤٦ - ١٨٤٨ .
ابن منظور (ت ٧١١ هـ) ، لسان العرب . مصر ١٣٠٠ - ١٣٠٧ .
ابو الفدا (ت ٧٣٢ هـ) ، تاريخ ابي الفدا . قسطنطينية ١٢٨٦ .
النويري (ت ٧٣٢ هـ) نهاية الأرب في فنون الأدب . دار الكتب ١٩٢٩ .
الشبلي ، بدر الدين (ت ٧٦٩ هـ) ، آكام المرجان في احكام الجان.
ابن كثير (ت ٧٧٤ هـ) ، البداية والنهاية ، مصر ١٣٤٨ .
ابن خلدون (ت ٨٠٨ هـ) :
١) مقدمة ابن خلدون . الطبعة الثالثة بيروت ١٩٠٠ .
٢) كتاب العبر وديوان المبتدأ والخبر الخ . بولاق ١٢٨٤ .
الدميري (ت ٨٠٨ هـ) ، حياة الحيوان الكبرى . مصر ١٣٠٥ .
النيسابوري ، نظام الدين (القرن التاسع ؟) : تفسير القرآن ورغائب الفرقان - على هامش تفسير الطبري .

الابشيهي (ت ٨٥٠ هـ) ، المستطرف في كل فن مستظرف . مصر ١٣٠٦ .
طاش كبري زاده (ت ٩٦٨ هـ) ، مفتاح السعادة . حيدر أباد ١٣٢٨ - ١٣٢٩ .
الديار بكري ، حسين (ت ٩٨٢ هـ) ، تاريخ الخميس في احوال أنفس نفيس مصر ١٣٠٢ .
النهروالي (ت ٩٩٠ هـ) ، الاعلام بأعلام البيت الحرام . ليبزك ١٨٥٧ .
الحلبي ، علي بن برهان الدين (ت ١٠٤٤ هـ) ، السيرة الحلبية . مصر ١٢٩٢ .
حاجي خليفة (ت ١٠٦٧ هـ) كشف الظنون - نشرة فلوجل ، ليبزك ولندن ١٨٣٥ - ١٨٥٨ .
البغدادي (ت ١٠٩٣) ، خزانة الادب . بولاق ١٢٩٩ .
البيتي ، جعفر بن محمد (ت ١١٨٢ هـ) ، مواسم الأدب وآثار العجم والعرب . مصر ١٣٢٦
الزبيدي (ت ١٢٠٥) ، تاج العروس - مصر ١٣٠٦

القسم الثاني

بطرس البستاني : دائرة المعارف ، بيروت ١٨٧٦ .
محمد فريد وجدي : دائرة معارف القرن العشرين ، الطبعة الثانية ١٩٢٣
بطرس البستاني : محيط المحيط ، بيروت ١٨٧٠ .
هارفي بورتر ، النهج القويم في التاريخ القديم ، بيروت ١٨٨٤ .
سليمان البستاني : الياذة هوميروس ، مصر ١٩٠٤ .
الأب لويس شيخو اليسوعي : النصرانية وآدابها بين عرب الجاهلية . القسم الاول ، بيروت ١٩١٢ .
زيدان :
١) العرب قبل الاسلام ، مطبعة الهلال - مصر ١٩٠٨ .

٢) انساب العرب القدماء ، مطبعة الهلال مصر – ١٩٢١ .
٣) تاريخ التمدن الاسلامي ، مطبعة الهلال – مصر ١٩٠٢ – ١٩٠٦ .
٤) تاريخ آداب اللغة العربية ، مطبعة الهلال – مصر ١٩١١ .
نلينو : علم الفلك . تاريخه عند العرب في القرون الوسطى – مصر ١٩١١
صروف « يعقوب » : بسائط علم الفلك وصور السماء ، مطبعة المقتطف – مصر ١٩٢٣
الجارم « محمد نعمان » : اديان العرب في الجاهليـة – مصر ١٩٢٣
الآلوسي « محمود شكري » : بلوغ الأرب في معرفة احوال العرب ، الطبعة الثانية ، مصر ١٩٣٤
براستد « هنري » : العصور القديمة ، المطبعة الاميركية ، بيروت ١٩٢٦
ا . ولفنسون : تاريخ اليهود في بـــلاد العرب في الجاهلية وصدر الاسلام – مطبعة الاعتماد ، مصر ١٩٢٧ .
ضومط (جبر) : فلسفة اللغة العربية وتطورها ، مطبعة المقتطف ١٩٢٩
الخضري (الشيخ محمد) : محاضرات تاريخ الامم الاسلاميـة الجزء الأول ، الطبعة الثالثة – مصر .
الدكتور طه حسين : في الأدب الجاهلي – الطبعة الثالثة ١٩٣٣ القاهرة
احمد امين : فجر الاسلام – الجزء الأول ، في الحياة العقلية . الطبعة الثانية – مصر .
هيكل (الدكتور محمد حسين) :
١) حياة محمد – القاهرة ١٣٥٤ .
٢) في منزل الوحي – دار الكتب ، القاهرة ١٣٥٦ .
الافغاني (سعيد) : اسواق العرب في الجاهلية والاسلام دمشق ١٩٢٧ .
معلوف (شفيق) : عبقر . مطبعة مجلة الشرق ١٩٣٦ .
مجلة المقتبس : ١٩١٠ .

مجلة المشرق : ١٩٣٦ - ١٩٣٧ .
جمعة (محمد محمود) : النظم الاجتماعية والسياسية عند قدماء العرب والامم السامية - ١٩٤٩ .

المصادر الأجنبية

George Sale : The Koran, London
J. H. Burckhardt : Travels in Arabia, London 1829
Smith : Dictionary of Greek and Roman Biography and Mythlogy, Boston 1859
C. R. Conder : Syrian Stone-Lore, New-York 1887
Ch. J. Lyall : Translation of Ancient Arabian Poetry, London 1930
Ch. M. Doughty : Travels in Arabia Deserta, Cambridge 1888
W. R. Smith : 1) Kinshep and Marriage in Early Arabia, London 1907
2) Religion of the Semites, London 1894
Lewis Spence : Myths and Legends of Babylonia and Assyria (1916), 3rd Ed 1928
Hackin and Others : Asiatic Mythology, Edinburgh
Olmstead : History of Assyria, New-York 1923
Sir William Muir : The Life of Muhammad, Edinburgh 1923
Ameer Ali : The Spirit of Islam, Londod 1923
O'Leary : Arabia Before Muhammad, London 1927
H. Lammens : Islam : Beliefs and Institutions — Translated from the French by Sir E. Denson Ross, London 1929
R. A. Nicholson : A Literary History of The Arabs, Cambridge 1930
Carl Clemen : Religions of the World, Plimpton Press, Norwood, Mass 1931
S. H. Langdon : The Mythology of All the World V. 5 (Semitic), Plimpton Press, Norwood Mass 1931
J. A. Montgomery : Arabia and the Bible, Pennselvania Press 1934
Ph. Hitti : History of the Arabs, London 1937
Oxford Dictionary
Encyclopaedia of Islam
Encyclopaedia of Religion and Ethics
The Jewish Encyclopaedia
Encyclopaedia of the Social Sciences

قائمة أبجدية
بأسماء الأعلام والأماكن والأرباب

— ب —

— ت —

— خ —

— د —

— غ —

— ف —

— ي —

المحتويات

الباب الثاني

آلهة العرب

الباب الثالث

عبادة النجوم

الباب الرابع

عبادات العرب الأخرى

الباب الخامس

المقامات الدينية

الباب السادس

أساطير الأولين

الباب السابع

ماوراء الطبيعة

الباب الثامن

صدى المعتقدات والأساطير في الشعر

